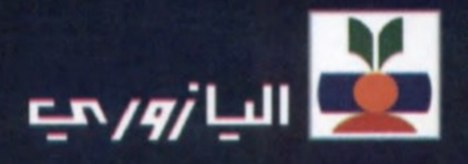
دور النساء في الخلافة العباسية

أمل محي الدين الكردي




Dr.Binibrahim Archive

دور النساء
في الخلافة العباسية

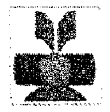
دور النساء
في الخلافة العباسية

أمل محي الدين محمد الكردي



المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2011/12/4504)

الطبعة العربية 2014



اليازوري
دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع
عمان - وسط البلد - شارع الملك حسين
هاتف: 4626626 6 962+ تلفاكس: 4185 461 6 962+
ص.ب: 520646 الرمز البريدي: 11152
www.yazori.com info@yazori.com

إهداء

أهدي هذا الجهد إلى والدي ووالدتي حفظهما الله،

كما أهديه إلى أخي بسام في المهجر أحببت أن يكون له أهداء مميز مع كل الحب

والى أبنائي محمد وزيد وجواد الأعزاء.

أمل محي الدين الكردي

المحتويات

مقدمة الكتاب

يعتبر العراق مركز حضاري ومعلوماتي واستكشافي وموضوع للبحث والتداول منذ فجر التاريخ ولغاية الأن.

فهو مكان أستقرار حضاري أمتزجت فيه الكثير من الجماعات البشرية وشكلت حضارات تداولت السلطة عليه لكن عروبة العراق وأسلاميته هما الهوية الأبرز والتي بقيت عالقة بأبنائه على الرغم من كل الاطماع من كافة الحضارات والقوى العالمية كافة.

والعصر العباسي هو العصر الذهبي للعراق وخاصة عند الحديث عن العصر العباسي الأول هو عصر ذهبي أجتماعيا واقتصاديا وسياسيا

ونظرا للغنى والبحبوحة المعيشية برزت ظاهرة الجواري في بغداد وكثر من المؤرخين يرجعون سبب ذلك الى الغنى المادي الفاحش الذي تراكم لدى الطبقة الحاكمة وبعض من أفراد الشعب من خلال تراكم مغانم الحروب والعائدات المالية والعينية التي وردت الى بغداد من كافة أنحاء الامبراطورية الاسلامية

فأنتشرت وازدهرت تجارة الرقيق وكانت الأناث تشكل الأغلبية لهذه التجارة وبالنسبة للذكورفقط أستثمروا الاوضاع وهذه البحبوحة وصعدوا بطريقة عجيبة وبحاجة الى درس وأستعصاء عن سبب صعودهم السياسي غير المبرر للعقل للوهلة الأولى فكيف هؤلاء الرقيق يصبحون سلاطين في ليلة وضحاها ومن أشهرهم كافور الأخشيي أحد سلاطين مصر وكذلك الأناث اللواتي أمهات وزوجات وساكنات قصور الخلفاء العباسية

وعلى رأسهن وأشهرهن خيزران أم هارون الرشيد كما برزت تجارة أخرى ومهنة من المهن التي أصبحت لها شأن في المشهد الاقتصادي النخاسين او تجارة الجواري وقد قاموا بدور كبير في التحولات الاجتماعية وكسر الكثير من العادات والتقاليد وتورد لنا المصادر الكثير من الحكايات عن هؤلاء واعمالهم وشبكاتهم

وفروعهم التي أمتدت من بغداد الى جميع أنحاء الارض ممتهنين مهنا تأبى العادات والتقاليد أن تستوعب مثل هذه المهن كما كان هناك حضارة تنمو وتزدهر وتتسارع فيها مشاركة المرأة فقد أعتمد الكثير من الخلفاء العباسيين على النساء وتم توظيفهم بالعديد من الوظائف حيث تولت ام الخليفة العباسي أم المقتدر رئيس محكمة أستئناف بغداد وكانت لسيدة بغداد الاولى زبيدة زوجة هارون الرشيد نفوذ قوية ولقبت بالملكة ببلاط العباسيين ويعتبر هذا العصر من أزهى عصور المرأة العربية والاسلامية وتوالت الاحداث السياسية المتدهورة لكي تؤثر على وضعية المرأة وتسلبها أنتصاراتها وأنتشرت دور الدعارة والبغاء والمهن الرخيصة للمرأة من الخلاعة والمجون والذي أصبح جزء من الحياة في العصر العباسي الثاني

لقد أبدعت الباحثة أمل الكردي في أبراز هذه الصورة واستطاعت أن تلقي الضوء على الاحداث والقصص عن نجاحات المرأة العباسية او أخفاقاتها في هذا المجتمع الخليط الذي بدأ يشكل في بغداد ويأخذ المجتمع ويصعد نحو العلوم وتارة نحو الاسفل غير أبه بركائز المجتمع كالدين والعادات والتقاليد والأعراف التي أنتهكت سرا وعلنا في العصر العباسي الثاني

فالباحثة الكردي أوردت الكثير من الأسماء والقصص لنساء كان لهن دور كبير مثل الخيزران ام هارون الرشيد وزبيدة زوجة هارون الرشيد والكثر مما سوف تجدونه في هذا السفر الذي قامت على جمعه من متون المصادر وكانت بحق باحثة لها نفس طويل وتمرس على أستعمال المصادر والمراجع والحصول على المعلومة التي تفيد القارىء والباحث والمهتم فجزاها الله خيرا على ما قامت به من دراسة ثراثية وتاريخية لنصف المجتمع ولفترة تاريخية نحن الاحوج بمعرفتها لكي تسد نقصا كنا نعاني منه بالمكتبة العربية ونعم أجر العاملين.

الباحث والمؤرخ

محمد يونس العبادي

هذا الكتاب

استروحت د. أمل الكردي موضوعة البحث عن دور النساء في حياة خلفاء بني العباس، وأبانت مدى تدخلهن في الحياة السياسية والاجتماعية في تلك الحقبة من الزمن، وأثر ذلك على تصرف الخلفاء والدوائر المحيطة بهم، الى جانب حياكة المؤامرات وصناعة الرجال وانتاج الأزلام. وقد تناولت المؤلفة هذه المسألة بموضوعية وتوثيق دقيق حتى نكاد لا نعثر في طرحها للأحداث على أي تقييم ذاتي لمجريات الأمور والوقائع المسرودة ، ويعود إلى أنها لم تقصد من تناولها هذه الثيمة تقييم ما كان يدور في قصور الخلفاءمن مؤامرات ومواجد وتقلبات ، وإنما قصرت جهدها على استلال ترجمات سير النساء وأفعالهن ومقالبهن من أعماق المراجع والمصادر التاريخية المهمة ، وعمدت بصدق إلى تحري جمع المعلومات من منظور الزمن الذي ولدت فيه الأحداث وتناسلت. وبالرغم من هذا التوجه الموضوعي فإن استدراج هذه الأنماط النسائية لم يكن راجعا الى جمع المعلومات وتلخيصها من مصادرها الأصلية حسب،ذلك أن المؤلفة انعطفت إلى هذا السرد للتعبير عن علاقة انفعالية بالإشكالية المطروحة ،وأنجزت مشروعها الذي استند الى إنتاج سير أكثر من خمس وعشرين شخصية نسائية بنجاح ،مفردة صفحات عدة لكل واحدة من أولئك النساء قدر ما توصلت إليه من التوغل في كتب التاريخ والأخبار وسبرها ،وما استنجته من مجمل المادة الوثائقية التي توفرت لها ، حيث كان نصيب بعض النساء أوسع من البعض الآخر نتيجة طبيعية لما عثرت عليه من معلومات ومعطيات عن كل واحدة منهن.

هذا البحث الموضوعي الدقيق خليق بالدعم المادي والمعنوي ،ويستحق أن يظهر بين دفتي كتاب للأفادة من محتوياته القيمة ومحمولاته الغريزة بالمؤشرات ذات المغزى البعيد والمأمول.

د. حسين جمعة

أثر الجواري في العصر العباسي

ان تجارة الرقيق، اناث وذكور، تقليد بشري قديم قدم تواجد المجتمعات البشرية. منذ إن عرف الانسان الجوع والحرب عرف العبودية، إذ كان اول العبيد هم اسرى الحروب كذلك ابناء الفقراء الذين يبيعهم اهلهم الى الاغنياء لكي ينقذوهم من الجوع والفقر. ظلت العبودية سائدة في كل انحاء الارض اينما وجدت الجماعات البشرية، ما دام هنالك فقر وهنالك حروب. صحيح أن الإسلام لم يحرم الرق، بل دعا إلى إلغائه تدريجيا، وذلك لاستحالة فرض الغائه في تلك الازمان. من هنا كانت النظم والقوانين التي جاء بها الإسلام لتحسين أحوال الرقيق والرفع من مكانتهم الاجتماعية. يمكن القول ان المجتمعات الاسلامية هي اكثر المجتمعات التي توفرت فيها الفرص للعبيد، نساء ورجال، ان ينعتقوا من عبوديتهم ويصعدوا في السلم الاجتماعي الى حد ان يكونوا اعضاء في الطبقات الحاكمة وشخصيات مرموقة في مختلف المجالات.

منذ العصر العباسي الاول (132 - 232 هـ/ 750م - 846م)[*] برزت ظاهرة التمازج الحضاري والسكاني بين الجماعات العربية التي استقرت في ربوع النهرين مع السكان العراقيين الاصليين من الذين دخلوا الاسلام. فمثلا بالنسبة إلى الخلفاء العباسيين، من بين سبعة وثلاثين خليفة عبّاسي لم يكن من بينهم من هو عربي الام الا ثلاثة: (ابو العباس السفاح)، و(المهدي بن المنصور)، و(محمد الامين بن هارون الرشيد). وادى توجه العباسيين للزواج من ابناء البلد ومن الجواري والاماء إلى ترشيح ابنائهن لمنصب الخلافة وذلك يخالف ما جرى عليه العرف ايام الامويين إذ كانوا لا يستخلفون ابناء الاماء.

ان كثرة الجواري في اسواق (بغداد) في هذا العصر، يعود اولا الى الغنى المادي الفاحش الذي تراكم لدى الطبقة العباسية الحاكمة بسبب تراكم مغانم الحروب والعائدات المالية والعينية المجلوبة الى (بغداد) من جميع انحاء الامبراطورية. فضلاً عن

كثرة الحروب التي كان على الدولة العباسية خوضها في اصقاع مختلفة مما أدى إلى اتساع الدولة وانتشار تجارة الرقيق انتشارا واسعا. علما ان هؤلاء الرقيق، من اناث وذكور، لم يكن بمعظمهم من الاسرى، بل ان غالبيتهم العظمى اطفال قد باعهم اهلهم الى النخاسين من اجل انقاذهم من الفقر والجوع، وعلى امل ان يحالفهم الحظ في حياة اخرى. وفعلا ان الكثير من هؤلاء الرقيق قد استثمروا اوضاعهم الجديدة فصعدوا بالسلم الاجتماعي واصبحوا اعضاء في الطبقة الحاكمة نفسها، بل ان بعضهم اصبحوا سلاطين، ومن اشهرهم(كافور الاخشيدي) في مصر، كذلك امهات وزوجات الخلفاء اللواتي كن جواري، ومن اشهرهن (الخيزران) ام(هارون الرشيد).

ان الحديث عن الجواري يقتضي اولا الحديث عن النخاسين أو (تجار الجواري). كان هؤلاء يشكلون فئة اجتماعية متكاملة، من حيث عدد العاملين معهم من عمال وكتاب ووسطاء وشبكات دعارة ودعاية وتثقيف، ولهم فروع وعيون واتصالات مع وسطاء وتجار فرعيين مقيمين في جميع انحاء الارض. كان للنخاسين دُوراً في (بغداد) مخصصة لتلك التجارة تقع على شواطئ نهر دجلة قرب أسواق الرقيق. كما أن هنالك دوراً خاصة للرقيق مجاورة لدورهم، وهنالك حكايات كثيرة عما يجري في تلك الدور من مجون تحت إشراف النخاسين وبتوصية منهم استجلابا لطبقة الأغنياء وطبقة الشعراء ممن يستهويهم ذلك النوع من الحياة اللاهية في أوساط الجواري. وقد تطور العمل والتخصص لدى هؤلاء النخاسين بحيث انهم جلبوا المعلمين والمثقفين في مختلف الفروع لكي يقوموا بالاشراف على تربية وتثقيف جواريهم وتعليمهن مختلف معارف ذلك الزمن لكي يتمكن من مجالسة أفراد الطبقات العليا والتأثير فيهم.

لقد نجحت جهود النخاسين الكبيرة في هذا المضمار للدرجة التي أصبحت فيها الكثير من هؤلاء الجواري يجادلن ويحاورن في كثير من أبواب العلوم والفنون بالشكل الذي تفوقن فيه على كثير من الحرائر اللواتي لم تتح لهن كل هذه الفرص في التثقيف والتعليم. ان ارتفاع المستوى الثقافي لدى الجارية يعني ارتفاع سعرها، ثم ان هذا زاد في حظوظهن مع الرجال بالشكل الذي أدى إلى ازدياد تأثيرهن في المجتمع العباسي

بأكمله. ان الجواري اثرن بشكل لا يمكن وصفه في الطبقات العليا من المجتمع العراقي وبالذات في الطبقة العباسية الحاكمة، ولم يقتصر الامر على نشر الخلاعة والمجون واجواء (الف ليلة وليلة)، بل كان لهن تأثير ايجابي واضح يتمثل بمساهمتهن في نشر الثقافة والفنون الجميلة والكثير من التقاليد والعادات المجلوبة من مجتمعاتهم الاصلية، سواء بالموسيقى والغناء والازياء والطبخ والادب وكل المجالات المعرفية. فضلاً عن ما تنتجه هؤلاء الجواري أنفسهن من شعر نتيجة لتثقيفهن ثقافة عالية من قبل نخاسيهن. بل إن أثر هؤلاء تعدى كذلك إلى الناحية السياسية فقد اتسع نفوذهن وقوي سلطانهن وخاصة اللواتي حظين بأن يكون لهن أزواج أو أبناء من الخلفاء، ويبدو ان الجواري المجلوبات من الحجاز كان لهن تأثير واضح في فن الغناء في (بغداد). وهنالك مجموعة من الخلفاء وأبناء الخلفاء ممن كانت لهم صنعة في الغناء. ومن اشهر الجواري اللواتي برزن على هذا الصعيد: (بذل) و(تيم) و(دنانير) و(عريب) و(فريدة) و(عاتكة بنت شهدة) و(قلم الصالحية).

كما كان لهؤلاء الجواري تأثير أدبي على الادباء انفسهم يتمثل فيما تثيره الجواري من عواطف في صدور الشعراء فتخرج على ألسنتهم شعرا جميلا. ولهذا السبب انتشر شعر الغزل بصورة تفوق أي عصر، وانقسم الى غزل عفيف وغزل ماجن. ومن أشهر القصص المعروفة على هذا الصعيد قصة(بشار بن برد وعبدة) و(قصة العباس بن الأحنف وفوز) وقصة (أبي العتاهية وعتبة) وقصة (أبي نواس وجنان)، فضلاً عن قصص اقل شهرة، مثل قصة (إبراهيم الموصلي وذات الخال) وقصة (محمد بن أمية وخداع).

هناك مجموعة من الجواري نظمن الشعر وتفوقن في النظم فيه، يحضر مجالسهن الأدباء ويتبارين مع فحول الشعراء. لكن للاسف تاريخ الادب لم يحفظ لنا الكثير من نتاجاتهن، ربما بسبب تدخل بعض المتزمتين من ذوي العقلية الفحولية في الغاء ومسح تراثهن!! هنالك جاريتان شغلتا المجتمع العباسي وسيطرتا على تفكير كثير من الخلفاء والشعراء بما تملكانه من موهبة فنية في نظم الشعر ورواية للأخبار والأشعار وهما (عنان) جارية (الناطفي) و(عريب) جارية (المأمون).

بروز الدور السياسي للمرأة

وفي تلك الحقبة ازدادت مشاركة المرأة السياسية بسبب التطورات الاجتماعية المتسارعة آنذاك. فقد اعتمد الخليفة المنصور على النساء في جمع الاخبار عن اعدائه وساعده الاعتماد على النساء في معرفة احوال الناس حتى عرف الولي من العدو والُمداجي من الُمسالم. ومن النساء العباسيات اللاتي كان لهن دور في العصر العباسي (زينب بنت سلمان) إذ عمرت طويلاً. كما مارست المرأة القضاء فقد تولت أم الخليفة (المقتدر العباسي) رئاسة محكمة استئناف بغداد.

ولما تسلم (المهدي) الخلافة ظهرت المشاركة النسائية بصورة واضحة وكان لنساء الخلفاء وامهاتهم أثر لا يمكن اغفاله في ا لشؤون السياسية إذ عارض (عبد الله بن المقفع) هذا الدور المتعاظم للمرأة وكتب يقول: ((امور كثيرة لا يجترئ عليها إلا أهوج، ولا يسلم منها إلا قليل: صحبة السلطان، وائتمان النساء على الأسرار، وشرب السم للتجربة، وركوب البحر)). وقد تدخلت النساء في حياة (المهدي) وشؤون الدولة فقد كان كثير الجلوس مع النساء، وكانت زوجه (الخيزران) (ام هارون الرشيد) تجلس في عتبة الرواق المقابل للايوان، وتجلس (زينب بنت سليمان) بإزائها، وفي الصدر مجلس الخليفة (المهدي)، يقصدهن في كل وقت فيجلس ساعة ثم ينهض. وكان من تأثير (الخيزران) ان رشح (المهدي) إبنيها وهما (الهادي والرشيد) للخلافة، مع ان ابنه الاكبر (عبد الله) من ابنه عمه وهي عربية هاشمية (رابعة بنت ابي العباس).

وفي عصر (الرشيد) مارست زوجه (زبيدة) السياسة وكانت الملكة الثانية في بلاط العباسيين بعد (الخيزران). ففي عصر (الرشيد) زاد اقبال الناس على الجواري وتعليمهنّ ودفع الاثمان الباهظة في شرائهنّ وقد اثر ذلك على مختلف جوانب الحياة مما ادى إلى زيادة تحرّر المرأة واندفاعها للمشاركة في شؤون الحياة المختلفة. ويلاحظ ان دخول النساء العراقيات في الاحزاب قد تراجع في العصر لعباسي عما كان عليه الوضع ايام الامويين كما تراجعت مشاركة المرأة في القتال، ربما بسبب استقرار

الاوضاع عموما وكذلك اعتماد الدولة على قوات مجلوب من الخارج بمعظمهم من تركستان. ان تدخل (زبيدة) في عصر (الرشيد) جعله من ازهى عصور الخلافة العباسية، فزبيدة تتابع والرشيد دائم البحث عن اسرار رعيته يساعده في ذلك عيونه واصحاب اخباره في جميع الولايات. اما (المأمون) (198-218) فقد اعتمد على العنصر النسائي ليس في أخذ المشورة ولكن في تسيير اعماله، ففي نزاعه مع (الامين) كان يرسل بريده مع النساء، يضعن البريد داخل اعواد منقورة من المكاف (نوع من الشجر). ولم يقتصر اعتماده على النساء في نقل البريد فحسب، بل كان يرسل النساء والرجال متنكرين في زي التجار او الاطباء وكان يفضل استخدام العجائز في هذه المهمات اذ يذكر (النويري) ان العجائز كن يأتينه كل مساء بتقارير مفصلة تتعلق بأخبار الناس وأخبار اللصوص والفساق. وذكرت بعض المصادر ان عدد هؤلاء العجائز يقارب الالف عجوز. ان تعاون الخلفاء مع بعض النساء وفسح المجال امامهن للمشاركة في شؤون الدولة اثبت ان المرأة مثل الرجل قادرة على تصريف شؤون الدولة والاعتماد عليها.

وقد تعاظم أثر المرأة كثيرا في العصر العباسي الثاني (242-334، 846-907م) ويبدو ان الفساد الهائل في بلاط الخلفاء في هذا العصر انعكس بصورة سلبية على أثر المرأة خلافاً لدورها الايجابي في العصر العباسي الاول. لقد زاد الاعتماد على النساء في العصر العباسي الثاني في ادارة السجون التي كانت في قصور الخلفاء لحبس المتنفذين في الدولة، فقد كان معظم الوزراء الخارجين على الخلافة من المتنفذين يسلمون لزيدان قهرمانة المقتدر. واصبح لامهات الخلفاء وازواجهم دور اكثر وضوحا مما كان في السابق، اذ وصل تأثير النساء على الخلفاء صورة لم يألفها المجتمع من قبل وذلك نتيجة الامتيازات التي حصلن عليها وضعف الخلفاء وصغر سنهم وقد تمكن هؤلاء النسوة مع وصيفاتهن ومواليهن وبعض القادة والكتاب من تشكيل طبقة خاصة شكلت عبئاً مالياً كبيراً على خزينة الدولة. ومن علامات الانحطاط انه كان يتوجب على الولاة في الدولة ان يهادوا الخليفة والسيدة والخالة والقهرمانة والحاجب والخادم وكتابهم وكل من يلوذ بهم، وكان هذا التقليد لا يجوز الاخلال به والا تعرض صاحبه للعزل والسجن.

اما في العصر الثالث والاخير(334-656هـ، 946-1258م)، إذ خضعت السلطة العباسية تماما للقوى العسكرية الناهظة من شرق الخلافة، في ايران وتركستان، وبدأ أثر العراقيين يتراجع بالتدريج في التأثير على الدولة. ثم ان ازدياد التوتر والثورات وتعاظم التهديدات الخارجية والحروب الصليبية، كل هذا جعل الروح الحربية الفحولية تطغي على الروح الانوثية المسالمة. وفي الحقبة البويهية كان أثر النساء محدوداً جداً ويعود السبب إلى ان خلفاء تلك الحقبة لم يكن لديهم سلطة في الدولة، ولهذا لا تأثير بالضرورة لنسائهم. ولكن ثمة استثناءات، فقد برزت في تلك الحقبة (عابدة بنت محمد الجهنية) وكانت اديبة شاعرة فصيحة وكانت تحضر مجلس عضد الدولة. وبرزت (قهرمانة معز الدولة)، فقد كانت تعقد المحالفات مع رجال الدولة وتعين الوزراء وكذلك قهرمانة الخليفة القائم بأمر الله، (وصال)، فقد كانت تشترك في اختيار الوزراء، شأنها شأن قهرمانات العصر العباسي الثاني. وفي الحقبة السلجوقية وتنامي الحياة الحربية والفحولية بسبب المخاطر التي تهدد الدولة والتي امتدت اكثر من مائتي عام من عام 447 وحتى سقوط بغداد سنة 656هـ. وقد ظهرت استثناءات إذ لم يكن للنساء دور مؤثر في سياسة الدولة بشكل عام. فقد ذكر ابن الاثير انه في زمن (المقتدي) اول خلفاء هذه الحقبة كانت جاريته (شمس النهار) قوية ولما سقط (المقتدي) مغشياً عليه، حلت ازرار ثوبه فوجدته وقد ظهرت عليه امارات الموت، ولما حاولت جارية اخرى الصراخ قالت لها شمس النهار: ((ليس هذا وقت اظهار الجزع والبكاء، فإن صِحْتِ قتلتك)).. واحضرت الوزير فأعلمته الحال وشرعوا في البيعة لولي العهد (المستظهر بالله). ومن النساء في عهد السلاجقة التي كان لها تأثير في المشاركة السياسية (زوجة طغرل بك) إذ كانت سديدة الرأي فوّضها زوجها امره في كثير من الامور فكانت على احسن تدبير.

الوضع الاجتماعي للجواري!!

وبتوسع الدولة الإسلامية وكثرة انتصاراتها رافق ذلك كثرة الجواري فيها، وكان هناك أسواق لبيع الجواري، اللاتي كن يختلفن في المنشأ والتربية والتعليم، فكانت هناك ثقافة مختلفة وثرية في الفكر والعلم، وفي معرفة أمور الحياة في بيئات غير

عربية، عند هؤلاء الجواري، وكان بعض النخاسين يختار من جواريه (بضائعه) بعض النابهات منهن أو الجميلات، أو صاحبات المواهب بالصوت أو الحركة، ويحرص على تعليمهن وتربيتهن تربية خاصة سواء للغناء أو لتربية الأطفال أو لنظم الشعر أو لتعليم العلوم، وهذا ما ميزهن عن غيرهن من الحرائر اللاتي لم تتح لهن فرصة تعلم أي علم من العلوم النافعة.

ومن هذه الدور خرجت الجواري ذات الشهرة في الغناء والطرب ونظم الشعر، وكان لبعضهن علاقة حميمة وصبابة مع بعض الشعراء، فالكاتبة تذكر من أمثال ذلك قصة أبي نواس والجارية جنان، والشاعر أبي العتاهية وعتبة، وقصة المغني إبراهيم الموصلي وذات الخال.

وتشير الكاتبة إلى ملاحظة قيمة عن تطور الشعر بوجود هذا النوع من الجواري اللاتي كن يشاركن الشعراء في النظم وتبادل الغزل، فظهر الغزل الفاحش الذي لم يعد يخاطب الحرائر من النساء بل يخاطب الجواري المتهتكات واللاتي لا يبالين بالأوصاف الرخيصة لهن، فقد كانت الخلاعة والمجون جزءاً من حياة هذه الفئة. وتغيرت لغة الشعر وأصبحت أكثر شعبية وأكثر غنائية، ودخلت ألفاظ جديدة على الشعر كما دخلت أوزان جديدة تتوافق مع اللسان الذي يصعب عليه بعض الكلمات العربية.

واغتنم الشعراء هذا المد الحضاري الترفيهي وساعدوا على نموه بوجود هذه الفئة من الجواري اللاتي كن يساهمن في الغناء وفي طرح الكثير من الشعر الخفيف الذي بدأ ينتشر مناسبا للغناء والطرب.

ليس كل الجواري سيئات!

والكاتبة وهي تبحث في أمور الجواري تقدم لنا فئة أخرى عكس هؤلاء الجواري ذات الاهتمامات الشعبية أو الفنية، فهناك جوار دخلن قصور الخلفاء ليصبحن زوجات وأمهات لبعض الخلفاء في عصور مضت. وكان لهن الأثر الكبير في إضافة لمسات الجمال للحياة في قصر الخليفة بما تربين عليه، من دخول أفكار من

ثقافات غريبة عن الحضارة العربية، واستطعن الخلط بين الثقافات المختلفة بما لهن من نفوذ في قصر الحاكم.

وهناك من الجواري من كانت تحكم البلاد باسم زوجها، أو ابنها. والتاريخ العربي والإسلامي يمتلئ بهن، فمن المعروف أن الملك والخلافة لجنس الرجل، في الثقافة العربية، ولكن الحكم يمكن للمرأة المشاركة فيه، وهذا ما كانت تفعله بعض الجواري اللاتي وصلن الى أعلى قمة السلطة تحت الرجل مقارنة بين عصرين! ترد مقارنة طريفة للمرأة في العصر الحديث والعصر العربي السابق، فالمرأة في العصر الحديث، وهي تملك الحرية التامة، استخدمت كمادة جمال وتشويق وإضافة، فهي توجد في الدعايات والإعلانات والإعلام وسيلة بذاتها، وبمعنى آخر إنها في هذا الزمن لا تزال جارية أو خادمة أو مملوكة تؤدي غرضا معينا، محدد الأهداف لها، ولم ترسمه هي لنفسها.

ويختلف الوضع عند الجارية العربية في العصر العباسي فهي جارية في الاسم والعرف، ولكنها في مواقع كثيرة لم تكن سوى السيد الذي يأمر وينهى، أي ان اسم الجارية، هو اسم ابتدائي وليس نهائياً. بل إن من هؤلاء الجواري من كن أمهات لخلفاء، ومنهن زوجات لقادة في الجيش تولين القياد في زمن الشدة.

يقول ان هارون الرشيد حلف على أخته عليّة الا تكلم غلاماً لها اسمه "طل" ولا تسميه واستمع إليها يوماً وهي تدرس آخر سورة البقرة حتى إذا بلغت قوله عز وجل: "فإن لم يصبها وابل فطل" وأرادت ان تقول "طل" ولكنها استدركت وقالت: فالذي نهانا عنه أمير المؤمنين. فدخل فقبل رأسها وقال: قد وهبت لك طلاً ولا أمنعك بعد هذا من شيء تريدينه !

فهل يمكن ان تتقبل فكرة ان الرشيد يهب أخته هذا الغلام بعد ان عرف ما بينهما؟ ان "طل" جارية تبين للرشيد تعلق أخته بها، وهذا التعلق لا يعني بالضرورة الممارسة المثلية فالتعلق الشديد أمر تمر به معظم الفتيات وعندما تنظر إلى شعر عليّة بنت المهدي أو خديجة بنت المأمون يتبين ان الأسماء النسوية التي تتغزلان بها ليست كنايات عن أسماء ذكور كما يعتقد الرواة وإنما هي أسماء نسوية حقيقية، ولاسيما ان

القصور التي عاشت فيها عليّة وخديجة تعج بالجواري من مختلف بقاع الدنيا وتعاني هؤلاء الجواري - غالباً - من الفراغ العاطفي والجنسي

للجواري شأن كبير في تاريخ التمدن الإسلامي لا يقل عن شأن العبيد والموالي. وأصل الجواري ما يسبيه الفاتحون في الحرب من النساء والبنات فهنَّ ملك الفاتحين ولو كنَّ من بنات الملوك أو الدهاقين يستخدمونهن أو يستولدونهن أو يتصرفون في بيعهن تصرف المالك بملكه ولما أفضت أحوال المسلمين إلى الترف والقصف وتدفّقت الأموال من خزائن الخلفاء والأمراء جعلوا يتهادونهنّ كما يتهادون الحلي والجواهر، فمن أحب التقرب من كبير أهدى إليه جارية أتقنت صناعة يعلم أنه راغب فيها. ذكروا أن جارية اسمها دنانير صفراء صادقة الملاحة كانت أروى الناس للغناء القديم وقد خرّجها رجل من أهل المدينة فاشتراها جعفر البرمكي وسمع الرشيد صوتها فألفها وصار يسير إلى جعفر لسماع غنائها ووهب لها هبات سنية. وعلمت امرأته زبيدة بخبرها فشكته إلى عمومته فلم ينجحوا في إرجاعه فرأت أن تشغله عنها بالجواري فأهدت إليه عشر جوارٍ منهن مارية أم المعتصم ومراجل أم المأمون وفاردة أم صالح.

وكثيراً ما كان العمال والأمراء يتقرّبون إلى الخلفاء بأمثال هذه الهدايا فأهدى ابن طاهر إلى الخليفة المتوكل هدية فيها 200 وصيفة ووصيف. وليس الاستكثار منهن حادثاً في الإسلام وإنما هو من بقايا التمدن القديم فقد كان ملوك الفرس والروم يتهادونهن وبلغت عدتهن عند بعض الأكاسرة 6000 جارية وكان لجماعة من بني العباس ألف جارية. وكان تعليم الجواري وتربيتهن من أبواب الكسب الواسعة في ذلك العصر فيذهب أحدهم إلى دار الرقيق يبتاع جارية يتوسّم فيها الذكاء فيثقفها ويرويها الأشعار أو يلقّنها الغناء أو يحفّظها القرآن أو يعلّمها الأدب أو النحو أو العروض أو فناً من فنون المنازل ثم يبيعها، وقد ينبغن في حفظ القرآن حتى كان منهن عند أم جعفر مائة جارية لكل واحدة ورد عُشر القرآن وكان يسمع في قصرها كدوي النحل من القراءة.

فتعددت الجواري في دور الكبراء وتسابق أهل الترف إلى التفنّن في تزيينهن. وأشهر من فعل ذلك أم جعفر المذكورة فإنها لما رأت ابنها يغالي في تخنيث الغلمان وإلباسهم ملابس النساء اتخذت طائفة من الجواري سمّتهن المقدودات عممت رؤوسهن وجعلت لهن الطرر والأصداغ والأقفية وألبستهن الأقبية والقراطق والمناطق كأنهن من الغلمان واقتدى بها وجيهات قومها فاتخذن الجواري الغلاميات أو المطمومات وألبسوهن الأقبية والمناطق المذهبة. وطبيعي في ربّات الحسن أن يكنّ نافذات الكلمة لأن الجمال قوة والحب سلاح وكثيراً ما كان الخلفاء والأمراء يشتغلون بالجواري عن رعاية الملك ولاسيما المغنيات ولذلك كان رجال الحيلة يستخدمونهن للجاسوسية أو نيل رتبة أو منصب وكان المأمون يدسّ الوصائف هدية ليطلعنه على أخبار مَن شاء.

وكان لأم جعفر البرمكي موقعها السياسي،وزوج الرشيد زبيدة موقعها الاجتماعي،وكانت لهن مجالس للهو والطرب،والشعر والأدب،مما يدل على أن المرأة كان لها شيء من المشاركة في الحياة السياسية والاجتماعية.

وقد امتهن صنعة الغناء أبناء بعض الخلفاء مثل أبناء الخليفة العباسي المهدي وهم : عليّة وإبراهيم وكانا ملحنين وشاعرين ومغنيين في غاية الإتقان والإبداع وكانت تقدم عليه. والأخ الثالث هو يعقوب وكان أحذق الناس بالزّمر . ويروى عن عليّة أنها كانت في الرقة عند خالها يزيد بن منصور، وكانت الرقة العاصمة الصيفية للرشيد، فاشتاق إلى صوتها أخوها الخليفة هارون الرشيد فكتب إلى عمه ليرسلها إليه فأرسلها، وفي الطريق على نهر الفرات كتبت بيتين من الشعر وعملت فيهما لحناً وغنتهما : اشرب وغنِّ على صوت النواعير ما كنت أعرفها لولا ابن منصور لولا الرجــاء لما أمّلت رؤيته ما جزت بغداد في خوف وتغرير وفي هذا دلالة على أن النواعير لم تعرفها العراق ، وكان معروفة في بلاد الشام ومنصوبة على الفرات والعاصي . كانت عليّة أخت الرشيد حسنة الدين ، لا تغني ولا تشرب النبيذ إلا إذا كانت معتزلة الصلاة، فإذا طهرت أقبلت على الصلاة والقرآن وقراءة الكتب وقول الشعر، إلا إذا دعاها الرشيد إلى الغناء فإنها كانت تلبي، فقد كانت تحبه حباً جماً،

وكانت تقول: " لا غفر الله لي فاحشة ارتكبتها قط، ولا أقول في شعري إلا عبثاً.
وكانت عليّة تراسل بالأشعار من تختصه، وكانت تختص غلاماً من خدم الرشيد اسمه "طل" فحلف عليها الرشيد ألا تكلم طلاً ولا تسميه باسمه . وذات يوم كانت تقرأ في سورة البقرة حتى بلغت قوله تعالى: "فإن لم يصبها وابل فطل" فاستبدلت كلمة طل وقالت" فالذي نهانا عنه أمير المؤمنين" وكان الرشيد يستمع إليها من وراء ستار فدخل عليها وقبّل رأسها وقال: قد وهبت لك طلاً ، ولا أمنعك بعد هذا من شيء تريدينه.
وعندما توفي الرشيد امتنعت عن النبيذ والغناء حزنا عليه، فلم يزل بها ابن أخيها الخليفة الأمين حتى عادت إلى الغناء كرها." في العصر العباسي حفظ لنا التاريخ اسم المطربة الشهيرة علوة الحلبية، والفضل يعود في ذلك إلى شعر البحتري. كان صوت علوة الحلبية المطربة الذائعة الصيت صاحبة البحتري يوقظ الليل الهاجع في متنزهات بانقوسا وكانت تضم مربعاً غنائيا يقصده العامة والأدباء وعلية القوم. وهو واحد من مرابع غنائية يعمل فيها مطربون ومطربات منتشرة في متنزهات بطياس وبابللى وغيرها من متنزهات حلب. ومن الأصوات النسائية التي أغرم بها الشعراء وخلدوها في شعرهم " وحيد" التي ذكرها ابن الرومي في شعره، وكانت تجمع إلى جمال الصوت جمال القوام وحسن الوجه، وفي قصيدته فيها، ولا يمكننا عرضها كلها، نجد أن الشاعر لم يكن ذواقة للغناء والجمال فحسب وإنما كان ناقداً موسيقياً فنياً في وصفه لوحيد، يعدد الشروط الواجب تكاملها في الغناء والمغني من حيث الأداء ومساحات الصوت، والقرار والجواب، والتعبير والتلوين والتصرف والتحلية، والسلطنة والأسر، والمطابقة بين الإيقاع الشعري والإيقاع الموسيقي: يا خليليَّ تيمتني وحيد ففؤادي بها معنّى عميد غادة زانها من الغصن قدٌّ ومن الظبي مقلتان وجيد لاتراها هناك تجحظ عين لك منها ولا يدر وريد تتغنى كأنها لا تغني من سكون الأوصال وهي تجيد من هدوٍ وليس فيه انقطاع وسجوٍ ومابه تبليد يسهل القول إنها أسهل الأشياء طرّاً ويصعب التحديد والبيت الأخير يذكرني بتعليق الياس الرحباني على صوت شهد برمدا حين التفت إلى الجمهور وقال: ما عندي شي أقوله إلاّ: قولوا ياسلام. وحتى أوائل القرن العشرين كانت أغلب الخوجات بحلب من غير المسلمات. ومن الأخبار والطرائف اللطيفة أنه كان هنالك مطربة شهيرة اسمها الحاجة عائشة المسلمينية من

مطربات القرنين 19-20، كانت مسيحية وتزوجت في العشرين من عمرها شاباً مسيحياً ثم أسلمت وانفصلت عنه، ولم تتزوج بعده، ثم حجت وتعلمت القرآن، واشتغلت بالموسيقا والغناء للنساء فقط ، وقد قربتها نسوة الأسر الغنية إليهن حتى أثرت وعظمت نعمتها، لكنها كانت كثيرة الصدقات أنفقت كل ما جمعته على الفقراء وأعمال البر، وأوصت بما تبقى منه لينفق في هذا السبيل، وبقيت بارة بزوجها المسيحي تنفق عليه وتكلمه من وراء حجاب، وقد توفيت في أوائل القرن العشرين. وهذه الحادثة تذكرني بأخبار بعض فناناتنا اليوم كشادية وغيرها اللواتي يعلن اعتزالهن للفن ويتحجَّبن ويذهبن إلى الحج، ويمددن لنا ألسنتهنَّ ساخرات قائلات: ها قد كسبنا الدنيا والآخرة ومن الأصوات النسائية في منتصف العشرين المطربة فيروز الحلبية وكانت كغيرها موضع احترام كبير من أهل الفن. وذات مرة كانت المطربة الكبيرة ماري جبران تغني في مسرح الشهبندر الصيفي. وإذ أقبلت امرأة عجوز سافرة ولما شاهدها الموسيقار أحمد الإبري قام بسرعة وأمسك بيدها وأجلسها بجانبه . كانت هذه العجوز فيروز الحلبية وهي التي أنشدت للملك فيصل حين زار حلب من ألحان الإبري " يا مليكاً عزّ نصراً" كما أنشدت له النشيد الوطني: شاهدت الشمس وقد بزغت فعجبت لمنظرها الحسن وسألت البدر لمن يعشق فشـــكى وبكى حب الوطن ومنهن أيضاً المطربة صاحبة الصوت الأوبرالي شادارافيان مع الموسيقار أنطوان زابيطا. والمطربة الزغرتاوية كهرمان التي عشقت حلب وأنشدت في حفل تكريم الجندي العائد من فلسطين والذي أنشد فيه عمر أبو ريشة قصيدته أمتي هل لك بين الأمم منبر للسيف أو للقلم أما المطربة الكبيرة خيرية السقا فقد كانت النجمة الغنائية الأولى في حلب ولها مع أم كلثوم حين زارت حلب ذكرى نزاع على من يحتل المسرح. اليوم ومع مهنة تصنيع الأصوات النسائية، والصياغات المشهدية المرئية المثيرة التي تصرفك عن الصوت وشروط الغناء الأصيل إلى صخب الجسد وغنائه، ومع الانتشار الواسع للأغنية الطقطوقة التي حلت محل الأغاني والقصائد الكبيرة الرائزة لقدرة الملحن والمغني، غابت أو تكاد تلك الأصوات النسائية الكبيرة. إنه عصر الوجبات السريعة وما بعد الحداثة.

ويظهر في العصر العباسي ما يسمى بـ(الزواج النهاري) الذي يبدو أنه لم يكن زواجاً معلناً، وربما كان مؤقتاً، ويقوم الزوج فيه بزيارة زوجه نهاراً فقط في بيتها، ويبدو أن هذا الزواج قد شاع في البصرة منذ القرن الثاني للهجرة وقد تلجأ المرأة إلى هذا النوع من الزواج في ظروف مادية صعبة، وذلك لكسب معاشها، وقوت يومها، فهو وسيلة من وسائل العيش.

وهكذا فإن منزلة المرأة في هذا العصر تتفاوت بتفاوت الطبقات والأحوال. ولقد ساعد تفاوت طبقات المرأة هذا إلى وجود الشعر الهجائي، حيث يقذف الشاعر نساء الآخرين، وشتم صريح لأعراضهم علانية.

ففي تلك الحقبة برزت ظاهرة التمازج الحضاري بين العرب وغيرهم من الذين دخلوا الاسلام وانتشر الزواج من غير العربيات بالنسبة للخلفاء العباسيين. فمن بين سبعة وثلاثين خليفة عبّاسي لم يكن من بينهم من هو عربي الام الا ثلاثة: ابو العباس السفاح، والمهدي بن المنصور، ومحمد الامين بن هارون الرشيد. وادى توجه العباسيين للزواج من الجواري والاماء إلى ترشيح ابنائهم لمنصب الخلافة وذلك يخالف ما جرى عليه العرف ايام الامويين حيث كانوا لا يستخلفون ابناء الاماء. وفي تلك الحقبة ازدادت مشاركة المرأة السياسية بسبب التطورات الاجتماعية المتسارعة آنذاك. فقد اعتمد الخليفة المنصور على النساء في جمع الاخبار عن اعدائه وساعده الاعتماد على النساء في معرفة احوال الناس حتى عرف الولي من العدو والمُداجي من المُسالم، فساس الرعية ولبسها وهو من معرفتها على مثل وضح النهار. ومن النساء العباسيات اللاتي كان لهن دور في العصر العباسي زينب بنت سلمان حيث عمرت طويلاً وهي التي دخلت على المأمون تعاتبه على لبس الخضرة وتقريب العلويين وقالت له: "يا أمير المؤمنين، انك على برّ اهلك من ولد علي بن ابي طالب اقدر، من غير ان تزيل سُنَّةُ من مضى من ابائك. فدع لباس الخضرة ولا تطمِعنَّ احداً فيما كان منك" ولما تسلم المهدي الخلافة ظهرت المشاركة النسائية بصورة واضحة وكان لنساء الخلفاء وامهاتهم دور لا يمكن اغفاله في ا لشؤون السياسية حيث عارض عبد الله بن المقفع هذا الدور المتعاظم للمرأة وكتب يقول: "أمور كثيرة لا يجترئ عليها

إلا أهوج، ولا يسلم منها إلا قليل: صحبة السلطان، وائتمان النساء على الأسرار، وشرب السم للتجربة، وركوب البحر". وقد تدخلت النساء في حياة المهدي وشؤون الدولة فقد كان كثير الجلوس مع النساء، وكانت الخيزران تجلس في عتبة الرواق المقابل للايوان، وتجلس زينب بنت سليمان بإزائها وفي الصدر مجلس الخليفة المهدي، يقصدهن في كل وقت فيجلس ساعة ثم ينهض. وكان من تأثير الخيزران ان رشح المهدي إبنيها وهما الهادي والرشيد للخلافة، مع ان ابنه الاكبر عبد الله من ام عربية هاشمية هي رابعة بنت ابي العباس.

وفي عصر الرشيد مارست زوجته زبيدة السياسية وكانت الملكة الثانية في بلاط العباسيين بعد الخيزران. ففي عصر الرشيد زاد اقبال الناس على الجواري وتعليمهنّ ودفع الاثمان الباهظة في شرائهنّ وقد اثر ذلك على مختلف جوانب الحياة مما ادى إلى زيادة تحرّر المرأة واندفاعها للمشاركة في شؤون الحياة المختلفة.

ويلاحظ الباحث ان دخول النساء في الاحزاب قد تراجع في العصر لعباسي عما كان عليه الوضع ايام الامويين كما تراجعت مشاركة المرأة في القتال، ربما اعتماد الدولة على العناصر غير العربية كمقاتلين. ويؤكد الباحث ان تدخل زبيدة في عصر الرشيد جعله من ازهى عصور الخلافة العباسية، فزبيدة تتابع والرشيد دائم البحث عن اسرار رعيته يساعده في ذلك عيونه واصحاب اخباره في جميع الولايات. اما المأمون (198-218) فقد اعتمد على العنصر النسائي ليس في أخذ المشورة ولكن في تسيير اعماله، ففي نزاعه مع الامين كان يرسل بريده مع النساء، يضعن البريد داخل اعواد منقورة من المكاف (نوع من الشجر) ولم يقتصر اعتماده على النساء في نقل البريد فحسب، بل كان يرسل النساء والرجال متنكرين في زي التجار او الاطباء وكان يفضل استخدام العجائز في هذه المهمات اذ يذكر النويري ان العجائز كن يأتينه كل مساء بتقارير مفصلة تتعلق بأخبار الناس وأخبار اللصوص والفساق. وذكرت بعض المصادر ان عدد هؤلاء العجائز يقارب الالف عجوز ويستنتج الباحث في نهاية هذا الفصل ان تعاون الخلفاء مع بعض النساء وافساح المجال امامهن للمشاركة في

شؤون الدولة اثبت ان المرأة مثل الرجل قادرة على تصريف شؤون الدولة والاعتماد عليها.

وينطبق ذلك على العصر العباسي في عهد الخليفة المهدي حيث سيطرت عليه جاريته الخيزران وهي أم الهادي والرشيد ، وأم كل الخلفاء العباسيين اللاحقين ،إذ يرجع نسبهم إلى الرشيد .وقد سيطرت الخيزران على عقل المهدي حتى اعتقها وتزوجها ، وسيطرت على مقاليد الأمور في عهده ، ثم حاول ابنها الهادي تقييد سلطتها فقتلته شابا ثم ظلت تسيطر على ابنها هارون الرشيد والدولة العباسية إلى أن ماتت في خلافة ابنها الرشيد .

وعلى دربها سارت جواري أخريات ، كل منهن سيطرت على الخليفة - باستثناء قلة قليلة من الخلفاء - وأشهرهن قبيحة محظية الخليفة المتوكل التي تسببت في موته حين جعلته يقدم ابنها المعتز على أخيه المنتصر فدفعت المنتصر إلى قتل أبيه المتوكل . ثم قتل المنتصر وتولي المعتز بن قبيحة ، فسيطرت عليه إلى أن أوردته مورد التهلكة .ومنهن (شغب) أم الخليفة المقتدر التي سيطرت عليه وعلى الدولة العباسية الى درجة انها جعلت وصيفتها تتولي منصب قاضى القضاة .

وهناك عشرات الجواري والمحظيات الأخريات اللاتي مارسن نفوذهن القوى من وراء ستار، ثم فقدن نفوذهن بعد ممارسة سياسية طالت أم قصرت، ولكن كن في موقع التأثير لفترات طويلة أو قصيرة . كل ما هنالك أن نفوذهن كان مستورا ، لم يتضح أثره علنا في الشارع ، بحيث أن الوفود لم تكن تأتي إليهن تطلب الوسطات والشفاعات كما كان يحدث في عصر الخيزران أو أم المقتدر ، فتلك النوعية من الجواري المحظيات كن يمارسن النفوذ من خلال الغرف المغلقة وقاعات الحريم .. ولم يكن مسموحا لأسماع التاريخ أن تتسلل وتتنصت في تلك المناطق المحرمة.وإن كان في أمكان الباحث التاريخي أن يتلمس أثرهن في ضعف شخصية الخليفة العباسي - مثلا- منذ القرن الثالث الهجري ، ويمكن أن نأخذ مثالا محزنا لهذا الضعف في نهاية

آخر الخلفاء حين جيء به إلى هولاكو ، ورغم أن الخليفة المستعصم كان مشهورا بالبخل وحب المال إلا أنه أرشد هولاكو إلى نهر مطمور في القصر من الذهب المتجمد ، ومع ذلك فانه بكي حين أخذ هولاكو يستعرض جواري الخليفة الحسان وعددهن (700) زوجة وسرية وألف خادمة ، وأخذ الخليفة يتضرع إلى هولاكو قائلا " منّ على بأهل حرمي اللائي لم تطلع عليهن الشمس والقمر " .

إن الرجل حين أهان المرأة وجعلها جارية للمتعة فقط وتناسى أن لها عقلا وكيانا إنسانيا فأنه في نفس الوقت أتاح لها الفرصة لكي تتحكم فيه. والتاريخ العباسي خير شاهد على هذا وإن لم يكن التاريخ الوحيد في هذا الشأن. وجدير بالذكر أن الخليفة السفاح تمسك بزوجة واحدة ولم يكن له غيرها من النساء الحرائر أو الجواري، والخليفة المنصور ظل بزوجة واحدة إلى أن ماتت ولم يسمح بأي نفوذ في عهده لأي إنسان ذكر أو أنثى ..وقد قام توطيد الدولة العباسية على يد السفاح والمنصور، وبعدها أصبح الفراغ كبيرا أمام الخلفاء اللاحقين ، وقامت الجواري الحسان بقضاء وقت الفراغ للخلفاء ، وبقدر ذلك الفراغ كان نفوذهن الذي تقاصرت الروايات التاريخية عن توضيحه .

الكاتب والباحث محمد يونس العبادي

أم سلمة المخزومي

هي أم سلمة بنت يعقوب بن سلمة بن عبد الله بن الوليد بن المغيرة المخزومي من ذرية عبد الله المخزومي تزوجها أول مرة عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك بن مروان . مات عنها وبقيت أيّما ،حتى تزوجها أبو شاكر مسلمة بن هشام بن عبد الملك ، وكان مسلمة يشرب الخمر ولا يفيق من سكره ، ولا يهتم بأمور الدولة الأموية مع أن والده هشام بن عبد الملك كان يرشحه للخلافة بعده .

ثم توفي والده سنة 125 هجري وتولى الخلافة بعده الوليد الصغير أبن يزيد بن عبد الملك ،فأرسل أبنه العباس لاحصاء ما في خزائن هشام بن عبد الملك وأبنائه وأخذ ما يمكن أخذه من أموالهم ،فأحصاها واستقصاها ، سوى أموال مسلمة بن هشام زوج أم سلمة المخزومية فأنّ الوليد كان يرعى له أيادي بيضاء؛ولكن أم سلمة بن هشام لضجرها من زوجها في أستهتاره بالخمر كتبت الى العباس بن الوليد كتابا تقول فيه : ((أن مسلمة ما يفق من الشراب ولا يهتم بشيء مما فيه اخوته ولا بموت أبيه)) وكأنها شكته اليه وحرضته عليه ولما أتى مسلمة بن هشام الى العباس بن الوليد زائرا أنّبه العباس ووبخه على الشراب وعاتبه وقال له : (كان أبوك يرشحك للخلافة ونحن نرجوك ، فما هذا الذي بلغني عنك ؟) فأنكر مسلمة ذلك ،وقال له : من أخبرك بذلك ؟:قال :كتبت الي به زوجتك أم سلمة فطلقها في ذلك المجلس .جرى كل ذلك في دمشق وما حولها ،فخرجت أم سلمة بعد طلاقها الى فلسطين مع جواريها وحشمها وأموالها وسكنت فيها وكان بنو العباس المطالبون بالخلافة يسكنون فيه وبينما ذات يوم كانت جالسة اذا مر بها أبو العباس عبد الله بن محمد السفاح ،وكان جميلا ووسيما كامل الشباب وأبيض البشرة، فحلى في عينيها فسألت عنه وأعلمت بنسبه وأنه أعزب،فأرسلت اليها مولاتها تعرض عليه أن يتزوجها وقالت لها :سلمي عليه وقولي له : هذه سبعمائة دينار أوجه بها أليك .وكان لأم سلمة مال عظيم وجوهر وحشم ،وكأنها علمت فقره وأملاقه، فأتته المولاة،فأبلغته سلام سيدتها وأدت اليه رسالتها،فقال لها : قولي لسيدتك أنا ملق لا مال عندي ،ولو كان عندي من المال ما أرضاه لك لفعلت ، فقالت

المولاة:هذه سبعمائة دينار بعثت به سيدتي اليك لتصلح من شأنك، فأخذ المال وأقبل الى أخ أم سلمة فخطبها اليه ،فزوجها اياها على صداق مقداره خمسمائة دينار ، واهدى اليها مائتي دينار ، ودخل عليها من ذلك النهار الذي عقد فيه العقد، فوجدها جالسة على منصة وكل عضو فيها مكلل بالجوهر ،ثم دعت جواريها وغيرت ملابسها ولبست ثيابا مصبغة ، وحظيت عنده وحلف لها أن لا يتزوج عليها ولا يتسرى (أي لا يتخذ جارية مملوكة في محل مستور عنها ،كما كانت عادة الرجال الاثرياء) ، وغلبت عليه غلبة شديدة وملكت أمره وقلبه ، حتى ما كان يقطع أمرا الا بمشورتها ،ولا يستطيع زواجا ولا تسريا .

وكان دعاة بني العباس في تلك الأيام قد أحكموا أمورهم ووطدوا دعوتهم ،وكثر أعوانهم في أيران والعراق ، فأستدعوا أبا العباس السفاح من فلسطين ليبايعوه بالخلافة ، فأنتقل اليها وبويع بها سنة 132 هجري وعمره سبعة وعشرون سنة ، ثم أنتقل من الكوفة الى الأنبار وبنى عندها مدينة سماها الهاشمية ، وسكنها هو وأرباب دولتهم ، والانبار كانت مدينة على نهر الفرات من الجانب الشرقي ، فوق الفلوجة ، وأنتقلت العمار منها الى هاشمية السفاح وصارت تسمى الانبار ، ثم زالت الانبار الحديثة في القرن الحادي عشر للهجرة ، لأن أخبارها أنقطعت في هذا القرن ، ولا تزال آثارها معروفة الى اليوم .

ولما كان أبو العباس السفاح أول خلفاء بني العباس وكانت أم سلمة المخزومية زوجته ،فكانت أول سيدات بني عباس ، وقد لبثت مع زوجها السفاح في الهاشمية عاصمة الخلافة العباسية يومئذ مدة خلافته ، وكان مجلس السفاح من مفاخر مجالس الخلفاء ، فقد وهب له الله تعالى - الى جمال الصورة – كما الخلق وصواب الرأي وأستقامة السيرة وحسن التدبير ووافر الأدب ، حتى ولي الخلافة قبل أخيه أبي جعفر المنصور ، مع أن المنصور كان أكبر منه سنا . وأخباره في الاحسان الى بني الحسن العلويين مشهورة . وكان من ندماء السفاح في الادب والاخبار خالد بن صفوان التميمي ، ومما نقل من أخباره الطريفة أنه دخل ذات يوم على السفاح فوجده وحده ، فجلس ثم قال (يا أمير المؤمنين ، اني فكرت في

أمرك ، وسعة ملكك، وقد ملكت نفسك امرأة واحدة ، فان مرضت مرضت أنت ، وأن غابت غبت أنت وحرمت يا أمير المؤمنين نفسك التلذذ بالجواري الطريفات ، ومعرفة أخبار حالاتهن ، والتمتع بما تشتهي منهن . فأن منهن البضة أي البيضاء التي تحب لروعتها ، والسمراء اللعساء والصفراء العجزاء الذهبية من مولدات المدينة والطائف واليمامة ، ذوات الألسن العذبة والجواب الحاضر ، تفتتن بمحادثها وتلذ بخلوتها ، ومنهن المولدات البصريات والكوفيات ،ذوات القدود المهفهفة والأوساط المخصرة والأصداغ المزرفنة والعيون المكحلة والثديّ المحققة ، وأين أمير المؤمنين من بنات الاحرار والنظر الى ما عندهن وحسن الحديث منهن ؟ ولو رأيتهن ورأيت حسن زيهن وزينتهن لرأيت شيئا حسنا)

وأخذ خالد يتمطق بلسانه ويجيد وصف الجواري ويطنب في محاسنهن بحلاوة لفظه وجودة وصفه ، فشوق أبا العباس السفاح أليهن ، ولما فرغ من كلامه قال له أبا العباس ويحك يا خالد ، ما سلك مسامعي كلام أحسن من هذا ، فأعد علي كلامك فقد وقع مني موقعا . فأعاد عليه خالد الكلام أحسن مما أبتداه ، ثم استأذنه في الانصراف فأنصرف .

وبقي أبو العباس مفكرا فيما سمع منه مغموما ، فدخلت عليه امرأته أم سلمة، فلما رأته مطرقا مفكرا ومهموما قالت له : اني أستغرب حالك يا أمير المؤمنين ، فهل حدث أمر تكرهه، أو أتاك خبر فأرتعت له؟ قال : لم يكن من ذلك شيء . قالت: ما قصتك ؟ فجعل ينزوي عنها ، ويتفادى من الجواب ، فلم تزل تستخبره حتى أخبرها بما قاله خالد بن صفوان التميمي . قالت: فما قلت لأبن الفاعلة ؟ فقال السفاح: سبحان الله ينصحني وتشتمينه ؟! فخرجت من عنده غاضبة ، وأرسلت الى خالد جماعة من الجند في أيديهم عصي غليظة وأمرتهم أن لا يتركوا منه عضوا صحيحا . وحكى خالد عن نفسه قال: انصرفت من مجلس السفاح الى منزلي ، وأنا مسرور بما رأيت منه وأعجابه بما ألقيته اليه ، ولم أشك في أنه سيبعث الي بصلة ، فلم ألبث طويلا حتى رأيت جماعة من الجند ، وأنا قاعد على باب داري ، ولما رأيتهم قد أقبلوا نحوي أيقنت بالجائزة ، ثم وقفوا علي فسألوا

عني،فقلت :ها أنذا خالد بن صفوان ، فسبق الي واحد منهم وأهوى الي بخشبة ، فوثبت ودخلت منزلي وأغلقت على نفسي باب داري ومكث أياما ثلاثة على تلك الحال ، لا أخرج من منزلي ، ووقع في نفسي أنّ أم سلمة هي التي سلطت هؤلاء عليّ . وطلبني أبو العباس السفاح طلبا شديدا ، فلم أشعر ذات يوما ألا بقوم قد هجموا علي . وقالوا لي : أجب أمير المؤمنين . فأيقنت بالموت وقلت: انا لله وانا اليه راجعون لم أر دم شيخ أضيع من دمي . فركبت الى دار السفاح وليس علي لا لحم ولا دم من الخوف ، فوجدته منفردا ، ورأيت في المجلس بيتا عليه ستورا رقيقة وسمعت حركة خلف الستور . وقد شعر خالد بن صفوان أن وراء الستور أم سلمة أو من تنقل لها الحديث ، قال خالد : فقال لي أبو العباس لم أرك منذ ثلاث ليالي فقلت: كنت عليلا يا أمير المؤمنين قال: ويحك انك وصفت لي في أخر دخلة من أمر النساء والجواري ما لم يسلك مسامعي قط كلام أحسن منه ،فأعده عليّ قلت: نعم يا أمير المؤمنين أعلمتك أن العرب أشتقت اسم الضرة من الضرر ، وأن أحدا ما تزوج من النساء أكثر من واحدة الا ضر وتنغص ، فقال ويحك لم يكن هذا في الحديث فقلت: بلى والله يا أمير المؤمنين ، وأخبرتك أن الثلاث من النساء كأثافي القدر يغلى عليهن (والأثافي المناصب) فقال ابو العباس : برئت من قرابتي من رسول الله صلى الله وعليه وسلم ان كنت سمعت هذا منك في حديثك ، فقلت : وأخبرتك أن الأربع من النساء شر مجموع لصاحبهن يشيبنه ويهزمنه ويسقمنه ، قال : والله ما سمعت هذا الكلام منك ولا من غيرك قبل هذا قلت: بلى والله . فقال السفاح : ويلك تكذبني ؟ قلت: وتريد أن تقتلني يا أمير المؤمنين . قال أستمر في حديثك . قلت: وأخبرتك أن أبكارالجواري كالرجال.

قال خالد: فسمعت الضحك من وراء الستار . فقلت نعم وأخبرتك أن بني مخزوم رياحين قريش ، وأنت عندك ريحانة من الرياحين وأنت تطمع بعينيك الى حرائر النساء وغيرهن من الأماء، فسمعت من وراء الستر قائلة تقول: صدقت والله يا عماه وبررت ، بهذا حدثت أمير المؤمنين ولكنه بدل وغير ونطق عن لسانك ، فقال السفاح : مالك ، قاتلك الله وأخزاك ، وفعل بك كذا وكذا ؟ فتركته وخرجت

منسلا وقد أيقنت بالحياة . وما شعرت الا برسل أم سلمة قد صاروا الي ومعهم عشرة الاف درهم وتخت ثياب وبرذون.

وولد للسفاح من أم سلمة أبن وبنت هما محمد وريطة ، فالابن سماه بأسم أبيه والبنت سماها بأسم أمه ريطة بنت عبيد الله بن عبد مدان الحارثية ، وقيل رائطة، وتوفي أبو العباس السفاح في آخر سنة 136 بمدينته عن أحدى وثلاثسن سنة، ودفن قرب الأنبار وقد زال قبره وعفا .

ومما يؤثر من أخبارها أن أبا دلامة زند بن الجون الشاعر الكوفي الاسود دخل عليها بعد وفاته أبي العباس فعزاها به وبكى وبكت معه ثم أنشدها قوله:

مـن مجمـل الصـبر عنـك فلـم يكـن   صـبري عليـك غـداة بنـت جميلا

يجـدون أبـدالا بـه وأنـا امـرؤ   لـو مـت وجـدا مـا وجـدت بـديلا

انـي سـألت النـاس بعـدك كلـهم   فوجـدت أجـود مـن سـألت بخيلا

فقالت أم سلمة : لم أر أحدا أصيب به غيري وغيرك يا أبا دلامة .فقال: لسنا بسواء يرحمك الله ، لك منه ولد أنا منه ، فضحكت ، وقالت له لو حدثت الشيطان لأضحكته . ولم تكن منذ مات السفاح ضحكت الا ذلك الوقت .

وتزوجت أم سلمة بعد السفاح زوجا رابعا هو عبد الله بن عبد الحميد المخزومي ، وصار اليه مال عظيم وأصبح موسرا وكان يجزل عطايا الشعراء ثم أنها أتهمته بجارية لها فأحتجبت عنه ولم تعد اليه حتى مات . أما أم سلمة فأني لم أقف على تاريخ وفاتها ، على أنها طويلة العمر كثيرة الأزواج

الخيزران زوجة المهدي
وأم هارون الرشيد

كانت هذه السيدة المستفيضة الأخبار ، المستغربة السيرة ، في أول أمرها ، جارية مملوكة من مولدات اليمن . اشتراها محمد المهدي من نخاس أي دلال يبيع المماليك . وقيل أنها كانت قبل أنتقالها الى عصمة الخليفة المهدي لرجل من قبيلة ثقيف ، فقالت ذات يوم لمولاها الثقفي : أني رايت في المنام كيت وكيت ، وكانت قد رأت الشمس والقمر يبزغان من جسدها ، فقال لها لست من جواري مثلي، أنت تلدين خليفتين ، فقدم بها مكة فباعها في الرقيق أي المماليك ،فأشتريت وعرضت على ابي جعفر المنصور ، فقال لها : من أين أنت ؟ قالت: مولدي مكة ومنشئي بجرش،، وجرش صقع من أصقاع اليمن، قال: ألك أحد قالت: لا لي أحد ألا الله ، وما ولدت أمي غيري . فقال المنصور لاحد غلمانه : اذهب بها الى المهدي وقل له :أنها تصلح للولد . فأتي بها المهدي فوقعت منه كل موقع . والرواية الأولى – أعني كون المهدي مشتريا لها – مؤيدة بما ذكره أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي في(كتاب الاذكياء) فقد ذكر فيه أنه لما عرضت عليه الخيزران على المهدي قال لها : والله يا جارية انك لعلى غاية المتمني ، ولكنك حمشة الساقين (يعني دقيقة الساقين) فأجابته بجواب دل على ذكاء وفطنة فيها ، فقال اشتروها لي فأشتروها ، فحظيت عنده وولدت له موسى الهادي وهرون الرشيد وصارت ام الخليفتين ، ونادر في التاريخ أن تكون امرأة أم خليفتين فهي مثل ولادة ام الوليد وسليمان أبني عبد الملك بن مروان .

ولما تمكنت عند المهدي ورأت أن أبنيها موسى وهارون ما يعصمهما من كل تغير منه عليها باحت بالحقيقة وقالت: له ان لي أهل بيت بجرش في اليمن ،فقال المهدي ومن لك من الأهل ؟ قالت لي أختان ، أسم احداهما(أسما) واسم الأخرى (سلسل) ولي أم وأخوان ، فكتب المهدي باحضار أهلها فأحضروا ، فتزوج أخوه جعفر بن المنصور من سلسل فولدت منه(زبيدة) المشهورة والتي تزوجها فيما بعد هارون الرشيد ، وبقيت أسماء عذراء برهة حتى تزوجها المهدي

في حيلة أحتالها على خيزران ، وذلك أنه لما عزم على هذا الامر على خيزران قال للخيزران: قد ولدت لي رجلين وقد بايعت لهما الخلافة من بعدي ، وما احب أن تبقي أمة أي مملوكة ، وأحب أن أعتقك ثم تخرجين الى مكة وتقدمين فأتزوجك . قالت: الصواب رأيت يا أمير المؤمنين ، فأعتقها وصارت حرة فخرجت الى مكة ، فأنتهز المهدي هذه الفرصة فتزوج أسماء ومهرها مليون درهم ووهب لها مليون درهم أخرى ، ولما أحس بقدوم خيزران من مكة خرج لاستقبالها ، وكانت الاخبار بزواج أختها قد بلغتها، ويئست منه لأن الشريعة قد حرمت الجمع بين الاختين كما هو معلوم، فلما رأته قالت له: ما خبر أسماء عندكم وكم وهبت لها ؟ قال: من أسماء، قالت: له أمرأتك .قال: ان كانت أسماء أمراتي فهي طالق . فقالت الخيزران طلقتها حين علمت بقدومي قال: أما اذا علمت فقد مهرتها الف الف درهم ووهبت لها الف الف درهم ، ثم عقد المهدي على الخيزران وتزوجها وأخبارها كما قلنا مستفيضة ، فمن ذلك ما ذكره الواقدي قال: دخلت يوما على الخليفة المهدي فدخل الى دار الحرم ثم خرج متنكرا ممتلئا غيظا ، فلما جلس قلت: يا أمير المؤمنين خرجت على خلاف الحال التي دخلت عليها ! فقال نعم ، دخلت على الخيزران ، فوثبت علي ومدت يدها الي ومزقت ثوبي وقالت لي: يا قشاش ، أي خير رأيت منك ؟ وأنما أشتريتها من نخاس ورأت مني ما رأت وعقدت لابنيها ولاية العهد . ويحك أفانا قشاش؟ قال الواقدي: فقلت : يا أمير المؤمنين قال رسول الله صلى الله وعليه وسلم (أن النساء يغلبن الكرام ويغلبهن اللئام) وقال : خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي) وقال: قد (خلقت المرأة من ضلع عوجاء أن قومتها كسرتها) وحدثته في هذا الباب بكل ما حضرني ، فسكن غضبه وأسفر وجهه وأمر لي بألفي دينار وقال: أصلح من حالك ، فأخذتها وأنصرفت ، فلما وصلت الى منزلي وافاني رسول من الخيزران فقال لي : تقرأ عليك ستي السلام وتقول لك. يا عم قد سمعت جميع ما كلمت به أمير المؤمنين فأحسن الله جزاءك . وهذه الفا دينا ا لا عشرة دنانير بعثت بها اليك لأني لم أحب أن أساوي بين صلتي وصلة أمير المؤمنين . ووجهت الي بأثواب .

وهذا الخبر يدل على صرامتها وقوة قلبها وغلبتها على المهدي ، وقد دام سلطانها عليه حتى وفاته سنة 169 الهجري ، وولاية أبنها موسى الهادي للخلافة ، ثم انها أرادت أن تستبد بامور الخلافة في ابنها الهادي ، وتدخلت في كثير من الشؤون فهي أولى سيدات بني عباس اللواتي تحكمن في البلاد ، وزاولن الحكم والسياسة وقيل : ان الهادي لما صارت اليه الخلافة نابذها ونافرها لأنه رآها تفتئت عليه في اموره (أي تفعل دون رأيه) وتسلك به مسلك أبيه المهدي من قبله في الاستبداد بالامر والنهي ، فأرسل اليها ذات يوم يقول: (لا تخرجي من خفر الكفاية الى بذاذة التبذل ، فأنه ليس من قدر النساء الاعتراض على الملك ،وعليك في صلاتك وتسبيحك وتبتلك، ولك بعد هذا الطاعة مثلك فيما يجب لك) وكانت كثيرا ما تكلمه في الحوائج ، فكان يجيبها الى ما كل ما تسأل عنه قياما بحق الامومة وبرا بها ، حتى مضى لذلك أربعة شهور من خلافته ، وأنثال الناس على بابها وطمعوا بها ، فكانت المواكب تغدوا الى حضرتها ، حتى لقد رسم أصحابها أن لا يقف احد ببابها راكبا دابته ، كائنا من كان لم يجد الى أجابتها اليه من سبيل فأحتج بحجة ، فقالت له: لا بد من أجابتي اليها .قال : لا أفعل قالت : فأني قد تضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك المالكي ، وهو من رجال الدولة العباسية . فغضب موسى الهادي وقال: ويلي على أبن الفاعلة ، قد علمت أنه صاحبها ، والله لا قضيتها لك قالت: اذن والله لا اسألك حاجة أبدا . فقال أذن والله لا أبالي . وحمي وغضب ، فقامت مغضبة . فقال لها: مكانك تستوعي كلامي والله والا فأنا نفي من قرابتي من رسول الله صلى الله وعليه وسلم لئن بلغني أنه واقف ببابك أحد من قوادي أو احد من خاصتي أو خدمي لأضربن عنقه ولأقبضن ماله ، فمن فعل فليلزم ذلك ، ما هذه المواكب التي تغدو وتروح الى بابك في كل يوم ، أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك اياك ثم اياك ما فتحت بابك لملي أو لذمي ، فأنصرفت من عنده ما ترى شيئا مما في طريقها ولم تنطق عنده بحلوة أو مرة بعدها . ومالت كل الميل الى أبنها هارون الرشيد وقيل انه بعث اليها بلون من الوان الطعام وأرسل يقول لها : أكلت منه فأستطبته ، فكلي منه ، وكان الطعام مسموما ، فقالت لها جاريتها خالصة : أمسكي حتى تنظري فاني أخاف أن يكون

فيه شيئا تكرهينه، فجاؤوا بكلب فأكل منه فتساقط لحمه، فأرسل اليها بعد ذلك يقول: كيف رأيت الطعام ؟فقالت : فوجدته طيبا ،فقال لم تأكلي منه ولو أكلت لكنت قد أسترحت منك ، متى أفلح خليفة له أم؟

وجمع يوما القواد الذين يأتون باب الخيزران فقال لهم : أيما خير أنا أم أنتم ؟ قالوا : بل أنت يا أمير المؤمنين ، قال: فأيما خير أمي أم أمهاتكم ؟ قالوا: بل أمك يا أمير المؤمنين قال: فأيكم يحب أن تتحدث الرجال بخبر أمه ، فيقولوا : فعلت أم فلان وصنعت أم فلان ؟ قالوا : ما أحد منا يحب ذلك . قال: فما بال الرجال يأتون أمي فيتحدثون بحديثها فلما سمعوا ذلك أنقطعوا عنها بتاتا ، فشق عليها ذلك فأعتزلته وحلفت ألا تكلمه ، فما دخلت عليه حتى حضرته الوفاة ، ثم أنه أراد أن يخلع هارون الرشيد من ولاية العهد ويبايع لأبنه جعفر ، فخافت الخيزران على هارون الرشيد فدست اليه من جواريها وهو مريض من قتلنه بالغم والجلوس على وجهه فأختنق على أنه قد أشتهر في الاخبار خروج بثرة أي قرحة في جوفة كانت سببا في موته . وقيل أن علته بقيت ثلاثة أيام فقتلته في شهر ربيع الاول من سنه (170) وولي الخلافة بعده أخوه هارون الرشيد ، وللخيزران أخبار وحوادث جرت لها في ذلك العهد مذكورة في مظانها .

وقد توفيت الخيزران في خلافة أبنها الرشيد سنة 173 ، ودفنت في أحدى مقابر الرصافة وهي مقبرة الامام أبي حنيفة ، وكانت البانونة بنت المهدي قد دفنت فيها قبل الخيزران ، ثم أشتهرت المقبرة بمقبرة الخيزران واصل بلدة الأعظمية الحالية هي مقبرة الخيزران المذكورة ، ومن العادة نحن المسلمين أن تحول مقابرنا الى بلدان .

قال فيها أبو المعافي :

يا خيزرانُ هناك ثم هناك   إن العباد يسوسهم ابناكِ

ريطة بنت السفاح وزوجة الخليفة المهدي

هذه السيدة العباسية ، هي ريطة بنت أبي العباس السفاح زوجة الخليفة المهدي، أما أسمها ريطة فهو مأخوذ من الريطة المنسوجة وهي الملاءة أي النفنوف بهيئة قطعة واحدة ، لا بلفقين كالزبون والصاية ، وقيل هي كل نسيج من الملابس رقيق ولين ، فريطة أسم يدل على اللطافة والرقة والنعومة وقد أشتهرت من السيدات العباسيات ريطتان : ريطة بنت السفاح هذه وريطة بنت العباس بن علي زوجة المتوكل على الله العباسي ، وهي التي أراد المتوكل منها أن تطم شعرها وتجعله قصيرا على موضة الجواري المملوكات في ذلك الزمان فأبت وأمتنعت أن تغير في شعرها فأعلمها أنه يطلقها ان لم تفعل ذلك ، فأختارت الطلاق فطلقها .

وأما ريطة بنت السفاح فقد توفي والدها السفاح سنة 136 هجري ، على ما هو معروف ، ولم يكن لها غيرها وله أبن اسمه محمد ، وكان أيدا شديدا قويا وولاه عمه ابو جعفر المنصور مدينة البصرة . وكانت أخته قوية أيضا بخلاف اسمها الدال على اللطافة والرقة والنعومة . قيل كان محمد أبن السفاح يلوي العمود الحديد ، ثم يلقيه الى أخته ريطة فتعدله وتقومه كما كان .

تزوج ريطة هذه ابن عمها المهدي في خلافة أبيه المنصور ، وكان ذلك في سنة 144 وولدت له ولدين ذكرين هما عبيد الله بن المهدي وعلي بن المهدي وأخبار هذه السيدة العباسية قليلة ، وهي قبل زواجها أقل ، فمن الاخبار الطريفة التي لها شأن بها ، أن أبا دلامة زند بن الجون الشاعر الاسود ، كان على أتصاله بأبي جعفر المنصور كارها للصلوات مستهترا بشرب الخمر ، فألزمه المنصور القيام بفرائض العبادة في شهر رمضان خاصة ، فقال له أبو دلامة (البلية في شهر أصلح منها في طول الدهر) فكان المهدي أبن المنصور يبعث اليه في شهر رمضان في كل ليلة حارس يجيء به للعبادة ، فشق ذلك عليه وفزع الى الخيزران وكل أصحاب المهدي ليشفعوا له في الاعفاء من القيام في هذا الشهر المبارك ، فلم يجبهم المهدي الى طلبهم، فقال له أبو عبيد الله معاوية الأشعري الكاتب : الدال على الخير كفاعله

فكيف شكرك ؟ قال: أتم شكر . قال : عليك بريطة زوجة المهدي فأنه لا يخالفها . فقال أبو دلامة : صدقت والله ثم رفع اليها رقعة يقول فيه :

أبلغـــا ريطـــة أنـــي   كنـــت عبـــداً لأبيهـــا
فمضـــى يرحمـــه الله   وأوصـــى بـــي إليهـــا
وأراهـــا نســـيتني   مثـــل نســـيان أخيهـــا
جـاء شـهرُ الصـوم يمشـي   مشـــيةً مـــا أشـــتهيها
قائـــداً لـــي ليلـــة القـــدر   كـــأني أبتغيهـــا
تـــنطَحُ القِبْلـــةَ شـــهراً   جـــبهتي لا تأتليهـــا
ولقـــد عشـــتُ زمانـــاً   في فيـــافِيّ وجيهـــا
في ليـــالٍ مـــن شـــتاءٍ   كنـــتُ شـــيخاً أصـــطليها
قاعـــداً أوقِـــدُ نـــاراً   ضِـــبَابٍ أشـــتويها
مـــا أبـــالي لَيلـــةَ القـــدر   ولا تســـمعنيها
فـــاطلُبي لـــي فرجـــاً منهـــا   وأجـــري لـــكِ فيهـــا

فلما قرأت الرقعة ضحكت وأرسلت اليه بجواب تقول فيه : (أصطبر حتى تمضي ليلة القدر) فكتب اليها (أني أسالك أن تكلميه في أعفائي عاما قابلا ، واذا مضت ليلة القدر فقد فني الشهر) وكتب تحت ذلك هذه الابيات .

خـافي إلهـك في نفسٍ قـد احتضـرتْ   قامـت قيامَتُهـا بـين الْمُصَـلّيْنا

مـا ليلـة القـدر مـن هَمِّـيْ فأطلبُهـا   إنـي أخـاف المنايـا قَبْـلَ عِشـرينا

يـا ليلـةَ القـدْرِ قـد كسَّـرتِ أرْجُلَنـا   يـا ليلـة القـدر؛ حقـاً مـا تُمَنِّـيْنَ

لا بـــارك الله في خيرأؤملـــه   في ليلـة بعـد مـا قمنـا ثلاثينـا

فلما قرأت الابيات ضحكت ودخلت الى المهدي ،فشفعت له اليه وأنشدته الشعرين ، فضحك المهدي حتى أستلقى ودعا بأبي دلامة وكانت ريطة معه في حجله (والحجلة بيت مزين كقبة العروس) فأخرج المهدي راسه اليه وقال له: قد شفعنا ريطة فيك وأمرنا لك بسبعة ألاف درهم ، فقال أبو دلامة أما شفاعة سيدتي في حتى أعفيتني فأعفاها الله من النار ، وأما السبعة الآلاف فما أعجبني ما فعلته ، أما أن تتمها بثلاثة الآف فتصبح عشرة الآف وأما أن تنقصني الفين فتصبح خمسة الآف . فقال أبو دلامة ، فأني لا أعلم حساب السبعة ، فقال المهدي : قد جعلتها خمسة الآف .قال أبا دلامة :أعيذك بالله أن تختار أدنى الحالين وانت أنت فعبث به المهدي ثم كلمته ريطة فيه ، فأتمها الى عشرة الآف درهم ، فأحيل الى الخازن وأخذها.

ومن أخبار أبا دلامة معها انها وعدته مرة أن تعطيه جارية ، فماطلته ولم تنجز بالوعد ، حتى أمتدحها بعدة قصائد ، كل ذلك وهي لا تفي له بالوعد ، ثم خرجت من بغداد الى مكة حاجة ، فحجت ورجعت وكانت لها جارية يقال لها أم عبيدة ، وكانت برزة تخرج وتكلم الرجال وتبلغ الرسائل لسيدتها ريطة ، فقال ابا دلامة لأم عبيدة حين نفذ صبره ووهن أحتياله :

أبلغي سيدتي بالله يا أم عبيدة

وعدتني قبل أن تخرج للحج وليده

فتأنيت وأرسلت بعشرين قصيدة

كلما أخلقن أخلفت لها أخرى جديدة

ليس في بيتي لتمهيد فراشي من قعيدة

غير عجفاء عجوز ساقها مثل القديدة

وجهها أقبح من حوت طري في عصيدة

فدخلت أم عبيدة على السيدة ريطة فأنشدتها الشعر ، فأمرت له بجارية وومائتي دينار للنفقة عليها . وفي المحرم من سنة 169 هجري توفي الخليفة المهدي وولي الخلافة أبنه موسى الهادي ، وكانت الزندقة مستفحلة في عهد أبيه وعهده ، وكلاهم جد في طلب الزنادقة وقتلهم ، وكان من مشاهير الزنادقة يعقوب بن الفضل بن عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب الهاشمي ، وكان المهدي قد علم بزندقته وأراد قتله فحال بينه وبين ذلك أنه كان قد جعل على نفسه لله عهدا ألا يقتل هاشميا أن ولي الخلافة ، فلما تولاها أمر أن يخنق يعقوب بين الفرش فخنق ، وكان ليعقوب الزنديق هذا امرأة غير هاشمية اسمها خديجة ، وكانت زنديقة كزوجها ،وكان لها من الاناث أبنتان احدهما تسمى فاطمة ، فوجدت حبلى من أبيها فأرسل الهادي بها وبخديجة الى السيدة ريطة لتعلم حقيقة الحال وتخبره بها فرأتهما مكتحلتين مختضبتين ، فلامتها ريطة وأبنتها وبختها أقبح التوبيخ على تزندقها ، وأكثرت اللوم على فاطمة في كونها حبلى من أبيها ، وذهابها مذهب الاباحة فقالت فاطمة: أكرهني ابي وأرتكب مني ما أرتكب . فقالت لها ريطة: فما هذا الخضاب والكحل والسرور ان كنت مكرهة ؟! لعنك الله ، ثم أمر بها وبخديجة فضربتا على رؤوسهم بشيء يقال له الرعبوب، حتى هلكتا من الألم والفزع .

وقد جاء في أخبار السيدة ريطة أن ابا دلامة الشاعر الاسود الذي ذكرناه ، انشدها أبياتا عند وفاة أبيها السفاح الا أن المحققين رفضوا ذلك ، وذكروا أنه أنشدوا ام سلمة بنت يعقوب بن سلمة وقد ذكرتها .

وأدركت السيدة ريطة عدة شهور من خلافة الرشيد وماتت في بغداد وقيل أنها توفيت في أواخر أيام الموسى الهادي سنة 179 هجري والفرق بين القول قليل لا يتجاوز عدة شهور واذا كانت ولادتها مجهولة التاريخ لم نستطع معرفة عمرها الا اننا ذكرنا بأنها تزوجت سنة 144 هجري فان قدرنا انها تزوجت وعمرها 16 سنة كان عمرها اربعون عاما وذلك يعني انها ماتت وهي قي ريعان الشباب ويظن أنها دفنت في مقابر قريش أي الكاظمية الحالية لأنها كانت قرشية عباسية

علية بنت المهدي (مكنونة) وأخت هارون الرشيد

هذه السيدة خالدة الاسم من صاحبات الفنون الرفيعة في العالم ،بل هي أشهر نساء العباسيات من بيت الخلافة في تاريخ الفنون . على أن كونها بنت الخليفة وأخت خليفتين وزوجة أمير ، لم يكن يضمن لها شهرة السيرة ، ولا كرامة الاخبار،ولا براعة الآثار ، لولا الشعر والغناء ولا سيما الغناء ،فأنها بلغت في المكان الأسمى من الأجادة والأتقان . وما أدراك ما الغناء؟قلما تجد روحا مستغنية عنه ،حتى الصوفية وأهل التكايا والزوايا ، لا يستغنون عنه أبدا وليس من السهل أن يكون الأنسان بارعا فيه. كانت أم علية جارية مغنية أسمها مكنونة ، والمكنونة صفة للدرة العظيمة والؤلؤة الوسيمة ،وكانت أول أمرها مملوكة لزوجة أحد بني عباس بالمدينة المنورة ،معروفة بالجمال والوسامة فأشتراها المهدي ابن أبي جعفر المنصور في حياة أبيه بمائة الف درهم، وهي زهاء الآف درهم وستر أمرها عن أبيه المنصور حتى مات وصار هو خليفة بعده،وكانت عنده الخيزران أم الهادي والرشيد والبانوقة فاستولت عليه واستأثرت به حتى كانت الخيزران تقول : ما ملك المهدي أغلظ علي من مكنونة .

وفي سنة 160 هجري ولدت المكنونه للمهدي طفلة ،فسميت علية ونشأت في بيت الخلافة العباسية في بغداد ، وهذبت وأدبت ، وصارت تقول الشعر الجيد ، وتصنع أصوات بارعة قال اسماعيل بن ابراهيم الكاتب ورواه عنه أبو الفرج الأصفهاني كانت علية حسنة الدين وكانت لا تغني ولا تشرب النبيذ الا اذا كانت معتزلة للصلاة – يعني الاعتزال الشرعي – قال: فاذا طهرت أقبلت على الصلاة والقرآن وقراءة الكتب ،فلا تلذ بشيء غير قول الشعر في بعض الاحيان ، الا أن يدعوها الخليفة الى شيء – يعني الغناء – فلا تقدر على مخالفته ، وكانت تقول: ما حرم الله شيئا ألا وقد جعل له حلل عوضا ، فبأي شيء يحتج عاصيه والمنتهك لحرماته؟ وكانت تقول: لا غفر الله لي فاحشة أرتكبتها قط ، ولا أقول في شعري الا

عبثا ،ولما مات أبوها المهدي انقطع اليها أبو حفص عمر بن عبد العزيز الشطرنجي الشاعر مولاهم .

وقد ذكروا أنها كانت من أحسن الناس وأظرفهم ، ولكن جبينها واسع سعة تذهب جمال وجهها فأتخذت عصابة – أي عصبة للرأس – مكللة بالجواهر لتستر بها جبينها ، وبذلك أحدثت سبرا من الموضة . من أحسن الموضات التي أبتدعتها النساء لرؤوسهن ، والغالب في موضة النساء أن يكون المراد بها ستر عيب من عيوب أبدانهن ، ثم يغلب التقليد على سائر النساء ، فمنهن من ’يضعن شيئا من جمالهن بأتباع السبر الجديد أي الموضة الجديدة ،فيخسرن من حيث من جمالهن بأتباع السبر الجديد أي الموضة الجديدة ، فيخسرون من حيث يأملن الانتفاع ، ويسمنن من حيث يتوخين الوسامة والجمال . ولقد ذكرت في كلامي على سيرة العباسة بنت المهدي أن المهدي كان من الخلفاء الذين حرروا المرأة من الحصر والقصر ، وان أبنته البانوقة كانت تسير راكبة بين يديه سافرا على هيئة الجند. وانما قد مال الى التحرير النسوي بسبب ما رآه بين أمه أم موسى بنت منصور الحميرية وأبيه أبي جعفر المنصور، فأن أمه أشترطت على أبيه أن لا يتزوج عليها ولا يتخذ سرية ، وكتبت عليه بذلك كتابا أكدته وأشهدت عليه الشهود والثقات والمعدلين . فبقي عشر سنوات من خلافته يكتب الى الفقهاء من أهل الحجاز وأهل العراق ، يستفتيهم في الزواج عليها وابتياع الجواري السراري . وكانت أم موسى اذا علمت مكان الفقيه بادرته وأرسلت اليه بمال فلا يفتي المنصور بما يريد . ولم يستطع المنصور أن يخل بشروطها طول حياته . ثم أن في التاريخ ما يدل على أن المرأة القحطانية كالحميرية المذكورة وغيرها أكثر حرية وأستقلال من المرأة العدنانية ، سواء ذلك في الجاهلية والاسلام .

فلا عجب اذن من نشأة علية وغيرها من النساء المتحررات في بيت الخليفة المهدي ، ومما أغرم عليه بالغناء اقبال أخيها لأبيها ابراهيم بن المهدي على هذا الفن الجليل حتى انه أصبح أستاذا، حتى قال الناس : ما أجتمع في العصور الاسلامية قط أخت وأخ ، ولكنه سبقته في ذلك ، فكانت اذا غنت تكاد تحرك الحجر وتطير

الوقور ، وتستخف أرباب العقول الراجحة ، وتقتل النفوس المغرمة طربا . ولقد كان الناس في عصرها يقولون أيضا : لم يرى في الجاهلية ولا في الاسلام أحسن غناء منها ومن أخيها أبراهيم .

ولكنها لم يكن يسمعها ألا أهلها ، وكانت قد تزوجت الامير موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وحجت بيت الله الحرام في أيام خلافه أخيها الرشيد ، وخرجت معه نحو الري مرة ، فلما بلغت بلدة المرج بين خانقين وهمذان عملت بيتين وصاغت فيهما لحنا من مقام الرمل وغنت بهما وهما:

ومغـــترب بـــالمرج يبكـــي لشـــجوه   وقـد غـاب عنـه المسعدون علـى الحـب

اذا مـا أتـاه الركـب مـن نحـو أرضـه   تنشـــق يستشــفي برائحـــة الركـــب

فلما سمع الرشيد الصوت علم أنها قد أشتاقت الى العراق وأهلها فيه، فردها الى بغداد وكان الرشيد يصطاف ببلدة الرقة من الجزيرة الفراتية فأشتاق الى أخته علية مرة فكتب الى خال أبيهما يزيد بن منصور الحميري في أخراجها اليه فذهب بها فقالت في طريقها :

اشـرب وغـن علـى صـوت النـواعير   مـا كنـت أعرفهـا لـولا أبـن منصـور

لـولا الرجـاء لمـن أملـت رؤيتـه   مـا جـزت بغـداد في خـوف وتغريـر

وعملت فيهما لحنا في مقام الثقيل الاول – كما كانوا يقولون في ذلك الزمان وزارها أخوها الرشيد ذات يوم فقال لها : بالله يا أختي غني لي فقالت: وحياتك لأعملن فيك شعرا ولأصنعن فيه لحنا ، فقالت في وقتها :

تفـديك أختـك قـد حبـوت بنعمـة   لسـنا ’نعـد لهـا الزمـان عـديلا

ألا الخلـود وذاك قربـك سـيدي   لا زال قربـك والبقـاء طـويلا

وحمـــدت ربـــي في اجابـــة دعـــوتي   فرأيـــت حمـــدي عنـــد ذاك قلـــيلا

ووضعت فيه لحنا من وقتها في مقام خفيف الرمل فطرب الرشيد عليه . ولها أخبار حسنة مع أخوتها أبراهيم وهارون ويعقوب بني المهدي ، وأبني أخيها الأمين والمأمون . وذكر لها مؤرخو الغناء العربي أثنين وسبعون صوتا ، وذكروا أيضا انها كانت تحب المراسلة ،فهي من أوليات متابعاتها للمراسلة بالشعر، والشعر بالنسبة لها فن من فنون الأدب العربي، يجب أن يدرس مستقلا . وقالوا: أنها كاتبت مملوكا لأخيها الرشيد أسمه طل. على نحو ما يفعل السادة المتواضعون مع عبيدهم – فمنعها الرشيد من ذلك خشية كلام السوء لأن الناس يسيئون الظنون ويجعلون الأراجيف كالذي رأته العيون، ولقد نحلها الرواء شعرا لغيرهم ، لانها لحنته وغنت به ، ولأن منهم من يريد تقبيح أخبارها ،والانتقام من أهلها ، قالوا: أنها نظمت شعرا في المملوك طل وغنت فيه وصحفت أسمه الى(الظل) وفي رواية انها قالت شعرا في المملوك رشأ وكنت عنه بزينب وريب ،الى غير ذلك مما هو سهل التلفيق صعب التحقيق .

على أن العدو اذا أراد مقالا في عدوه وجد له مجالا ، وفي علية وأخيها أبراهيم قال أبو فراس الحمداني مثربا على بني العباس ومعربا ومجيبا لابن سكرة العباسي في أفتخار على بني علي:

مـــنهم عليـــة أم مـــنكم وهـــل لكـــم   شـــيخ المغـــنين أبـــراهيم أو لهـــم ؟

اذا تلـــو آيـــة غنـــى امـــامكم   (قـــف بالـــديار الـــتي لم يعفهـــا قـــدم)

وهذا باب واسع لا ينتهي الداخل فيه الى غاية ولا يصل الى نهاية ،فلا تقاس الأسر بالافراد ،ولا يصح الفخار بالاختيار ،ولم يسلم قبيل من المثالب والمعايب،الا أن القول الصحيح مع مرور الزمان هو قول أبن حازم الباهلي:

ومن دعا الناس الى ذمه   ذموه بالحق وبالباطل

وكانت علية تتستر من الأجانب ، ولا تكلمهم الا من وراء الحجاب ،فقد ذكر أسحاق أبن أبراهيم الموصلي الأديب المغني أنه عمل في أيام هرون الرشيد لحنا في هذين البيتين :

سقيا لأرض اذا ما نمت نهني   بعد الهدوء بها قرع النواقيس

كأن سوسنها في كل شارقة   على الميادين أذناب الطواويس

وعزم على أن يباكر به الرشيد،قال أسحاق: فلقيني في طريقي خادم لعلية بنت المهدي فقال: مولاتي تأمرك بدخول الدهليز أي المجاز، لتسمع من بعض جواريها غناء كانت قد أخذته عن أبيك وشكت فيها لآن، قال أسحق : فدخلت مع الخادم الى حجرة قد أفردت لي كأنها معدة لذلك فجلست فيها ، وقدم لي الطعام والشراب فنلت حاجتي منهما ، ثم خرج ألي خادم فقال : تقول لك مولاتي : أنا أعلم قد غدوت الى أمير المؤمنين بصوت قد أعددته له محدث،فاسمعينه ولك مني جائزة تتعجلها فلعل أمير المؤمنين لا يأمن لك بشيء أو لا يقع الصوت منه بحيث توخيت ، فيذهب سعيك باطلا ، قال أسحق: فاندفعت فغنيتها الصوت ولم تزل تستعيده مرارا ،ثم أخرجت ألي عشرين الف درهم وثوبا ، وقالت : هذه جائزتك ،ثم قالت أسمع الصوت مني الآن فغنته غناءا ما دخل سمعي مثله.

وان الانسان العاقل ليستغرب أول وهلة ولع هذه السيدة العباسية بالغناء ،ويراه مخلا بمقامها الهاشمي العباسي ،وحاط من منزلتها ،من حيث كونها بنت خليفة وأخت خليفة ، ولكن الامر لم يكن كما نظن من السماجة وخرق الناموس ، أن الحرية وحب الفن كانا قد بلغا في ذلك العصر أعلى درجاته ولا يعرف حب الفن التمييز بين الرفيع والوضيع ، ولا يختلف فيه الغني والفقير، ولا يتضاد فيه الملك والسوقة ،ولقد تزيد الاخبار في أخبار علية حتى المشهورين منهم كالأديب الكبير أبي الفرج الاصفهاني ،فقد ذكر في كتابه الاغاني وهو مفخرة الادب العربي ،في موضع منه أن علية غنت أبن أخيها الخليفة عبد الله المأمون في دار حرمه وأهله أبياتا أولها :

ما لي أرى الأبصار بي جافية　　لم تلتفت مني الى ناحيه؟

وقال أن الشعر والغناء لعلية بنت المهدي ،ثم ذكر في موضع آخر من كتابه وقال: الشعر لأبي العتاهية وذكر ابن المعتز أنه لعلية وذكر في موضع ثالث أن الشعر الذي غنت به أوله:

ليس خطب الهوى بخطب يسير　　ليس ينبيك عنه مثل خبير

وروى أحد البرامكة وهم أعداء بني العباس أن جعفر بن يحيى البرمكي حضر مع الرشيد مجلسا من مجالسه وسمع علية تغني من وراء الستار وزعم أن جعفرا قال: فطربت والله طربا هممت معه أن أنطح برأسي الحائط ،ثم رأى الرشيد يرقص فرقص معه، وهذا الراوي هو محمد بن الوزير جعفر البرمكي ، ولا اعتماد عليه في هذه الاخبار لأنه كان موتورا ،وقد وتره الرشيد بقتل أبيه جعفر البرمكي ،ولو كان جعفر أستاذا في الغناء لجاز لنا التصديق بالخبر ، اذا لا غضاضة في أن يسمع صوتها صاحب فن مثلها ليصلح غناءها ،كما يسمع الأستاذ تلميذه، ليعرف موطن الضعف فيه فيتلافى أمره.

ولما توفي أخوها الرشيد وكان ذلك سنة 193 هجري جزعت جزعا شديدا وتركت الغناء،فلم يزل بها محمد الأمين حتى عادت اليه كالمجبرة المكروهة وغنته بأبيات نظمتها في مدحه وهي آخر شعر لها قالت فيها :

أطلت عاذلتي لومي وتفنيدي
وأنت جاهلةٌ شوقي وتسهيدي
لا تشرب الراح بين المسمعات وزر
ظبياً غريراً نقي الخد والجيد
قد رنحته شمولٌ فهو منجدلٌ
يحكي بوجنته ماء العناقيد
قام الأمين فأغنى الناس كلهم
فما فقير ولا حال بموجود

وقد جاء في أخبارها ما يدل على خفة روحها ولطف فكاهتها وجمال سكوتها ، فقد ذكرها أخوها ورسيلها ومطارحها في الغناء أبراهيم بن المهدي أنها كانت مريضة فدخل عليها عائدا لها فقال لها: كيف أنت يا أختي جعلت فداءك وكيف حالك وجسمك ؟ فقالت له بخير والحمد لله وكانت الى جانبها جارية من جواريها واقفة تطرد الذباب عنها ، فأستحلاها ابراهيم وظل ينظر اليها وطال جلوسه عند أخته ، ثم أحس أن أخته رأته وهو ينظر اليها أي الجارية فأستحى وأقبل على أخته فقال مرة ثانية : كيف أنت يا أختي جعلت فداءك وكيف حالك وجسمك ؟فرفعت علية رأسها الى امرأة حاضنة لها كانت حاضرة وقالت: أليس هذا قد مضى مرة وأجبنا عنه؟ فقام أبراهيم خجلا وانصرف ،وكيف لا يخجل من مثل هذا الكلام الدال على البراعة في التنكيت والتبكيت؟

أما شعر عليه وقد ذكرنا منه قبل هذا ، فكان من الشعر الجيد الصادق ولو قالت عن نفسها: ولا أقول في شعري الا عبثا ففي هذا العبث الذي لم يدخله خوف ولا رجاء ولا استعصاء ولا تملق ولا فخر ، أحسن معاني القريض وأخفى أهواء النفس الشاعرة وأصح نزعاتها ، ولقد رو ى شعرها جماعة من كبار أدباء العرب قال: أبو علي اسماعيل بن القاسم القالي البغدادي : أنشدنا أبو بكر بن الأنباري قال أنشدنا ابراهيم بن عبد الله لعلية بنت المهدي:

تَحَبَّبْ فإنَّ الحبَّ داعيةُ الحبِّ
وكمْ من بعيدِ الدار مستوجبَ القربِ

تبصَّرْ فإن حدِّثتَ أنّ أخا هوىً
نجا سالماً فارْجُ النَّجاةَ من الحُبُ

وأطيبُ أيّامِ الهوى يومك الّذي
تروَّعُ بالتَّحريشِ فيه وبالعتبِ

وإذا لم يكن في الحبِّ سخطٌ ولا رضا
فَأَيْنَ حَلاوات الرّسائلِ والكُتُبِ؟

وهذا شعر محبة مجربة ، ما نجت من بأس الحب فنصحت للناس بأن لا يكابدوه، ولا يقاربوا أسبابه ان لم يتحملوا عذابه ،وعلى هذا المعنى جرى عمر بن الفارض الصوفي في قوله:

هُوَ الحُبّ فاسلمْ بالحشا ما الهَوَى سَهْلُ فَما اختارَهُ مُضْنًى بهِ، ولهُ عَقْلُ

وعِشْ خالياً فالحبُّ راحتُهُ عناً وأوّلُهُ سُقْمٌ، وآخِرُهُ قَتْلُ

ولكنْ لديَّ الموتُ فيه صبابة حَياةٌ لمَن أهوَى ، عليّ بها الفَضْلُ

فإنْ شِئتَ أنْ تحيا سَعيداً، فَمُتْ به شَهيداً، وإلاّ فالغرامُ لَهُ أهْلُ

فَمَنْ لم يَمُتْ في حُبّهِ لم يَعِشْ بهِ، ودونَ اجتِناءَالنّحلِ ما جنتِ النّحلُ

أحبّةَ قلبي والمحبّةُ شافعي لدَيكُمْ، إذا شِئتُمْ بها اتّصَل الحبلُ

عسَى عَطفَةٌ منكُمْ عَليّ بنَظرَةٍ، فقدْ تعبتْ بيني وبينكمُ الرُّسلُ

أحبّايَ أنتمْ أحسنَ الدّهرُ أمْ أسا فكونوا كما شئتمْ أنا ذلكَ الخلُّ

يعاذُ، فذاكَ الهجرُ عندي هوَ الوَصْلُ إذا كانَ حَظّي الهَجرَمنكم، ولم يكن

ومن شعرها المغنى به:

نام عذالي ولم أنم واشتفى الواشون من سقمي

وأذا مـــــت قلـــــت بـــــي ألم   شـــك مـــن أهـــواه في ألمـــي

ومنه قولها :

يـــــا ربـــــة المنـــــزل بـــــالبرك   وربـــــة الســـــلطان والملـــــك

تحرجـــــي بـــــالله مـــــن قتلنـــــا   لســـــنا مـــــن الـــــديلم والـــــترك

ومنه قولها:

يا واحد الحب ما لي منك إذ كلـفـت

نفسي بحبك إلا الـهـم والـحـزن

لم ينسـنيك سـرورٌ لا ولا حـزن

وكيف لا ! كيف ينسى وجهك الحسن

ولا خلا منك قلبـي لا ولا جـسـدي

كلي بكلك مشـغـولٌ ومـرتـهـن

نورٌ تولد من شمـس ومـن قـمـرٍ

حتى تكامل منه الـروح والـبـدن

وقولها :

بني الحب على الجور فلـو

أنصف المعشوق فيه لسمج

ليس يستحسن في حكم الهوى

عاشقٌ يحسن تأليف الحجج

لا تعيبن مــن مــحــبٍ ذلةً

ذلة العاشق مفتاح الفــرج

وقليل الحب صرفاً خالصــاً

لك خيرٌ من كثير قد مــزج

وقالت مرة للرشيد وقد طلب أختها ولم يطلبها في أمر من أموره :

ما لي نسيت وقد نودي بأصحابي

وكنت والذكر عندي رائحٌ غادي

أنا التي لا أطيق الدهر فرقتكــم

فرق لي يا أخي من طول إبعاد

وغنت فيه لحنا من الثقيل الأول – كما كانوا يقولون – وبعثت الى الرشيد من غناه بحضرته فرق لها واحضرها وهذا يدل على تقاطع وتهاجر حدث بينها وبين أخيها .

وكان لها وكيل يقال له سباع خان في وكالته واحتجن مالا فوقفت على خيانته فضربته وحبسته ، وكان يظهر العفة ويتصدق رئاء الناس ، ثم اجتمع جيرانه اليها وكتبوا رقعة يتشفعون له اليها ويذكرون حسن سيرته وكثرة صدقته ، فوقعت فيها هذه الابيات :

ألا أيهذا الراكب العيس بلغــن

سباعاً وقل انضم داركم السفر

أتسلبني مالي وإن جــاء ســائلٌ

رققت له إن حطه نحوك الفقر

كشافيه المرضى بعائدة الزنــا

تؤمل أجراً حيث ليس لها أجر

وقالت في لبابة وهي أبنة أخيها علي بن المهدي:

وحدثني عن مجلس كنت زينه

رسولٌ أمينٌ والنساء شهود

فقلت له كر الحديث الذي مضى

وذكرك من ذاك الحديث أريد

وقد ذكر الهشامي أن هذا اللحن لإسحاق غناه بالرقة. وليس ذلك بصحيح.

وسمعها إسماعيل بن الهادي تغني مستترةعند المأمون فأذهله غناؤها: أخبرني محمد بن يحيى عن عون بن محمد عن أبي أحمد بن الرشيد. ونسخت هذا الخبر من كتاب محمد بن الحسن عن عون بن محمد عن أبي أحمد بن الرشيد واللفظ له قال: دخل يوماً إسماعيل بن الهادي إلى المأمون، فسمع غناءً أذهله. فقال له المأمون: ما لك؟ قال: قد سمعت ما أذهلني، وكنت أكذب بأن الأرغن الرومي يقتل طرباً، وقد صدقت الآن بذلك. قال: أو لا تدري ما هذا؟ قال: لا والله ! قال: هذه عمتك علية تلقي على عمك إبراهيم صوتاً من غنائها. إلى ها هنا رواية محمد بن يحيى. وفي رواية محمد بن الحسن قال: هذه عمتك تلقي على عمك إبراهيم صوتاً استحسنه من غنائها. فأصغيت إليه فإذا هي تلقي عليه: صوت

ليس خطب الهوى بخطبٍ ليس ينبيك عنه مثل خبير يسير

ليس أمر الهوى يدبر بالرأي ولا بالقياس والتفكير

اللحن في هذا لعليه ثقيلٌ أول. وفيه لإبراهيم بن المهدي ثاني ثقيلٍ عن الهشامي.

وقد رأت علية خمسة خلفاء من أهلها ،هم أبوها محمد المهدي وأخوها موسى الهادي وهارون الرشيد ،وابناء أخيها محمد الأمين وعيد الله المأمون ، وتوفيت في بغداد في خلافة المأمون سنة عشرة ومائتين للهجرة لها خمسون سنة ، وكان سبب وفاتها أن المأمون ضمها اليه وجعل يقبل رأسها ، كما يفعل أبناء الأخ بعماتهم ، وكان وجهها مغطى فشرقت من ذلك وسعلت ، ثم أصابتها الحمى بعقب هذا أياما قليلة وماتت ، وأنطفأت بانطفاء حياتها شعلة فنية أدبية لا يدرك بهاءها الا أرباب الفنون الرفيعة وأصحاب الاذواق الفنية ، ولكنها تركت من الآثار والاخبار ما جعلها في مراتب الفنيين العالميين من جهة ، وسيرتها مثل كبرى الفنانات العربيات من جهة أخرى ،فلقد خلت كتب الفنون من ذكر العباسيات الا ذكرها ، وفي ذلكم فضل راهن لا يستطيع جحده الجاحدون واحدوثة جميلة لا يقدر على نسيانها الذاكرون لأرباب الفنون .

العباسة بنت المهدي

هي العباسة بنت الخليفة المهدي أخت هارون الرشيد ، وسيرتها عقدة من عقد التاريخ الاسلامي ، وكثيرة الاخبار وعجيبة من عجائب السيرة ،فقد جعل أسمها دريئة لأسماء العباسيات .

نشأت العباسة في بيت الخلافة ، وكانت أمها جارية من الجواري ،وكان لها من الاخوات البانوقة وسليمة وعلية ،ومن المؤرخين من سمى علية بالعالية ، خطب العباسة الى أبيها الخليفة المهدي ، عظيم من عظماء بني العباس هو محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، والي البصرة يومئذ، فزوجها أياها، وحملت اليه من البصرة ،وذا كانت ولاية المهدي للخلافة سنة 158 هجري ،علم أن أنتقال العباسة الى البصرة كان بعد هذه السنة ، أما زوجها فقد كان قد ولاه أبو جعفر المنصور البصرة ، ولما ثار فيها ابراهيم بن عبد الله الحسني وكان ذلك سنة 145 هجري خرج عنها محمد بن سليمان العباسي هو وأخوه جعفر بن سليمان ،فولاه المنصور الكوفة ، ثم قلده المهدي البصرة سنة 159 هجري وزوجه بأبنته العباسة – كما ذكرنا أنفا ، وأضاف اليه الاهواز والبحرين وعمان والسند واليمامة، ولبث في هذه الولاية بعد خلافة المهدي أيام خلافة الهادي ، وأدرك خلافة هارون الرشيد ،وكان يتولى أمور الحج أحيانا الى ولايتهاالاصلية ، وهو الذي تولى حرب الحسين بن علي بن الحسن العلوي الحسني بفخ على فرسخ من مكة ، فقتله وفضّ جمعه سنة 169 في خلافة موسى الهادي أبن المهدي .

وكان لمحمد ابن سليمان هذا بالبصرة خمسون الف مولى من خول وغيرهم ، وتوفي بالبصرة سنة 173 هجري في خلافة هارون الرشيد ، فاستولى هارون على ثروته العظيمة ومنها ستون الف درهم ، وعلى ضياعه في البصرة وغيرها ، وكان لزوجته العباسة بالبصرة قطيعة أي مقاطعة جعلها لها أبوها المهدي . ذكرها البلاذري في فتوح البلدان ، ثم زوج هارون الرشيد أخته العباسة بأبراهيم بن صالح بن علي العباسي،وهو أبن عم زوجها الأول وذو قرابة قريبة من هارون الرشيد ، وعلى كون العباسة قد تزوجت زوجين ودخلت في عصمتها الواحد تلو

الاخر أذيعت عليها في التاريخ قصة باطلة باردة وهي قصة أتصالها بجعفر بن يحي الفارسي البرمكي، بعد عقد شرعي مزعوم عقده لهما أخوها هارون الرشيد ، على شرط عدم الاجتماع ، ولكن الاجتماع حصل من دون علم الرشيد وعلى غير اختيار من الوزير ، وهذه هي القصة الباردة رواها أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تاريخه عن أحمد بن زهير بن حرب النسائي ، عن زهير بن حرب ،ونقلها بعده كثير من المؤرخين ولكن المرجع واحد أو أثنان .

وصور القصة أن هارون الرشيد كان لا يصبر عن جعفر البرمكي وعن أخته العباسة وكان يحضرهما أذا جلس للشراب فقال لجعفر : أزوجك أختي العباسة ليحل لك النظر اليها اذا أحضرتها مجلسي . وأمره ألا يمسها . فزوجها منه على ذلك الشرط فكان يحضرها مجلسه اذا عاقر الخمر ثم يقوم عن مجلسه فتبقى فيسكران من الشراب وهما شابان حتى آل الامر الى أن حملت العباسة من جعفر البرمكي فولدت غلاما ، فخافت على نفسها من أخيها الرشيد، فبعثت بالمولود الى مكة ، ولم يزل الامر مستورا عن الرشيد حتى وقع خلاف العباسة مع أحدى جواريها ، فأعلمت بأمرها وأمر الصبي واخبرت هارون الرشيد واخبرته بمكان الطفل ، فلما حج هارون حجة سنة 186 هجري أرسل الى موضع الصبي في مكه من أتاه به، وسأل حاضنته لتربيته فأعلمته الحقيقة وصح عنده قول الجارية ، فأراد قتل الصبي ولكنه تركه خوفا من الاثم ، وفي عودته من مكة قتل جعفر البرامكي ونكب البرامكة وأودعهم السجون الا واحد منهم ، واستصفى أموالهم وضياعهم.

وأثر الاختلاق والتوليد ظاهر على هذه الحكاية ، لانها وضعت الانتقام من هارون الرشيد ،بما فعل بالبرامكة من قتل جعفر وحبس الآخرين وازالة سلطانهم،والافقد ذكرنا ، أن العباسة تزوجت زوجين ، وكانت تسكن البصرة في زواجها الاول ، ثم أنها هاشمية عباسية ، ولم يكن هذا الفارسي كفؤا لها ولا بعض كفء، ولا عرف شيء مثل هذا التاريخ ، وكيف يصح وقوع هذا من الرشيد وهو الذي يقول ،سألت أبي قلت له من أكفاؤنا ؟فقال : اكفاؤنا أعداؤنا ، يعني بني أمية، فلم يكن يجوز للهاشمية أن تتزوج ألا هاشميا أو أمويا ،وقد تصرف المؤرخون

والاخباريون بهذه القصة وزينوها وحسنوها وزوروا لها حواشي ذيولا، ومنهم من فطن الى أن العباسة كانت متزوجة فقال انها (فاختته بنت المهدي) كما جاء في كتاب الامامة والسياسة ، ومنهم من قال : انها ميمونة ، كما في أعلام الناس ، وهو أضعف الكتب أخبارا و وفريق جعل للعباسة من جعفر صبيا واحدا ، وفريق جعل لها ثلاثة صبية ، مات احدهم صغيرا ومن أعجب ما نشأ عن هذه القصة الباطلة التي بها أنتصارا للبرامكة وكونهم قتلوا ظلما ونكبوا عدوانا ، أن آل مرا من قبيلة طي ، كانوا في القرن السابع للهجرة يدعون أنهم من ذرية جعفر البرمكي من نسل أبن جعفر الذي ولدته العباسة وقال النسابة بدر الدين أبو المحاسن يوسف الحمداني ،بعد ذكره أن ربيعة الطائيين كانوا في زمانه ملوك البر ، ما بين الشام والعراق والحجاز : ويقال ربيعة الأن أنه ولد جعفر بن يحي بن خالد البرمكي، وهذا ليس صحيحاثم قال { وزعموا انهم من ولد جعفر من الرشيد ،التي عقد له عليها - كما قالوا لتخرج عليه ، فحبلت منه بغلام ، وكان ربيعة طيء من بنيه وهذا الخبر غير صحيح وأن كان صحيحا فقد دفنت المرأة وولدها - كما قيل في تمام الحكاية - ولم يعلم لهم أثرا } وذكر ابن فضل الله العمري هذه الدعوى وعابها على آل مرا لتركهم نسبهم العربي . على أن أهل الانساب ذكروا أن هؤلاء الطائيين الذين أدعوا أنهم من نسل جعفر البرمكي ، جاءت منهم جماعة الى الحلة في أواخر عهد الايلخانيين بالعراق أي أوائل القرن الثامن للهجرة ، مع أمير طيء سليمان بن عيسى من آل مهنا ، وقد جعل المغول أميرا على الحلة ، فقالوا {نحن من بني جعفر بن أبي طالب الطيار ووعدتنا نحو أربعة آلاف فارس نحفظ أنسابنا ويكتفون بأنهم من نسل جعفر الطيار .

وأول من نبه على كذب قصة العباسة القاضي عبد الرحمن بن خلدون ،فقد عقد في مقدمه تاريخه العظيم حق العظمة ،فصلا في {فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه ، والالماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط والاوهام ، وذكر شيء من أسبابها} قال فيه: ومن الحكاية المدخولة للمؤرخين ما ينقلونه كافة في سبب نكبة الرشيد للبرامكة ، من قصة العباسة أخته مع جعفر بن يحي البرمكي وانه لكلفة بمكانه من معاقرته اياها الخمر ، اذن لها في عقد النكاح دون الخلوة حرصا على

اجتماعهما في مجلسه ، وأن العباسة تحيلت على جعفر في التماس الخلوة به لما شغفها من حبه ،الى أن قال{فحملت ووشي بذلك للرشيد فاستغضب وهيهات من منصب العباسة في دينها وأبويها وجلالها....} حتى قال :{قريبة عهد ببداوة العروبة وسذاجة الدير.بعيدة عن عوائد الترف ومراتع الفواحش ، فأين يطلب الصون والعفاف اذا ذهب عنها ، أو أن توجد الطهارة والزكاة واذا فقد من بيتها ،وكيف تلحم نسبها بجعفر بن يحي وتدنس شرفها بمولى من موالي العجم }؟ثم قال: { وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر الى موالي الاعاجم ، على بعد همته وعظم آبائه } الى أخر قوله في الاستبعاد والاستغراب .

واستبعاد ابن خلدون لحادث العباسةلا يكفي في الدلالة على نفيه ودفعه، وكان عليه أن يذكر من سيرتها كزواجها مرتين وسكناها في البصرة مدة ما يؤيد دليله العقلي ليقترن دليل النقل ودليل العقل ، ثم ان أشارته الى مراتع الفواحش وضياع الصون والعفاف ،خارجة عما هو بسبيله ، ومباينة لموضوعه فأن المؤرخين لم يذكروا ان العباسة زنت ولا تركت الصون والعفة ، وأنما ذكروا ان عقدها كان مشروطا بعدم الاجتماع ، وهو امر لا يثبت في الشرع بل تقتضيه الآداب ، وخصوصا في مذهب الرشيد ، فقد كان من مذهبه ان العقد اذا دخله شرط فهو صحيح والشرط لغو ،ولذلك لم يطعن المؤرخون على جعفر من حيث المخالفة للشرع ولم يجدوا سبيلا عليه ، فأبن خلدون لم يحسن الدفاع ووقع فيما عابه على المؤرخين .

ومن الحقائق التاريخية ان المهدي بن أبي جعفر المنصور كان من الخلفاء الذين حرروا المرأة بين الحصر والقصر، وتلك الحرية هي التي جعلت علية بنت المهدي على الحال المعروفة ، وسنتحدث بمهم أخبارها في حديث أخر، ذكر المؤرخون عن احد المعاصرون للمهدي العباسي ، قال : رأيت المهدي وقد دخل البصرة من قبل سكة قريش ، فرايته يسير وأبنته البانوقة بين يديه ،وبينه وبين صاحب الشرطة ، عليها قباء أسود متقلدة سيفا عليها منطقة رشاشية في هيئة الغلمان ، ورأيت في صدرها شيئا من ثديها وقد رفعا قباءها لنهودها ، وكانت سمراء حسنة القد ،

حلوة، فلما ماتت وذلك ببغداد أظهر عليها المهدي جزعا لم يسمع بمثله ، وجلس للناس يعزونه وأمر أن لا يحجب عنه أحد ،فأكثر الناس في التعازي .

فهذه صفة الحرية التي كانت عليها البانوقة بنت المهدي أخت علية ،فأين بداوة العروبة من زي البانوقة تلك العروبة ، التي زعم وجودها ابن خلدون للعباسة وهي أخت البانوقة الفارسية ، وهما اختا علية الاديبة الشاعرة المجاهرة ؟

وأنما نستدل نحن على بطلان أجتماع جعفر بن يحي البرمكي مع كل امرأة من حرم الرشيد ،بما ذكره المؤرخون من أن الرشيد قال لجعفر البرمكي يوم الجمعة آخر المحرم من سنة 187 { لولا أني عازم على الجلوس الليلة مع النساء لم أفارقك ،فأقم أنت في منزلك واشرب واطرب} ، وممن ذكر ذلك الطبري في تاريخه ، فلو كان صحيحا مما ذكر لم يقل الرشيد لجعفر ذلك القول ، ولجرت العادة على ما زعموه وولدوه.

فتعليل فتك هارون الرشيد بالبرامكة ، يجب أن يبحث عنه في غير قصة العباسة الباطلة ، كزندقة البرامكة وتحريض هارون الرشيد على العلويين أبناؤ عمه ووسعيهم في قتل عظمائهم كالامام موسى بن جعفر ، وعبد الله بن الحسن الافطس المعروف بقتيل البرامكة وهو الذي أهدى جعفر البرمكي رأسه في طبق الى هارون الرشيد في يوم النيروز جاعلا له من الهدايا التي تهدى في الاعياد .

السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد وأم الأمين

هي زبيدة بنت جعفر الاكبر بن المنصور العباسية ، زوجة هارون الرشيد وأم محمد الأمين الخليفة العباسي ، وهذه السيدة العظيمة قد دخلت أخبارها في الخرافات ، واصبحت هي علما لكل سيدة كبيرة وعباسية من سيدات العباسيين ، كما صار زوجها علما لكل خليفة عباسي عظيم ، وعدو زيره جعفر بن يحي البرمكي علما لكل وزير خطير من وزراء الدولة العباسية ، فلا غرو أن تدور الاقاصيص حول هؤلاء الثلاثة ويكونوا أمثلة لغيرهم، يعني ذكرهم عمن ذكرهم ويعزى اليهم من فضلهم فضل غيرهم ، ومن هذا ينشأ بعض الخلط في التاريخ والوهم في أحكامه.

ان جعفر الاكبر بن أبي جعفر المنصور وتزوج سلسل أخت الخيزران زوجة أخيه المهدي العباسي . فولدت له زبيدة واسمها(سكينة) وكنيتها أم جعفر ، وذكر الخطيب البغدادي في تاريخه الاصفهاني في الأغاني أن اسمها (امة العزيز) وأن جدها أبا جعفر المنصور كان يرقصها وهي صغيرة فيقول لها أنت زبدة ، وأنت زبيدة فغلب هذا اللقب على أسمها الاصلي ، وانما لقبها أبو جعفر المنصور بذلك لبضاضتها ونضارتها وحسن بدنها ، والمعروف في التاريخ أن (أم العزيز هي جارية الخليفة موسى الهادي أخي هارون الرشيد ، على أنها أشتهرت بلقبها فلم تعرف الا بزبيدة . ووالد زبيدة هو جعفر الاكبر بن أبي جعفر المنصور – كما ذكرنا – وفي سنة 145 ولاه أبوه مدينة الموصل وسير معه حرب بن عبد الله أحد قوادبني العباس الكبار ،فبنى بأسفل الموصل قصرا وسكن به ،وولدت به زبيدة قال أبن الاثير عز الدين: { فهو اليوم ، أي أول القرن السابع للهجرة }يعرف بقصر حرب ، وعنده – يومنا هذا – قرية كانت ملكا لنا، فبنينا فيها رباطا للصوفية وقفنا القرية عليها ،وقد جمعت كثيرا من هذه الكتاب في هذه القرية في دار لنا بها ، وهي من أنزه المواضع وأحسنها ، وأثار القصر باق بها الى الآن سبحان من لا يزول ولا تغيره الدهور) وهذا كلام ابن الأثير .

أما أبو زبيدة جعفر الاكبر ،فقد مات في حياة أبيه المنصور ببغداد سنة 150 هجري ودفن في مقابر قريش المعروفة اليوم بالكاظمية ، وهو أول من دفن فيها من القرشيين.

وعلى هذا تكون زبيدة قد ولدت بعد سنة 145 بقليل جدا ، ونشأت في دولة جدها المنصور ، ثم تزوجها أبن عمها هارون الرشيد ، وكان العرس في بغداد سنة 165 هجري في خلافة أبيه المهدي وكان ذلك في دار محمد بن سليمان العباسي وأحبها الرشيد حبا جما حتى أن أخاه الخليفة الهادي لما عزم على خلعه من ولاية العهدسنة 170 ، والمبايعة لابنه جعفر بن الهادي ،طاب الرشيد بذلك نفسا ،فقال له يحي بن خالد البرمكي : لا تفعل فقال الرشيد: أليس أخي يترك لي الهنيءوالمريء فهما يسعاني وأعيش مع أبنة عمي زبيدة . فهو قد فضل العيش معها على الخلافة ورأى فيه غنى عن هذه المرتبة العظيمة والأبهة الجسيمة .

ودار الزمان دورته ومات الخليفة الهادي ، فبيويع بالخلافة الى هارون الرشيد سنة ،170 هجري وانقادت الدنيا له ولزبيدة ، ونقلت أموالا اليهما ، وفي سنة176 أي بعد سته سنوات من استخلاف الرشيد ،حجت زبيدة الى بيت الله الحرام مع احد أخوتها ، وأخوتها هما جعفر وعيسى وعبد الله وصالح ، وكان لها أخت أسمها لبابة . تزوجها موسى الهادي ، وأنفقت في حجها في ستين يوما أربعة وخمسين مليون درهم ، وقد أثرت زبيدة في مكة المكرمة أثارا جميلة ، ومأثر خالدة ، فأنها أجرت الماء الى مكة عشرة أميال ، بحفر الجبال تحت الصخور ، حتى وصل الماء الى الحرم وأسقى أهل مكة بعد أن كانت الرواية وهي كالقربة تباع عندهم بدينار ، وعملت عقبة البستان، وكانت لما أرادت عملهاقال لها وكيلها: تلزمك لذلك نفقة كثيرة : فقالت له: أعملها ولو كانت ضربة فأس بدينار . وكان لها جوار الكعبة دار تعرف بدار زبيدة ، ولها أثار جميلة ،عملتها في المدينة .

ولها أيضا آثار جسيمة في طريق الحج من جهة العراق ، من مصانع وبرك وغيرها والمصانع جمع مصنع ومصنعة ، وهي سد يجمع الماء كمصنعة هندية أي سد الهندية ، وقد ذكر ابن الجبير الرحالة بعض هذه الآثار قال:{ وهذه المصانع والبرك

والآبار والمنازل التي من بغداد الى مكة من آثار زبيدة زوجة هارون الرشيد وأبنة عمه أنتدبت لذلك مدة حياتها فأبقت في هذه الطريق مرافق ومنافع ، تعم وفد الله تعالى ، كل سنة من لدن وفاتها الى الآن ، ولولا آثارها الكريمة في ذلك ما سلكت هذه الطريق والله كفيل بمجازاتها والرضى عنها ﴾.

ولبثت زبيدة مدة مع الرشيد لا تعلق منه آي لا تحبل ، فشاور بعض مجالسه من الحكماء واستشاره، فنصحه بأن يغيرها ، ويضرب له مثلا في الغيرة بسارة زوجة أبراهيم الخليل ،فأن سارة لم تكن تحبل من أبراهيم فلما وهبت له هاجر وحبلت منه بأسماعيل ، غارت سارة وحبلت منه بأسحق ، فأشترى الرشيد جارية أسمها مراجل ، فولدت له عبد الله المأمون، فغارت زبيدة منها فولدت له محمدا الآمين بعد ستة أشهر من ولادة المأمون ، وهي احدى الهاشميتين اللتين ولدتا خليفتين الأولى هي فاطمة بنت أسد أم الأمام علي رضي الله عنه والثانية زبيدة .

وذكر أحد المؤرخين انها كانت لها مائة جارية يحفظن القرآن الكريم ولكل واحدة منهن ورد عشر القرآن ، وكان يسمع في قصرها صوت كدوي النحل من قراءة القرآن ، وكانت معروفة بالخير والافضال على أهل العلم والبر بالفقراء والمساكين ، وكان لها معروف كثير.

ومن العجيب أن التاريخ أحتوى على أخبار الجوار من مغنيات كن لزبيدة ، ومنها الجارية المسماه (قلم) ويحكى عن قلم أنها غنت بحضرة المأمون صوتا عجيبا أي مقاما فسمعه علي بن هشام ،فاحتال لتعليم جواريه هذا الصوت بأن بذل مائة الف دينار ، ولم تعلم زبيدة بهذه السرقة الفنية ،ولو علمت لاغتاظت أشد الغيظ ، فأنها كانت ضنينة بمثل هذه الاصوات الغنائية ، وسمعت مرة مع زوجها هارون الرشيد غناء ابن جامع المغني ،فأمرت له بمائة الف درهم لكل بيت غناه ، واشترت غلاما لعبد الله بن موسى الهادي ضرابا على العود مجيدا بثلاثمائة الف درهم ، ولها أخبار وردت في كتاب الأغاني لأبي الفرج الاصفهاني ، تدل على لهوها ، ولهو زوجها هارون الرشيد ، مما كان له آثر قبيح في الدولة الاسلامية كشرب الخمر باسم النبيذ ، والاقبال على الملاهي التي حرمتها الشريعة الاسلامية ولو بقي هارون

الرشيد أكثر مما بقي في الخلافة لانحطت الدولة العباسية أقبح الانحطاط ، فأنه كان ضعيف التدبير .

وفي سنة 193 توفي زوج زبيدة آي هارون الرشيد ،وبويع بالخلافة أبنه محمد الأمين فافتتح خلافته بالغدر وخلع أخوه المأمون من ولاية العهد وكان لأمه زبيدة يد في هذه الحركة المشؤومة ،التي جعلت لأعداء الدولة العباسية طريقا يسلكونه ، حتى دفعت الى قائد الجيش ابنها المبعوث لحرب المأمون وهو علي بن عيسى بن ماهان – قيدا– من فضة وقالت له: قيده بهذا القيد بعد أنّ قالت له: يا علي اعرف لعبد الله المأمون حق ولادته ولا تقتسره اقتسار العبيد اذا ظفرت به ولا تعنف عليه في السير وأن شتمك فاحتمله . وكانت أجدر من أن تمنعه من الغدر وتكفه عن أحداث حدث عظيم في الدولة العباسية ، أخرب البلاد وأزهق نفوس العباد وأتى على نفس ابنها معهم ، وقيل أنها دخلت على الرشيد يوما فقالت له ما أنصفت أبنك محمد حيث وليته العراق وأعريته من العدد والقواد ، وصيرت ذلك الى عبد الله دونه فقال لها: وما أنت وتمييز الأعمال واختيار الرجال ، أني وليت أبنك السلم وعبد الله الحرب ، وصاحب الحرب أحوج الى الرجال من المسالم ، ومع هذا أنا أتخوف أبنك على عبد الله ولا أتخوف عبد الله على أبنك ان بويع.

ولما حلف الامين بالكعبة المعظمة لأبيه الرشيد بالوفاء لأخيه المأمون ، وأراد الخروج رده جعفر البرمكي وقال له: فأن غدرت بأخيك خذلك الله ، قالها ثلاث مرات ، فضغنت زبيدة ذلك لجعفر وكانت احدى من حرض الرشيد على هلاكه ، وكأنها كانت تضمر الغدر للمأمون منذ ولي العهد.

وقتل الأمين سنة 197 وأمه على قيد الحياة ، ولا شك انها قاست بموته قتيلا أروع المصا ئب وكابدت في حروبه أشد الاهوال والاحداث ، وقيل لما أحاطت جيوش المأمون ببغداد وحاصرت فيها الأمين ، دخلت عليه أمه زبيدة باكية فقال لها: { انه ليس بجزع النساء وهلعهن عقدت التيجان والخلافة سياسة لا تسعها صدور المراضع وراءك وراءك }.

وفي هذا ما يدل على قوة قلبه ونفسه ، وصلابة عزمه الا أن الشجاعة بغير العقل تكون وبالا ونكالا على صاحبها ، وكان لزبيدة شعر جيد منه قولها في فقدان الأمين:

لما رأيت المنايا قد قصدن له   أصبن منه سواد القلب والرسا

فبت متكئا أرعى النجوم له   أخال سنته في الليل قرطاسا

رزئته حين باهيت الرجال به   وقد بنيت به للدهر آساسا

فليس من مات مردودا لنا أبدا   حتى يرد علينا قبله ناسا

وقالت تعزيه مرة :

نفسي فداؤك لا يذهب بك اللهف   ففي بقائك مما قد مضى خلف

عوضت موسى فماتت كل مرزئة   ما بعد موسى على مفقود أسف

ولها أخبار مع المأمون لا تتعدى العتاب والترضي والتأسي ، وفي خلافته توفيت وذلك في جمادى الاؤلى من سنة 216 هجري ودفنت في مقابر قريش أي الكاظمية الحالية ، وكان قبرها قريبا من روضة الأمام موسى بن جعفر ولما أحرقت هذه المقبرة سنة 443 هجري في خلافة القائم بأمر الله العباسي احترق فيها قبر زبيدة وقبر أبنها محمد الآمين وقبر جعفر بن أبي المنصور وقبور بني بوية وغيرهم من الوزراء والرؤساء ، وذكر ابن الاثير عز الدين في تاريخه ، ولا ريب في أن القبور

التي أحرقت جددت بعد ذلك ، ما عدا قبر زبيدة مع القبور الدارسة ،فلا أثر له اليوم .

وأما القبة المعروفة اليوم بقبة زبيدة ،فهي بالحقيقة قبة زمرد خاتون أم الخليفة الناصر لدين الله العباسي ، ولم نجد فيما وقع الينا من الأخبار أن زبيدة من الزبيديات دفنت قرب الشيخ معروف الكرخي ، فأن يقع الينا يوما من الايام فأنها ذ تعد مدفونة تحت قبة زمرد خاتون . أعني القبة القائمة حتى اليوم ، كما دفنت تحتها من قبل السيدة بنفشة زوجة المستضيء بأمر الله ، والملك الأعظم علي بن الناصر لدين الله ، وعائشة خانم زوجة والي بغداد حسن باشا سنة 1131 وفي هذا التاريخ حرفوا أسم زمرد الى زبيدة لأن الجهل يبعث على التخليط والضلال .

ومن القصص ما ورد عن زبيدة بنت جعفر بن المنصور زوج هارون الرشيد قالت زُبيدة للمأمون بعد مقتل ابنها الأمين: "أهنيك بخلافة قد هَنَّأتُ نفسي بها عنك قبل أن أراك، ولئن كنتُ قد فقدتُ ابنًا خليفةً، لقد عُوِّضْتُ ابنًا خليفة لم ألده، وما خَسِرَ مَنِ اعتاضَ مِثْلَكَ، ولا ثُكِلَتْ أمٌّ مَلأَتْ يَدَها مِنكَ، وأنا أسأل الله أجْرًا على ما أخَذَ، وإمتاعًا بما عوَّض".

أمُّ جعفر زبيدةُ بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطَّلب بن هاشم.

سيدة جليلة، ذات يدٍ طُولَى في الحضارة والعُمران، والعطف على الأدباء والشُّعراء والأطباء، ومن ذوات العقل والرَّأي، والفصاحة والبلاغة.

أعْرَسَ بها الرَّشيد سنة 165 هـ في خلافة المهدي ببغداد، فولدت له محمَّدًا الأمينَ، فأحبَّتْهُ حُبًّا عظيمًا جعلها تهيىء له كلَّ العوامل الَّتي تعتقدُها واصلةً به إلى عرش الخِلافة، ولما ولدتْ محمدًا الأمين قال مروان بن أبي حفصة:

لِلَّهِ دَرُّكِ يَا عَقِيلَةَ جَعْفَرِ مَاذَا وَلَدْتِ مِنَ النَّدَى وَالسُّؤْدُدِ

إِنَّ الخِلَافَةَ قَدْ تَبَيَّنَ نُورُهَا لِلنَّاظِرِينَ عَلَى جَبِينِ مُحَمَّدِ

إِنِّي لأَعْلَمُ إِنَّهُ لَخَلِيفَةٌ إِنْ بَيْعَةٌ عُقِدَتْ وَإِنْ لَمْ تُعْقَدِ

فأمر له الرشيدُ بثلاثة آلاف دينار، وأمرت زبيدة أن يُحْشَى فُوهُ جَوْهَرًا، فكانت قيمتُهُ عشرةَ آلاف دينار.

واغتمَّتْ زُبيدة غَمًّا شديدًا لما ذكَر الرَّشيدُ البَيْعَةَ لابنه المأمون، فدخلت على الرشيد تُعاتِبُهُ في ذلك أشدَّ المعاتبة، وتؤاخذه أعنفَ المؤاخذة:

فقال الرشيد: ويحكِ إنما هي أمَّة محمد، ورعاية من استرعاني الله تعالى مُطَوَّقًا بعنقي، وقد عرفتِ ما بين ابني وابنِكِ، ليس ابنُكِ يا زبيدةُ أهلاً للخِلافة، ولا يصلح للرعيَّةِ.

قالت: ابني والله خيرٌ منَ ابنِكَ، وأصلح لما تريد، ليس بكبير سفيه، ولا صغير فيه، أسخى منَ ابنِكَ نَفْسًا، وأشجع قلبًا.

فقال هارون: ويحك إن ابنك لأحب إلي، إلا أنها الخِلافة لا تصلح إلا لمن كان لها أهلاً، وبها مستحقًا، ونحن مسؤولون عن هذا الخلق، ومأخوذون بهذا الأنام، فما أغنانا أن نَلْقَى الله بوِزْرهم، وننقلب إليه بإثمهم، فاقْعُدي حتى أعرِضَ عليك ما بين ابْنِي وابْنِكِ.

فقعدت معه على الفراش، ثم دعا ابنه عبدالله المأمون، فلمَّا صار بباب المجلس سَلَّمَ على أبيه بالخِلافة، ووقف طويلاً وقد طَأْطَأَ برأسه، وأغضى ببصره، ينتظر الإذن حتى كادت قدماه تَرِمُ، ثم أذن له بالجلوس فجلس، فاستأذن بالكلام، فأذن له فتكلم، فحمد الله على ما منَّ به من رؤية أبيه، ويرغب إليه في تعجيل

الفَرَجِ مِمَّا به، ثم استأذنه في الدُّنُوِّ من أبيه، فدنا منه، وجعل يَلْثم أسافل قدميه، ويُقبِّلُ باطن راحَتَيْهِ، ثم انثنى ساعيًا إلى زبيدة، فأقبل على تقبيل رأسِها، ثُمَّ انْثَنى إلى قدميها، ثم رجع إلى مجلسه، فحَمِدَ اللهَ إليها فيما منَّ به عليها من رِضَى أبيه عنها، وحُسْنِ رأيه فيها، ويسأله تعالى العون على بِرِّهِ، وأداءِ المفروض عليها من حقِّهِ، ويرغب أن يُوزِعَهَا شُكْرَهُ وحَمْدَهُ.

فقال الرشيدُ: يا بُنَيَّ إني أريد أن أعْهَدَ إليكَ عهد الإمامة، وأُقْعِدَكَ مَقْعَدَ الخِلافة، فإنِّي قد رأيتُكَ أهلاً لها، وبها حقيقًا.

فاسْتَعْبَرَ عبدالله المأمون باكيًا، وصاح مُنتَحِبًا يَسألُ اللَّهَ العافِيةَ من ذَلِكَ، ويرغب إليه أن لا يُرِيَهُ فَقْدَ أبيه، فقال له: يا بُنَيَّ! إنِّي أراني لما بي، وأنت أحقُّ، وسلِّمِ الأمرَ لِلَّه، وارض به، واسأله العَوْنَ عليه، فلا بد من عهدي يكون في يومي هذا، فقال عبدالله المأمون: يا أَبْتَاهُ! أخي أَحَقُّ منِّي، وابنُ سَيِّدَتِي، ولا إخالُ إلا أنَّه أَقْوَى على هذا الأمر منِّي، وأشدُّ استطلاعًا، عَرَضَ اللهُ لك ما فيه الرشاد والخَلاص، وللعباد الخير والصلاح، ثم أذن له فقام خارجًا.

ثم دعا هارون بابنه محمَّدٍ الأمينِ، فأقبل يَجُرُّ ذَيْلَهُ، ويتبخْتَرُ في مِشْيَتِهِ، فمشى داخلاً بنعْلِه، قد أُنْسِيَ السلامَ، وذهِل عن الكلام نَخْوَةً، وتَجَبُّرًا، وتعظُّمًا، وإعجابًا، فمشى حتى صار مستويًا مع أبيه على الفراش.

فقال هارون: ما تقول أيْ بُنَيَّ، فإني أريد أن أعهد إليك؟

فقال: يا أمير المؤمنين، ومن أحق بذلك منِّي، وأنا أسنُّ وَلَدِكَ، وابنُ قُرَّة عَيْنِكَ؟!

فقال هارون: اخرج يا بنيّ.

ثم قال لزبيدةَ: كيف رأيت ما بين ابني وابنِكِ؟

فقالت: يا أمير المؤمنين، ابني أحقُّ بما تريد، وأوْلَى بما لَدَيْكَ.

فقال هارون: فإذا أقْرَرْتِ بالحق، وأنصفتِ ما رأيتِ، فأنا أعهد إلى ابني، ثُمَّ إلى ابنِكِ بعدُ. فكتب عَهْدَ عبدالله المأمون، ثم محمد الأمين .

وكما سبق، كان الكِسَائِيُّ يُؤَدِّبُ الأمينَ بشِدَّةٍ، ويقول: "إنَّ محمَّدًا مُرَشَّح للخلافة بعد أبيه، ولا يجوز التقصير في تأديبه".

ولما قُتِلَ ابنُها الأمينُ، دخل إليها بعض خَدَمِها فقال: ما يُجْلِسُكِ وقد قُتِل أمير المؤمنين محمَّد؟ فقالت: ويلَكَ وما أصنع؟! فقال: تخرجين فتطلبين بثأره، كما خرجت عائشة تطلب بدم عثمان، فقالت: اخْسَأْ لا أمَّ لَكَ، ما لِلنّساءِ وَطَلَبِ الثَّأرِ ومُنَازَلَةِ الأبطالِ؟! وهذا يدلُّ على رجاحة عقلها.

ثُمَّ أمرتْ بثيابها فَسُوِّدَتْ، ولَبِسَتْ مِسَحًا من شَعْر، ودعت بدواة وقِرطاسٍ فكتبت إلى المأمون:

لِخَيْرِ إِمَامٍ قَامَ مِنْ خَيْرِ عُنْصُرِ ... وَأَفْضَلِ رَاقٍ فَوْقَ أَعْوَادِ مِنْبَرِ

وَوَارِثِ عِلْمِ الأَوَّلِينَ وَفَخْرِهِمْ ... وَلِلْمَلِكِ المَأمُونِ مِنْ أُمِّ جَعْفَرِ

كَتَبْتُ وَعَيْنِي تَسْتَهِلُّ دُمُوعُهَا ... إِلَيْكَ ابْنَ عَمِّي مِنْ جُفُونِي وَمَحْجِرِي

أُصِبْتُ بِأَدْنَى النَّاسِ مِنْكَ قَرَابَةً ... وَمَنْ زَالَ عَنْ كَبِدِي فَقَلَّ تَصَبُّرِي

أَتَى طَاهِرٌ لا قَدَّسَ اللَّهُ طَاهِرًا ... فَمَا طَاهِرٌ فِي فِعْلِهِ بِمُطَهَّرِ

فَأَبْرَزَنِي مَكْشُوفَةَ الوَجْهِ حَاسِرًا ... وَأَنْهَبَ أَمْوَالِي وَأَحْرَقَ أَدْؤُرِي

يَعِزُّ عَلَى هَارُونَ مَا قَدْ لَقِيتُهُ ... وَمَا نَالَنِي مِنْ نَاقِصِ الخَلْقِ أَعْوَرِ

فَإِنْ كَانَ مَا أَسْدَى لأَمْرٍ أَمَرْتَهُ صَبَرْتُ لأَمْرٍ مِنْ قَدِيرٍ مُقَدِّرِ

وَقَدْ مَسَّنِي ضُرٌّ وَذُلٌّ كَآبَةٍ وَأَرَّقَ عَيْنِي يَا ابْنَ عَمِّي تَفَكُّرِي

وَهِمْتُ لِمَا لاقَيْتُ بَعْدَ مُصَابِهِ فَأَمْرِي عَظِيمٌ مُنْكَرٌ جِدُّ مُنْكَرِ

سَأَشْكُو الَّذِي لاقَيْتُهُ بَعْدَ فَقْدِهِ إِلَيْكَ شَكَاةَ الْمُسْتَهَامِ الْمُقَهَّرِ

وَأَرْجُو لِمَا قَدْ مَرَّ بِي مُذْ فَقَدْتُهُ فَأَنْتَ لِبَثِّي خَيْرُ رَبٍّ مُغَيِّرِ

فلمَّا قرأ المأمون شِعرها بَكَى، ثم قال: اللَّهُمَّ إني أقول كما قال أمير المؤمنين عليٌّ لَمَّا بَلَغَهُ قَتْلُ عثمانَ: والله ما قتلتُ، ولا أمرتُ، ولا رَضِيتُ، اللهمَّ حَبِّلْ قَلْبَ طاهر – بن الحسين – حُزْنًا[1].

ولَمَّا لقيتِ المأمونَ قالتْ له: يا أمير المؤمنين، إن لكما يومًا تجتمعان فيه، وأرجو أن يغفر الله لكما إن شاء الله.

وفي رواية الخطيب البغداديّ أن زبيدة قالت للمأمون عند دخوله بغدادَ: أهَنِّيكَ بخلافة قد هَنَّأتُ نفسي بها عنكَ قبل أن أراكَ، ولئن كنتُ قد فقدتُ ابنًا خليفَةً، لقد عُوِّضْتُ ابنًا خليفَةً لم أَلِدْهُ، وما خَسِرَ من اعْتَاضَ مِثْلَكَ، ولا ثَكِلَتْ أمٌّ مَلأَتْ يَدَهَا مِنْكَ، وأنا أسأل الله أجْرًا على ما أَخَذَ، وإمتاعًا

ويُنْسَبُ إلى زُبَيْدَةَ مسجد زبيدة أمّ جعفر ببغدادَ، كان قريبًا من مسجد الشيخ معروف الكَرْخِيِّ، وقدِ انْدَرَسَ سنة 1195 هـ، وكان هذا المسجد واسعًا، وطيدَ البناء، قَوِيَّ الأركان، ولما بنى سليمان باشا الكبير والي بغداد سور الجانب الغربي استُعمِلَتْ أنقاضُهُ في بناء السور، ولم يبقَ من ذلك المسجد سوى قبرِ زبيدة، وعليه قبةٌ مَخْرُوطِيَّةُ الشكل من نوادر الفن المعماري.

وينسب إليها (المحدث): وهو منزل في طريق مكة بعد النقرة، على ستة أميال منها، فيه قصر وقبات متفرقة، وفيه بركة وبيران ماؤها عذب، وينسب إليها (العنابة)، وهي بركة لزبيدة بعد قباب على ثلاثة أميال تلقاء سُمَيْرَاءَ، وبعد توز، وماؤها مِلح غليظ، وينسب إليها بركة أمِّ جعفر، وهي في طريق مكة بين المغيثةوالعذيب ، وينسب إليها القنيعة، وهي بركة بين الثعلبية والخزيمية بطريق مكة، وينسب إليها الحسني، وهو بئر على ستة أميال من قَرَوْرَى قرب معدن النقرة، وينسب إليها الزبيدية، وهي بركة بين المغيثة والعذيب، وبها قصر ومسجد عمرتهما زبيدة.

ومن أخبارها:

وقع خلاف بين هارون الرَّشيد وزُبيدة في بيت من الشعر هو:

إنَّ العُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوَرٌ قَتَلْنَنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيِينَ قَتْلانَا

فكان الرشيد يقول: "يحيين" وزبيدة تقول: "يجنين" بالجيم والنون، فتخاطرا على ذلك بألفي دينار، ودعوا مسرورًا الخادم، وأعطياه على أن يخرج فيسأل أفضل من ببغداد من أهل العلم، فإن صوَّب قول الرشيد أعطاه ألفًا، وإن صوَّب قول زبيدة فألفها، وخرج مسرور بالشموع يطلب من يفتيه في ذلك فدُلَّ على الكسائي، وكان قريب عهد القدوم من الكوفة إلى بغداد، وكان يأوي إلى المسجد، فدخل مسرورٌ عليه بخيله وحشمه، فتحفز له الكسائي، فقال: لا بأس، إنه بيت أشكل علينا.

وأنشد رجلٌ زبيدةَ:

أَزُبَيْدَةُ ابْنَةَ جَعْفَرٍ طُوبَى لِزَائِرِكِ الْمُثَابْ

تُعْطِينَ مِنْ رِجْلَيْكِ مَا تُعْطِي الأَكُفُّ مِنَ الرِّغَابْ

فوثب إليه الخَدَمُ يضربونه، فمنعتهم من ذلك، وقالت: أراد خيرًا وأخطأ، وهو أحبُّ إلينا مِمَّن أراد شرًّا فأصاب؛ سمع قولَهم: "شِمالُكِ أَنْدَى مِنْ يَمِينِ غَيْرِكِ"، فظَنَّ أنه إذا قال هكذا كان أبلغَ، أَعْطُوهُ مَا أَمَّلَ، وعَرِّفُوهُ مَا جَهِلَ.

ومات لها قِرْدٌ، فساءَها ذلك، ونالها من الغمِّ ما عرفه الصغير والكبير من خاصَّتها، فكتب إليها أبو هارون العبدي: أَيَّتُها السيِّدة الخطيرة، إنَّ موقِعَ الخطْبِ بِذهاب الصغيرِ المعجِبِ، كموقع السرور بنَيْلِ الكثير المفرح، ومن جَهِلَ قَدْرَ التعزية عنِ التافِهِ الخَفِيِّ، عَمِيَ عنِ التهنئة بالجليل السَّنِيِّ، فلا نَقَصَكِ اللَّه الزائدَ في سُرورِك، ولا حَرَمَكِ أَجْرَ الذاهب من صغيرِكِ، فأمرتْ له بجائزة.

اختلف الرشيدُ وأمُّ جعفر في اللوزينج والفَالَوْذَجِ أيهما أَطْيَبُ؟ فمالتْ زبيدة إلى تفضيل الفَالَوْذَج، ومال الرشيد إلى تفضيل اللوزينج، وتخاطرا على مائة دينار، فأَحْضَرَا أبا يوسف القاضي، وقالا له: يا يعقوبُ قدِ اخْتَلَفْنا في كذا على كذا وكذا، فاحكم فيه، فقال: يا أمير المؤمنين ما يُحْكَم على غائب، وهو مذهبُ أبي حنيفة، فأحضر له جامَيْنِ منَ المذكورَيْنِ، فطَفِقَ يَأْكُلُ من هذا مَرَّةً، ومن هذا مَرَّةً، وتحقَّق أنَّه إن حَكَمَ للرشيد لم يأْمَنْ غَضَبَ زُبيدة، وإن حكم لها لم يأمن غَضَبَ الرشيد، فلم يزل في الأكل إلى أن نَصَفَ الجامَيْنِ، فقال له الرشيد: إِيهِ أبا يوسفَ، فقال: يا أمير المؤمنين، ما رأيتُ خَصْمَيْنِ أَجْدَلَ منهما، كُلَّمَا أردتُ أن أُسَجِّلَ لأحدهما أَدْلَى الآخرُ بحُجَّتِهِ، وقد حِرْتُ بينهما، فضَحِكَ الرشيدُ، وأعطاه المائة دينار، وانصرف مشكورًا.

ومِمَّا قيل فيها:

"امرأة لها اثنا عَشَرَ مَحرَمًا كُلٌّ منهم خليفةٌ: عاتكة بنت يزيد بن معاوية، يزيد أبوها، ومعاوية بن أبي سفيان جَدُّها، ومعاوية بن يزيد أخوها، وعبدالملك بن مروان زوجها، ومروان بن الحكم حَمُوها، ويزيد بن عبدالملك ابنها، والوليد وسليمان وهشام أبناء عبدالملك أولاد زوجها.

ومِثْلُها في بني العباس زُبيدة بنت جعْفَر بن المنصور، جدُّها المنصور، وأخوه السفَّاحُ، وزوجها الرشيد، وعمها المهدي، وابنها الأمين، وأبناء زوجها المأمون والمعتصم والواثق والمُتوكِّل.

وزوجها الرشيد خليفة، سلم عليه بالخلافة عمه، وعم أبيه، وعم جده، سلم عليه سليمان بن المنصور، والعباس بن محمد عم أبيه المهديّ، وعبدالصمد بن علي عم جده أبي جعفر المنصور.

وابنُها مُحمَّد الأمين، ولَّى الرشيدُ الكسائيَّ تأديبَه وتأديبَ عبدالله المأمون، يقول الكسائيُّ: "فَكُنْتُ أُشَدِّدُ عليهما في الأدب، وآخُذُهما به أَخْذًا شديدًا، وبخاصَّةٍ محمَّدٌ، فأتتْني ذات يوم "خالصةُ" جارية أمِّ جعفر - زُبَيْدة - فقالت: يا كِسائيُّ، إنَّ السَّيِّدةَ تَقْرَأُ عليْكَ السَّلام، وتقول لك: حاجتي إليك أن تَرْفُقَ بابني محمَّد؛ فإنَّه ثمرة فؤادي، وقُرَّةُ عَيْنِي، وأنا أَرِقُّ عليه رِقَّةً شديدة، فقُلْتُ لخالصةَ: إنَّ محمَّدًا مُرَشَّحٌ للخلافة بعد أبيه، ولا يجوز التقصير في تأديبه، فقالت خالصةُ: إنَّ لِرِقَّةِ السيِّدة سَبَبًا أنا مخبرَتُكَ به:

إنَّها في الليلة التي ولدتْهُ أُرِيَتْ في منامها كأن أربعَ نسوة أقبلنَ إليه، فاكْتَنَفْنَهُ عن يمينه وشماله وأمامه ووراءه، فقالتِ التي بين يديه: مَلِكٌ قليل العُمر، ضيِّقُ الصَّدر، عظيمُ الكِبْر، واهي الأمر، كثيرُ الوِزْرِ، شديدُ الغَدْر، وقالتِ الَّتي من ورائه: ملكٌ قَصَّاف، مُبذِّر مِتْلافٌ، قليل الإنصاف، كثير الإسراف، وقالتِ الَّتي عن يَمِينِهِ: ملكٌ ضخم، قليل الحِلم، كثير الإثم، قطُوع للرَّحِم. وقالت التي عن يساره: ملكٌ غدَّار، كثير العِثَار، ثم بكتْ خالصةُ وقالت: يا كِسَائِيُّ، وهل يُغني الحَذَر؟!".

لم نَسُقْ ما قالتْهُ "خالصةُ" لصحة الصفات التي وردت بحقِّ ابن زبيدة محمَّدٍ الأمينِ، إنها رؤيا أوردتْها بعض الكتب مُنَمَّقَةً مَسْجُوعَةً، والحقيقة تقول: جلس الأصمعيُّ يَمْتَحِنُ ويَخْتَبِرُ الأمينَ والمأمونَ، فقال: "ثُمَّ أمَرَنِي - الرَّشِيدُ - مُطارَحَتَهُما، فكنتُ لا ألقي عليهما شيئًا من فنون الأدب إلا أجابا فيه وأصابا".

ورأينا أنَّ الأخبار التي وردتْ عن الأمين هي إمَّا أحلام، وإمَّا أنها كُتبت في عهد المأمون وإخوته؛ أي بعد انحسار العنصر العربيِّ وتغلُّبِ الشعوبيَّة، وما من شكٍّ أنَّ الرَّشيد كان يُقدِّم الأمين، ولولا ذلك فما الذي كان يمنعُهُ من تقديم المأمون؟! ورواية الأصمعيِّ عنهما تؤكد أن الأمين كان على مستوى الخلافة، غير أنَّ الحديث عنه تقرُّبًا من المأمون والفُرْس، وهل كان الرشيد منساقًا في عواطفه مع زبيدة؟! إنَّ ما جاء في هذا من أخبار الأمين والمأمون فيه نظر.

قال الرشيد لزبيدة يومًا: أتزوَّج عليكِ؟

قالتْ زُبيدة: لا يَحِلُّ لك أن تتزوَّج عليَّ.

قال: بلى.

قالت: بيني وبينك مَن شئتَ.

قال: ترضَيْنَ بسُفيانَ الثَّوريِّ؟

قالت: نعم. فوَجَّهَ إلى سفيان الثوريِّ.

فقال الرشيد: إنَّ زبيدة تزعم أنه لا يَحِلُّ لي أن أتزوج عليها، وقد قال الله تعالى: {فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ} [النساء: 3]، ثم سكت؟:

فقال سفيان: تَمِّمِ الآيةَ، يريد أن يقرأ: {فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً}، وأنت لا تَعْدِل، فأمر لسفيان بعشرة آلاف درهم، فأبى سُفيان أن يقبلها .

وجرى بين الرشيد وبين ابنةِ عَمِّهِ زبيدة مناظرةٌ ومُلاحاة في شيء من الأشياء، فقال الرشيد لها في عُرْضِ كلامه: أنت طالق إن لم أكُنْ مِن أهل الجنَّة، ثم نَدِمَ واغتمَّا جميعًا بهذه اليمين، ونزلت بهما مصيبة لموضع ابنة عَمِّهِ منه، فجمع الفقهاء وسألهم عن هذه اليمين فلم يجد منها مَخرَجًا، وفي جِلْسَةٍ ضَمَّتْ فقهاءَ من سائر الأمصار، تكلَّم كلهم باستثناء اللَّيْثِ بن سَعْد، فدعاه الرشيد وقرَّبه، فطلب من الرشيد إحضار مصحَفٍ جامع، فأمر به فأُحْضِرَ، فقال الليث بن سعد: يأخذه

أميرُ المؤمنين فيتصفَّحه؛ حتى يصل إلى سورة الرحمن، فأخذ الرشيد وتصفَّحَهُ، حتَّى وصل إلى سورة الرحمن، فقال اللَّيْثُ: يقرأ أمير المؤمنين، فقرأ فلمَّا بلغ: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} [الرحمن: 46]، قال: قِف يا أمير المؤمنين ههنا، فوقف، فقال: يقول أمير المؤمنين والله، فاشتدَّ على الرشيد وعليَّ ذلك، فقال له الرشيد: ما هذا؟! قال: يا أمير المؤمنين على هذا وقع الشرط، فنَكَّسَ أمير المؤمنين رأسه – وكانت زبيدة في بيت مُسْبَلٍ عليه سِتْرٌ قريبٍ من المجلس تسمع الخطاب – ثم رفع الرشيد رأسه إليه فقال: والله! قال الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم إلى أن بلغ آخِرَ اليمين، ثم قال الليث: إنك يا أمير المؤمنين تخاف مقام الله؟ قال الرشيد: إني أخاف مقام الله، فقال: يا أمير المؤمنين فهِيَ جنَّتان؛ وليستْ بِجَنَّة واحدة، كما ذكر الله تعالى في كتابه، ففَرِحَتْ زُبيدة، وقال الرشيد: أحسنتَ والله بارك الله فيك، ثم أمر بالجوائز والخِلَعِ للَّيث بن سعد، وأمرت زبيدة له بضعف ما أمر به الرشيد، فحُمِلَ إليه، واستأذن في الرجوع إلى مصر، فحُمِلَ مُكَرَّمًا.

السيدة بوران زوجة المأمون

السيدة بوران بنت الحسن بن سهل بن عبد الله السرخسيّ، زوجة أبي عبد الله المأمون الخليفة العباسي ، وأبنة أخي ذي الرياستين الفضل بن سهل وزير المأمون وقيل أسمها خديجة وبوران لقبها، ولكنها أشتهرت ببوران فأنها سميت بأسم ملكة الفرس (بوران دخت بنت أبرويز) وفي عهد هذه الملكة دخل خالد بن الوليد العراق ، وفتح حصن عين التمر المعروف فيما بعد بألاخيضر غربي كربلاء.

ولدت بوران بنت الحسن بن سهل ليلة الاثنين لليلتين خلتا من صفر من سنة 192 في احدى مدن خراسان ، وكان اهلها من المجوس ، وأسلم عمها الفضل بن سهل سنة 190 على يد المأمون ، فهي رأءت الدنيا بعد سنتين من أسلام اهلها ، ونشئت تنشئة بنات العظماء ، فأن أمر المأمون ومملكته وسياستها كانت موكولة الى عمها وابيها الحسن بن سهل ، وفي تلك السنة عقد المأمون زواجه بها وعمرها عشر سنوات ، تألفا لقلب والدها وتسكينا لنفسه ، لأنه- أعني المأمون – أتهم بقتل وزيره الفضل بن سهل عم بوران ، ولكثرة الاحداث والحوادث والحروب ، وصغر سنها في تأخير الدخول اليها ، وبعد أن عاد الخليفة الى بغداد دار ملكه ، ومستقر خلافته وسبقه الحسن بن سهل الى العراق لتوطيد ملكه له، تهيأ له الخول بها وأقامة عرس من أفخم الاعراس في تاريخ البشر.

وكان ذلك سنة 210 أيام كان أبوها الحسن بن سهل ينزل ببلدة تسمى فم الصلح – والصلح نهر كان فوق واسط وكانت هذه البلدة على فوهته وفمه ، واحتفل أبوها بزواجها أحتفالا نادرا في التاريخ ، وعمل الولائم والافراح ما قل عمل مثله في عصر من العصور ، وانحدر المأمون من بغداد الى فم الصلح لثماني ليالي خلون في شهر رمضان صائما فوجد وزيره قد أعد له من الرياش والآلات والاثاث والزينة والهدايا ما يحكى به في الخرافات – اي الاحلام القصة غير الموجودة – لعظمة وفخامة ونفاسة وطرافة وكثرته ، فقد فرش للمأمون حصيرا منسوجا من ذهب ، ولما وقف عليه نثرت لآلىء كثيرة ، فلما رأى تساقط اللألىء

المختلفة على ذلك الحصير قال ، قاتل الله أبا نواس كأنه شاهد هذه الحالة حين قال ، في صفة الخمر والحباب:

كأن صغرى وكبرى من فواقعها   حصباء در على أرض من الذهب

وكانت جدتها أم الفضل والحسن ابني سهل هي التي نثرت تلك اللآلىء من صينية ذهب ، فأمر المأمون أن تجمع اللآلىء المثورة وسألها عن عددها ، فقالت الف درة فأمر بعدها ، فنقصت عشر حبات، فقال من أخذها فقالوا فلان ، فأمره بردها ، فقال اللأقط لها : أنما نثر اللؤلؤ لناخذه يا أمير المؤمنين ، فقال له المأمون ردها فأني أخلفها عليك ، وردها وجمع المأمون ذلك الدر في صينية الذهب كما كان ، وأمر أن يوضع في حجرة بوران ، وقال لها : هذه نحلتك وسلي حوائجك أقضها ، فأمسكت ثم سألته حوائجها، ونثر أبوها على الهاشميين والقواد والكتاب والاعيان ، بنادق مسك ، وفي كل بندقة اسم ضيعة أي مقاطعة أو اسم جارية أو اسم دابة بصفاتها أو غير ذلك ، فكانت البندقة اذا وقعت في يد الرجل اللاقط لها ، فتحها فقرأ اسم ما في الرقعة التي في البندقة فاذا علم بمضمونها ذهب الى وكيل مرصد لذلك ، فيدفعها اليه ويستلم ما كتب فيها.

ثم نثر الحسن بن سهل بعد ذلك على سائر الناس دراهم ودنانير ، وبيض العنبر وأوعية المسك ، وأنفق خمسين مليون درهم على المأمون وقواده ، وجميع أصحابه وسائر جنده وأتباعه حتى الجمالين والمكارين والملاحين ، وكانوا أناس لا يحصى عددهم من الكثرة ، ولا عجب في ذلك فقد كانت عدة الملاحين حسب نيفا وسبعين الف ملاح ، وأنشد الشعراء في ذلك واطنب الخطباء ، وكان من الشعراء اللذين حضروا هذا العرس العظيم محمد بن حازم الباهلي صاحب:

صن النفس واحملها على ما يزينها   تعش سالما والقول فيك جميل

فقال :

بـــارك الله للحســـن   ولبـــوران في الخـــتن

يـــا بـــن هـــارون قـــد ظفـــرت   ولكـــن ببنـــت مـــن ؟

فلما بلغ هذان البيتين المأمون فقال : والله ما ندري أخيرا أراد أم شر؟ وكان منهم علي بن جبلة المعروف بالعكوك ، فأعطاه الحسن بن سهل عشرة آلاف درهم قبل أن يستنشده وقال:الى أن نتفرغ،فقال علي بن جبلة في قصيدة له:

أعطيتني يا ولي الحق مبتدئا عطية كأفات مدحي ولم ترني

ما شمت برقك حتى نلت ريقه كأنما كنت بالجدوى تبادرني

ولما رجع المأمون الى بغداد بعد أربعين يوما او أكثر وهب للحسن بن سهل عشرة ملايين درهم .

وكانت أم جعفر زبيدة زوجة هارون الرشيد حاضرة ذلك الزفاف بفم الصلح ، فألبست بوران من هداياها (البدثة الأموية) وهي من الثياب الغالية جدا ، أستولى عليها بني عباس من بني أمية ، وأعطتها نهر الصلح وكان ملكا لزبيدة أو أقطاعا لها ، وعاشت السيدة بوران ببغداد وخارجها مع المأمون ثماني سنوات ، ثم توفي زوجها في سنة 218 قرب طرطوس من بلاد الروم ، وكانت هي معه وبصحبته ، فعادت الى بغداد مع الجيش العباسي الغازي ، وكان أبوها قد بنى على شاطيء دجلة الشرقي ببغداد بيوت فخمة ، وكانت هذه البيوت قرب القصر الجعفري الذي كان في اراضي المحكمة الشرعية وما حولها وسمي القصر الحسني نسبة الى الحسن بن سهل ، ثم توفي الحسن سنة 235 او بعد سنة فورثت أبته بوران ذلك القصر وفي عهد الخليفة المعتمد على الله العباسي كانت سامراء عاصمة للخلافة العباسية ، ألا أن هذا الخليفة كان يتردد على بغداد ليلهو ويشرب ، وأخوه طلحة ولي عهده يعمل بأصلاح الدولة وجمع الجيوش ، لحرب علي بن محمد صاحب الزنج الثائر – كان – علي بني العباس المدعي انه صاحب الزمان ، واستحسن المعتمد على الله قصر الحسن بن سهل أي القصر الحسني ، فطلب الى السيدة بوران أن تتنازل له عنه ، فأستنظرته أياما لتسليمه ثم رممته وجصصته وبيضته –أي عملت له دهان جديد وديكور أخر – وفرشته بأحسن الفرش الذي

يليق بالخليفة في حينه ، وأرسلت الى الخليفة المعتمد على الله في ينتقل اليه ، فأنتقل اليه ووجد به ما أستحسنه واستكثره ، وصار القصر المذكور أصلا لدار الخلافة العباسية بعد نقلها من سامراء نقلا كاملا في زمان المعتضد بالله العباسي ابن اخي المعتمد الذي أسلفنا ذكره .

وبقيت السيدة بوران في بغداد الى أن توفيت فيها ، يوم الثلاثاء لثلاث ليالي بقين من شهر ربيع الاول سنة 271 هجري في خلافة المعتمد على الله ، ودفنت في محلة المخرم المعروفة أرضها فيما بعد بالعيواضية وما حولها ، وجعل لقبرها قبة ، ثم عرفت تلك المقبرة بأسم المقبرة السهلية ولعلها نسبت الى جدها سهل والد الحسن بن سهل – على الطريقة العربية – في النسبة ، أعني ان العرب تنسب أمثال المحدثات الى والد المؤسس وجده لا الى المؤسس نفسه كما قالوا الدولة العباسية و الدولة الاموية ، مع ان العباس وامية لم يؤسس احد منهما دولة . وفي محرم سنة 485 هجري أمر السلطان ملكشاه السلجوقي بعمار مسجد عند قبر بوران ، وهو الجامع المعروف بجامع السلطانة فأصبحت قبة قبرها مقابلة لمقصورة الجامع ، وكلاهما كان قريبا من دار المملكة السلجوقية فعلى تكون مقبرة الشهداء الحالية التي بباب المعظم من المقبرة السهلية حيث دفنت السيدة بوران أو من مكان قريبا منهما ، وقبتها بقيت قائمة الى ما شاء الله ، حتى ليجد الناظر صورتها في رسم بغداد الذي رسمه المطراقي اعتمادا على رؤيته لهذه المدينة أيام احتلال السلطان سليمان القانوني لها سنة 941 ، ولم أجد لتربتها ذكرا ولا صورة بعد ذلك التاريخ ، فقد عفا قبرها مع القبور الدارسة ودرس جامع السلطان ملكشاه مع كونه بيتا من بيوت الله ، ولا يسلم من الزوال والعفاء والفناء الا الله تعالى .

السيدة شجاع أم المتوكل على الله

أسم هذه السيدة شجاع وهو غريب عن الأسماع لأول وهلة، واذا علمنا أن من معاني الشجاع في العربية { الحية الشديدة الجريئة} أيقنا أن هذه السيدة سميت بأسم هذا الضرب من الحيات ، وكانت شجاع في الأصل جارية مملوكة مثل أكثر أمهات الخلفاء العباسيين ، وقد ثبت بالعلم أن أختلاط دماء الاجيال والاقوام يطور الأولاد ، ويؤرث الصفات ، فنسل بني العباس الخلفاء تعاوره الصلاح والفساد بحسب الأمم التي تزوجوا منها.

كانت شجاع تركية الاصل خوارزمية طخارية البلاد من أقليم طخارستان فيما وراء النهر ، وتم جلبها في الرقيق وباعها النخاسون في العراق ، فصارت الى المعتصم بالله بن هارون الرشيد فولدها أبو الفضل جعفر المتوكل على الله سنه205 هجري في خلافة أخيه عبد الله المأمون ، وكان للمعتصم جارية قبل شجاع من الجواري الروميات ، أسمها قراطيس ، وولدت له أبا جعفر هارون الملقب بالواثق بالله سنة 195 ، في أيام النزاع بين الأمين والمأمون ، وقد جرت العادة ان أبناء العلات أي أبناء الرجل من نسوة شتى ، يختلفون ويتضاغنون لأختلاف أمهاتهم ، وتضاغنهن دون بني الاعيان وهم الأخوة من الأبوين ، ودون الاخوة الأخياف وهم الذين أمهم واحدة وآباءهم شتى، وسبب ذلك أن تصافي النساء يؤدي في الغالب الى تصافي الرجال ، وتشاحنهن يودي الى تشاحن الرجال ، فلا جرم أن العداوة نشأت بين الواثق بالله وأخيه المتوكل على الله بسبب العداء بين أمهاتهم وتبثت العداوة بينهم وأن كان أبوهم المعتصم قد مات وبقيت العداوة بينهما على أتعس حال يجبه وسياء لقاؤه ، وتعطل أرزاقه أي معاشاته ، ويستهزأ به ، ويجز شعره ، ويغضب عليه الواثق أضعف الاسباب ، ومن أخباره الاستهزاء به والمعابثه له ،ومن أخبارهم أن حمدون بن أسماعيل النديم ، وكان ينادم المعتصم بالله ، فقال للواثق بالله ونادمه بعد أبيه ، وكان يعلم أعتراضه على أخيه المتوكل ، فكان يعبث

به (يعبث به أي يضعه على أكثر من حال) ، ولقد جاء في احدى المرات بحية في كمه(أي بيده تحت قطعة من الملابس) ، واخرج رأسها للمتوكل تعريضا بأمه شجاع ،لأن الشجاع كما ذكرنا نوع من الحيات ، وكان هذا اللعب أو المجون البارد يعجب الخليفة الواثق ، وما أدري أي غضاضة على المتوكل في تسمية أمه بالحية .

واذا كانت حال المتوكل تعيسة في خلافة أخيه الواثق أستدل بذلك على رداءة حال أمه شجاع ولذلك لم يكن لها شأن في عهده ، فلما توفي الواثق وذلك سنة 232 كما هو معروف ولي المتوكل الخلافة غاضبا منتقما عاقدا النية على مخالفة أعمال أخيه كلها، والحقد والغضب أقبح العيوب في السياسة وخاصة في سياسة المماليك ، فلذلك لم ينجح في سياسته الانتقامية . وفي سنة 237 في خلافة المتوكل حجت أمه السيدة شجاع الى بيت الله الحرام ،فخرج المتوكل معها من سامراء فشيعها أي أوصلها الى النجف وعاد ، وكانت في صحبة حفيدها محمد بن المتوكل الذي لقب في استخلاف بالمنتصر وفي سنة 245 غارت – أي أنقطعت مشاش – أسم عين .وهي عين يجري ماؤها في جبال الطائف حتى تصل عرفات وتفضي الى مكة ، فأصاب أهل مكة العطش وبلغ ثمن القربة الواحدة ثمانين درهما ، فبعثت السيدة شجاع من أصلحها واصلح قناتها وانفقت ذلك من مالها ، وكانت مقبلة على مثل هذه الاعمال الخيرية والآثار الحسنة . وكان لها الكثير من الاملاك والقرى فمن ذلك قرية بناحية واسط،وذكرت في حوادث التاريخ استطرادا ،فأن أخبار هذه السيدة قليلة ،فالتواريخ لم تفصل سيرتها ، كما فصلت سير كثير من أمهات الخلفاء العباسيين في سامراء وبغداد .

توفيت في ربيع الاخر بسامراء السيدة شجاع وكانت وفاتها قبل قتل أبنها المتوكل على الله بسته أشهر ، وصلى عليها حفيدها المنتصر بالله ، ودفنت هناك عند المسجد الجامع المتوكلية وهي المعروفة بالجعفرية قديما وبعدها عرفت بأبي دلف .

وكانت تركتها من الدنانير خمسة ملايين وخمسين الف دينار ، ومن الجواهر ما قيمته مليون دينار ، وقال احد المؤرخين : في وفيات سنة 247 توفيت شجاع أم المتوكل وكانت خيرة أي كثيرة الرغبة في الخير ، وخلفت من العين خمسة آلاف دينار وخمسين الف دينار ومن الجوهر ما قيمته الف الف دينار ولم تعرف امرأة رأت أبنها وله ثلاث أولاد ولاة عهود الا هي) أراد بقوله الاخير أبنا المتوكل محمد المنتصر بالله وزبيرا المعتز بالله وأبراهيم المؤيد بالله هذا ما وصلت اليه من أخبار السيدة شجاع نتيجة البحث.

السيدة مخارق

السيدة مخارق هي والدة الخليفة المستعين بالله وهي جارية روسية الاصل وأمتلكها الأمير محمد بن المعتصم بالله ،فولدت له أحمد وهو الملقب بالمستعين بالله ولما ولي للخلافة ،وكانت ولايته سنة 248 ،وكان من أضعف الخلفاء، واطلق في عهده يد أتامش الامير التركي وشاهك الخادم ويد أمه مخارق ، وأباحهم أن يفعلوا ما يريدون ببيت الاموال ، ولم يمنع أمه من أي شيء تريده ، وكان لها كاتب اسمه سلمة بن سعيد وكان نصرانيا بارعا في الكتابة والحساب ، فكانت الاموال التي تحمل من جميع الممالك العباسية الى سامراء حضرة الخلافة ، يذهب أكثرها الى السيدة مخارق ، وكانت تنفق أنفاق كبير ولا تخاف الفقر ، ولم تعلم بأن أصلاح الممالك وسداد أمور الحكم باقية ما دام بيت المال باقي ، وصرفت الى وجوهها ومن اخبار تخرقها في الاموال قصة بساط التماثيل ، قال أحمد بن حمدون النديم : عملت أم المستعين بساطا على صورة كل حيوان من جميع الاجناس وصورة كل طائرمن ذهب وعيونها من يواقيت ، وانفقت عليها الف دينار وثلاثين الف دينار،وسألت المستعين أن يقف عليه وينظر اليه ،فكسل ذلك اليوم عن رؤيته ،فقال لي المستعين: ولأترجة الهاشمي: أذهبا فانظرا اليه، فذهبنا ومعنا الحاجب ، فرأيناه ، فوالله ما رأينا في الدنيا شيء أحسن من ذلك البساط ولا رأينا شيئا أحسن في الدنيا الا وقد عمل فيه ، فمددت يدي الى غزال من ذهب وعيناه ياقوتتان فوضعته في كمي ، ثم عدنا الى المستعين فوصفنا له البساط وحسن ما رأيناه فيه، وقال أترجة الهاشمي للمستعين: يا أمير المؤمنيين أن ابن حمدون قد سرق منه شيئا ، وغمزه على كمه ،فأخرجت الغزال وأريته للمستعين فقال لنا : بحياتي عليكم أرجعا فخذا ما أحببتما ، فمضينا فملأءنا أكمامنا وأقبيتنا وكنا نمشي كالحبالى ، فلما رآنا المستعين ضحك،فقال:لبقية الجلساء وفيهم يزيد المهلبي : ونحن ما ذنبنا يا أمير المؤمنيين ؟فقال لهم:قوموا فخذوا ما شئتم ،ثم قام من مجلسه فوقف على الطريق الذي يمر فيه الجلساء، ينظر كيف يحملون أشياء البساط ، وهو يضحك ، ورأى يزيد المهلبي يحمل سطلا من ذهب مملوء مسكا ، فأخذه بيده وخرج، فقال له المستعين الى أين

فقال له : الى الحمام يا أمير المؤمنيين ، ثم أمر الفراشين والخدم أن ينهبوا الباقي فنهب ولما علمت امه مخارق بذلك أرسلت اليه خادما برسالة تقول فيها:لقد كنت أحب أن تراه قبل أن تفرقه ، فأني أنفقت عليه مائة الف الف وثلاثين الف دينار ، فأمر بأن يحمل من بيت المال مقدار ما أنفقت حتى تعمل بساطا مثله فعملت ، ومضى ورأه ولكنه فعل به كفعله بالأول ،وفرقه على الندماء.

وفي سنة 251 خلع الجند بسامراء المستعين بالله ، فهرب الى بغداد مع جماعة من الآمراء ، وبويع المعتز بالله بن المتوكل ، وترك المستعين الاموال بسامراء ،وكان في بيت المال نحو خمسمائة الف دينار ، وفي خزانة السيدة مخارق مليون دينار ، وفي خزانة العباس بن المستعين نحو ستمائة الف دينار وبقيت هذه السيدة بسامراء كالسجينة الى أن خلع المستعين نفسه ببغداد فبعث المعتز بها وبأبنته وعياله اليه ، ثم قتل المستعين سنة252 وبقيت السيدة مخارق بعد قتل أبنها ولم يأتي ذكرا عن وفاتها واخبارها بعد هذا.

السيدة فريدة صاحبة الواثق بالله وزوجة المتوكل على الله

أول ما يسمع بتاريخ العرب بأسم فريدة يدرك بأنها جارية من الجواري لا من الحرائر حرة ، لأن هذا الاسم من أسماء الجواري المملوكات عند العرب وحتى أن البيوت العربية كانت لا تزال تسمي الجواري الحبشيات بفريدة ، والفريدة معناها الدرة الكبيرة فأذا سميت بها السوداء فذلك تسمية الشيء ضده .

كانت فريدة جارية بيضاء ، حسنة الوجه حادة الفطنة والفهم ، وكانت في ملك عمرو بن بانه المغني ، فأهداها الى الخليفة الواثق بالله هارون بن المعتصم ، وهي في كمالها من حيث التربية والادب والغناء ، فصارت أثيرة عنده ، حظيت كل الحظوة لديه ،وطلب الواثق الى السيدة شارية صاحبة أبيه ، أن تتم تعليمها في الغناء ، فعلمتها ولم تبق في تعليمها غاية ، الى أن حدث بينهما شيء من الخلاف بحضرة الواثق ، فأخذت شارية تقصر في تعليمها . وأغرم بها الواثق غراما شديدا ، وتعلقت هي به تعلقا عجيبا ، وكان الواثق مولعا بسماع الغناء، وكان يغني اذا أنبسطت نفسه وانشرح صدره،

وقد صنع في الغناء مائة لحن لا يوجد بها لحن رديء ، ولم يكن يحضر مجلسه من هو أعلم منه بالغناء، ولا كان أعرف منه بالغناء من الخلفاء، وكان اذا اخذ العود وغنى أتى بالعجب العجاب ، واعرب عن هوى في فن الغناء ، وبراعة في الضرب ، وكشف عن نفس عريقة في نسب الطرب وكان الواثق الخليفة ملما في الفنون ، وكان يجد في حبيبته فريدة عونا على ترجمة فنه في الغناء والموسيقى ، فكم من لحن من الحانه ، أراد عرضه على أساتذة الغناء مثل أسحق بن ابراهيم الموصلي، فلم يستطع ذلك فكان يعلمه لفريدة وفريدة تلقيه على الاساتذة من وراء الستار ويدعي أنه لحن قديم يسمع تقريظه أو أستقباحه ، ويصلح ما يسلتزم الاصلاح منه ، وله في ذلك حكاية طريفة غضب فيها على أسحاق الموصلي ،لانه وشى اليه به بأنه يستقبح ألحانه على علم منه بأنها له ، وأمر به فسحب الى مجلسه في دار الخلافة بسامراء،ولكن فريدة أقنعته بأن أسحق الموصلي مغن وصاحب فن

وصناعة وأن المؤمن بجمال الفن المتقن له، والعالم بمقاييسه ، ولا يحيد عن الحق في النقد قيد شعره ، واعلمته أن المعيد للحنه الجديد ، وهو مخارق المغني، أساء تأديته فاستبشعه اسحاق ، وما زالت به حتى رضي عن أسحق قال: هذا صوت صحيح الصنعة والقسمة والتجزئة ، وما هكذا سمعته في المرة الأولى ،وقد وفت لاسحاق حق الشفاعة بحق التلمذة لأنه كان قد صنع لها لحنا من الالحان المختارة التي كانت أغلى من الموسيقيين.

ولهذه السيدة ألحان كان يغنيها أكبر المغنيين مثل أبراهيم بن المهدي العباسي ولا سيما لحنها في أبيات أبي العتاهية التي يقول فيها:

قال لي أحمد ولم يدر ما بي   أتحب الغداة عتبة حقا

فتنفست ثم قلت نعم حبا   جرى في العروق عرقا فعرقا

لو تجسين يا عتيبة قلبي   لوجدت الفؤاد قرحا تفقاً

قد لعمري ملّ الطبيب ومل   الأهل مني مما أقاسي والقى

ليتني مت فاسترحت فأني   أبدا ما حييت منها ملقىّ

وكان بين الواثق بالله واخيه جعفر الذي لقب في خلافته بالمتوكل بغضاء وشحناء ، كما كان بين موسى الهادي وهارون الرشيد ، فكان جعفر يتربص موت الواثق كما كان هارون يتربص موت الهادي ومات الواثق بسامراء سنة 232 هجري وكانت خلافته خمس سنوات وتسعة أشهر وأياما ، ولم يتجاوز الخامسة والثلاثون . وكان قبل موته يتخيل صيرورة الخلافة الى أخيه المتوكل وتغنيه . ولقد ذكر محمد بن الحارث بن بسخنر احد اللذين كانت لهم نوبة في خدمة الواثق ، أن الواثق أرسل ذات يوم يطلبه في غير النوبة فخاف وارتاع وداخله فزع شديد ، فركب دابته حتى وافى دار الخلافة فأخذ الخدم بيده فأدخلوه في الممرات لا يعرفها ولا عهد له بها ، حتى أفضى الى دار مفروشة الصحن ، ملبسة حيطانها بالوشي،

فاذا هو الواثق جالسا في صدر الرواق على سرير مرصع بالذهب وعليه ثياب منسوجة بالذهب ، والى جانبه السيدة فريدة وعليها مثل ثيابه وفي حجرها عود ، فأمره بالجلوس وأمر له برطل من الشراب ، واندفعت فريدة تغني :

أهابــك أجــلالا ومــا بــك قــدرة علــيّ ولكــن مــلّ عــين حبيبهــا

ومــا هجرتــك الــنفس يــا ليــل انهــا قلتــك ولكــن قــل منــك نصــيبها

فجاءت بغناء سحري وجعل الواثق يجاريها وهي في خلال ذلك تغني، الصوت بعد الصوت وغنى محمد بن الحارث المذكور في خلال أغانيها ، وانهم لكذلك في مسرة وغناء وحبور، ، واذا رفع الواثق رجله فضرب به صدر فريدة ضربة تدحرجت بها منها أعلى السرير وتكسر عودها ، فهربت وهي تصيح ، وبقي محمد بن الحارث كالمنزوع الروح وخاف أن تكون عينه التي جنت عليه ، واطرق الواثق ساعة الى الارض ، قال محمد بن الحارث: فاني لكذلك اذا قال لي الواثق: يا محمد فوثبت ، فقال : ويحك أرايت أغرب مما تتهيأ علينا ؟فقلت ياسيدي: والله تخرج روحي، فعلى من أصابنا بالعين لعنة الله ، فما كان السبب؟ الذنب من الذنوب ؟ فقال لا والله ولكن فكرت أن جعفر – يعني أخاه المتوكل – يجلس هذاالمجلس،ويجلس مع فريدة كما هي جالسة معي؟ فلم أطق صبرا وخامرني ما أخرجني الى ما رأيت ، قال محمد بن الحارث:فلما علمت سري عني وقلت: بل يقتل الله جعفرا يا أمير المؤمنين وتحيا أبدا ،قبلت الارض ، وقلت يا سيدي ، الله الله ارحم فريدة وأمر بردها . فقال لبعض الخدم الواقفين : من يجيء بها ؟فلم يكن بأسرع من أن خرجت وفي يدها عود وعليها غير الثياب التي كانت عليها ، فلما رآها جذبها وعانقها ،فبكت وهو بكى ،،قال محمد بن الحارث:واندفعت أنا بالبكاء معهما ،ثم قالت فريدة للواثق: ما ذنبي يا مولاي ويا سيدي ،وبأي شيءأستوجب

هذا؟فأعاد عليها ما فكر به،وهي تبكي وهو يبكي ،فقالت له: سألتك بالله يا أمير المؤمنيين ألا ضربت عنقي هذه الساعة ، وأرحتني من الفكر في هذا ، وأرحت قلبك من الاهتمام بي ، وكانت هي تبكي وهو يبكي ، ثم مسحا أعينهم ورجعت الى مكانها ، وقال محمد بن الحارث: وأومأ الواثق الى خدم وقوف بشيء لا أعرفه ، فمضوا وأحضروا أكياسا فيها دنانير ودراهم ، واحضرو رزم فيها ثياب ، وجاء خادم بدرج ففتحه وأخرج منه عقدا ما رأيت قط مثل جوهر به،فألبسه فريدة وأحضرت بدرة فيها عشرة آلاف درهم وخمسة تخوت فيها ثياب ،فوضعت بين يدي، وعدنا الى أحسن ما كنا فلم نزل كذلك الى الليل ،ثم أنصرفنا وحملت معي الدراهم والثياب . وتوفي الواثق بالله فلم يكن هم المتوكل أخيه الا أن يتزوج السيدة فريدة ، فتزوجها وأمرها أن تغني ذات يوم فأبت وامتنعت وفاءا للواثق فأقام المتوكل على رأسها خادما وأمر يضرب رأسها ابدا أو تغني ،فلما أيقنت بقسوة المتوكل وصغر نفسه ولآمة طبعه أخذت تغني:

مقـــيم بالمجـــازة مـــن قنونـــا وأهلـــك بـــألاجيفر فالثمـــاد

فـــلا تبعـــد فكـــل فتـــى ســـيأتي عليـــه المـــوت يطـــرق أو يغـــادي

ثم ضربت بالعود الأرض ، ورمت بنفسها على السرير الذي كانت عليه، ومرت تركض وهي تصيح: واسيداه ، تندب سيدها الواثق ولم يظهر لها ذكر بعد هذه الحادثة الغريبة . أما ألحانها وصناعتها الفنية فمذكورة أبدا الدهر ، وأما وفاءها لصاحبها الخليفة الواثق فمن نوادر أخلاق النساء ولا سيما ذوات الفن.

وقيل برواية أخرى :

ثم ضربت بالعود الأرض ثم رمت بنفسها عن السـرير ومـرت تعـدو وهـي تصـيح واسـيداه فقـال لـي ويحـك مـا هـذا فقلـت لا أدري والله يـا سـيدي

فقال فما ترى فقلت أرى أن أنصرف أنا وتحضر هذه ومعها غيرها فإن الأمر يـؤول إلى ما يريد أمير المؤمنين قال فانصرف في حفظ الله فانصرفت ولم أدر ما كانت القصة أخبرني جعفر بن قدامة قال حدثني محمد بن عبد الملك قـال سمعـت فريـدة تغـني

أخــلاي بــي شــجو ولــيس بكــم شــجو ... وكــل امــرئ ممــا بصــاحبه

أذاب الهوى لحمي وجسـمي ومفصـلي ... فلـم يبـق إلا الـروح والجسـد النضـو

فما سمعت قبله ولا بعده غناء أحسن منه.

السيدة قبيحة
صاحبة المتوكل على الله وأم المعتز بالله

السيدة قبيحة ، صاحبة الخليفة المتوكل على الله وأم الخليفة المعتز بالله وأخيه الامير أسماعيل ، وسميت قبيحة كما سمي العبد الاسود بكافور على تسمية الشيء ضده ، فكانت جارية رومية الأصل رائعة الجمال فائقة الملاحة فسماها المتوكل { قبيحة } لحسن صورتها ، وكان المتوكل شديد الميل والاقبال عليها وغرابة أسمها سببت تصحيفة في كتب التاريخ فجاء على صورة {صبيحة وفتحية وقنيحة } . ولها في تاريخ الادب العربي أخبار أخبار جميلة،وفي تاريخ العراق السياسي أنباء خطيرة ، وفي تاريخ سامراء خاصة ذكر مستفيض ،لانها كانت من اللواتي كن أيام البلاط العباسي في سامراء والتي كانت في حينها عاصمة الدولة العباسية ،وملتقى عظماء الدنيا والخلفاء والوزراء وكبار القواد في الجيش والتجار والسياح والعلماء والآدباء ورجال السياسة وكانت رمزا للمدينة الحديثة آنذاك.

ولي صاحبها وسيدها المتوكل بن المعتصم الخلافة، بعد وفاة أخيه الواثق بسامراء سنة232 ، واختلت أمور الدولة العباسية في زمانه ، لأمور كثيرة ، وكان من أكثرها ، كثرة النفقات في القصور التي بناها بسامراء، ولم يكن بيت المال يتحمل ذلك ، ولم يبقى في حينه مال ، ومن المعلوم أن قلة المال سبب في أختلال الدولة وأن الدولة التي لا مال لها زائلة لا محالة .

على أن الادب العربي في ذلك العصر ،كان على الضد مع السياسة والحالة المالية _ في تقدم واتساع ، فقد نشأ فيه جوار شاعرات وجوار أديبات، منهن فضل ومحبوبة الشاعرتان اللتان ذاع صيتهما وأشتهر شعرهما في ذلك الوقت، قال علي بن جهم: دخلت على المتوكل ، وقد بلغني انه كلم قبيحة جاريته فأجابته بشيء أغضبه،فرماها بوسادة فأصاب عينها فأثرت فيها فتأوهت وبكت، وبكى لبكاءها أبنها المعتز بالله ، فخرج المتوكل من عندها ، وقد أصابته الحمى من الغم والهم والغضب ، قال علي بن جهم: فلما بصر بي المتوكل دعاني،واذا الفتح بن خاقان

وزيره وهو يرى بختيشوع الطبيب قارورة المتوكل ويشاوره في مرضه ،فقال لي المتوكل: يا علي،قل شعرا في علتي هذه وصف الطبيب ليس يدري ما بي،فقلت :

تَنَكَّـــــرَ حـــــالَ عِلَّتِـــــيَ الطَبيـــــب
وَقـــالَ أَرى بِجِســـمِكَ مـــا يَريـــبُ

جَسَســـتُ العِـــرقَ مِنـــكَ فَـــدَلَّ جَسّـــي
عَلـــى أَلَـــمٍ لَـــهُ خَبَـــرٌ عَجيـــبُ

فَمـــا هـــذا الَّـــذي بِـــكَ هـــاتِ قُـــل لـــي
فَكـــانَ جَوابَـــهُ مِنّـــي النَحيـــبُ

وَقُلـــتُ أَيـــا طَبيـــبُ الهَجـــرُ دائـــي
وَقَلـــي يـــا طَبيـــبُ هُـــوَ الكَئيـــبُ

فَحَـــرَّكَ رَاسَـــهُ عَجَبـــاً لِقَـــولي
وَقـــالَ الحُـــبُّ لَـــيسَ لَـــهُ طَبيـــبُ

فَـــأَعجَبَني الَّـــذي قَـــد قـــالَ جِـــدّاً
وَقُلـــتُ بَلـــى إِذا رَضِـــيَ الحَبيـــبُ

فَقـــالَ هُـــوَ الشِـــفاءُ فَـــلا تُقَصِّـــر
فَقُلـــتُ أَجَـــل وَلكِـــن لا يُجيـــبُ

أَلا هَـــل مُســـعِدٌ يَبكـــي لِشَـــجوي
فَـــإِنّي هـــائِمٌ فـــردٌ غَريـــبُ

قال علي بن الجهم : فقال لي المتوكل: أحسنت وحياتي ، يا غلام أسقني قدحا ،فجاء الغلام بقدح فشرب وسقيت الجماعه مثله ، وخرجت اليه فضل الشاعرة بأبيات أمرتها قبيحة أن تقولها عنها فقرأها فأذا هي :

لأكتمن الذي في القلب من حرق حتى أموت ولم يعلم بـه النـاس

ولا يقال :شـكا مـن كـان يعشـقه ان الشكاة لمـن تهـوى هـي اليـأس

ولا أبـوح بشـيء كنـت أكتمـه عند الجلوس اذا ما دارت الكـاس

فقال المتوكل :أحسنت يا فضل .قال علي بن الجهم :وأمر لها بعشرين الف درهم ، ودخل الى قبيحة جاريته فأسترضاها .

وقال يزيد بن المهلبي الشاعر : كنا عند المتوكل يوما وقد غاضبته قبيحة ،فخرج الينا فقال: من ينشدني منكم شعرا في معنى غضب قبيحة عليّ،واحتاجي أن أخضع لها حتى ترضى؟ فقلت :لقد أحسن محمد بن حازم الباهلي – يا أمير المؤمنين – حيث يقول:

صفحتُ برغمي عنكَ صفحَ ضرورةٍ إليـكَ وفي قلـبي نـدوبٌ مـن العتـبِ

خضـعتُ ومـا ذنـبي إنْ الحـبُّ عزَّنـي فأغضـيتُ صـفحاً في معالجـةِ الحـبِّ

ومـا زالَ بـي فقـرٌ إليـكَ منـازعٌ يـذلِّلُ منّـي كـلَّ ممتنـعٍ صـعبِ

إلى الله أشـكو أنَّ ودّي محصَّـلٌ وقلـبي جميعـاً عنـد مقتسـمِ القلـبِ

فقال المتوكل : أحسنت وحياتي يا يزيد ، وأمر ان يغني في هذا الشعر،وأمر لي بالف دينار . وهذه الحكاية شبيهة بحكاية علي بن الجهم ،تدل على أن قبيحة كانت كثيرة التجني على المتوكل . وحكى أحد الرواة قال: غضبت قبيحة مرة على المتوكل وهاجرته ، فجلس ودخل الجلساء والمغنون ، وكان فيهم عبد الله بن العباس الربيعي المغني، وكأنه عرف الخبر فقال هذا الشعر وغنى به:

لست مني ولست منك فدعني وامض عني مصاحبا بسلام

لم تجد علة تجني بها الذنب فصارت تعتل بالأحلام

فاذا ما شكوت ما بي قالت: قد رأينا خلاف ذا في المنام

قال : فطرب المتوكل وأمر له بعشرين الف درهم ، وقال له : أن حياتك يا عبد الله لأنسا وجمالا ، وبقاء للمروءة والظرف.

وذكر أحمد بن أبي فنن قال: خرجت قبيحة مرة الى مجلس المتوكل في يوم نيروز ، وبيدها كأس بلور بشراب صاف ،فقال: ما هذا – فديتك- قالت : هديتي لك في هذا اليوم ،عرفك الله بركته ،فأخذ الكأس من يدها ،فرأى على خدها مكتوبا بالمسك (جعفر) وهو أسمه فشرب الكأس وقبل خدها ، وكانت فضل الشاعرة واقفة على رأسه فقالت:

وكاتبة بالمسك في الخد {جعفرا} بنفسي سواد المسك من حيث أثرا

لئن أثرت بالمسك سطرا بخدها لقد أودعت قلبي من الحزن أسطرا

فيا من الملوك لملك بيمينه مطيع له فيما أسرّ وأظهر

ويـا مـن مناهـا في السـريرة جعفـر   سـقى الله مـن سـقيا ثنايـاك جعفـرا

فأمر المتوكل عريب المغنية فغنت هذه الابيات ، وقيل أن هذه الأبيات لمحبوبة الشاعرة ، وأن فضل الشاعرة قالت:

سـلافة كـالقمر البـاهر   في قـدح كالكوكـب الزاهـر،

يـديرها خشـف كبـدر الـدجى   فـوق قضـيب أهيـف ناضـر

علـى فتـى أروع مـن هاشـم   مثـل الحسـام المرهـف البـاتر

ولما سجن المتوكل علي بن الجهم الشاعر نظم أبياتا يستعطفه بها ووجه الى السيدة قبيحة مستجيرا بها ، مستغيثا لها،مستعينا اياها،على عدة ندماء للمتوكل كانوا يحرضونه عليه ، ويغرون بقتله ،فبعثت قبيحة بالأبيات ابنها المعتز الى أبيه المتوكل ،فعطف على علي بن الجهم بعض العطف وآمنه من الهلاك ،في تلك الايام التي كان بها الهلاك فيها ينصب على الانسان من حيث لا يعلم .

ولثلاث ليال من شوال سنة 248 قتل المتوكل سيد قبيحة بسامراء . قال شمس الدين بن خلكان في ترجمة المتوكل في كتابه { وفيات الأعيان} وكان السبب في قتل المتوكل على ما روي- أنه قدمّ أبنه المعتز على أبنه المنتصر ، والمنتصر أكبر سنا ، وكان يتوعد المنتصر ويسبه ويسب أمه حبشية ، ويأمر اللذين يحضرون مجلسه من أهل السخف بسبه، فسعى المنتصر في قتله ، قلت وارتكب المنتصر مع الآمراء والأتراك أمرا فظيعا شنيعا من حيث الاخلاق ، لأن من التردي حمأة النذالة والسفالة، أن يقتل الأنسان أباه كان من يكون .

ولقد أهتمت قبيحة في تربية أبنها المعتز وتهذيبه وتأديبه وتعليمه ، من أيام خلافة أبيه ، قال أبو جعفر أحمد بن عبيد بن ناصح الكوفي النحوي،مؤدب المعتز ومعلمه :لما أراد المتوكل أن يعقد للمعتز ولاية العهد أنزلته عن مرتيته قليلا

،وأخرت غداءه من وقته ،فلما كان وقت الانصراف قلت للخادم: أحمله و فحمله فضربته من غير ذنب، فكتب الى المتوكل ، واذا كنت بالطريق منصرفا لحقني صاحب الرسالة ، فقال: أمير المؤمنين يدعوك، الى مجلسه، فدخلت على المتوكل وهو جالس على كرسي والغضب يبين من وجهه والفتح بن خاقان وزيره قائم بين يديه متكئا على السيف ، فقال لي: ما هذا الذي فعلته ربأبي عبد الله- يعني أبنه المعتز- ؟ قلت :أأقول يا أمير المؤمنين ؟فقال: قل أنما سألتك لتقول ،قلت بلغني ما عزم عليه أمير المؤمنين – أطال الله بقاءه- فدعوت أبا عبد الله وحططت من منزلته ، ليعرف هذا المقدار من الحط فلا يعجل بزوال نعمة أحد، وأخرت غداءه لك صالح بن وصيف) فأرسل المعتز الى امه قبيحة يسألها أن تعطيه مالا ليعطيهم أرزاقهم ، فأرسلت اليه تقول (ما عندي شيء وقد وردت لنا سفاتج فلينتظروا حتى نقبض ونعطيهم) فعلت ذلك لبخلها وشحها ، وأبت أعطاء شيء مع علمها بأن حياة أبنها متوقفة على المال . فلما رأى الاتراك ومن كان بسامراء من الجند المغاربة ان بيت المال خال ، وأن الخليفة المعتز وأمه قد أمتنعا من أن يسمحا لهم بشيء من المال ، أجتمعوا على خلع المعتز من الخلافةو ولثلاث ايام بقين من رجب سنة 255 حضروا دار المعتز بصياح وخلاف ، وجلس رؤساءهم على باب داره، وبعثوا اليه أن يخرج اليهم ، فبعث اليهم بجواب يقول فيه:(اني أخذت دواء أمس وقد أجفلني اثنتي عشرة مرة ، ولا اقدر على الكلام من الضعف، فان كان أمرا لا بد منه فليدخل اليّ بعضكم فليعلمني ، فدخل اليه جماعة من صغار القواد فجروا برجله ، بعدما تناولوه بالضرب بالدبابيس ، فخرج الخليفة فقميصه ممزق ومخرق وآثار الدم على منكبيه ، فأوقفوه بالشمس وسط الدار في وقت شديد الحر ، قال أحد أسباب الخليفة أي محسوبية : فجعلت أنظر الى الخليفة المعتز يرفع قدميه ساعة بعد ساعة ، من حرارة الموضع الذي أقيم فيه ، ورأيت بعض يلطمه وهو يتقي بيده، وجعلوا يقولون له أخلع الخلافة ، حتى أجبر على خلع الخلافة نفسه، وأعطوه الامان لأمه قبيحة ولاخته ولابنه ، ولكنهم وكلوا بأمه نساء يحفظنها من نية أن يستخرجوا منها الامول ، وبايع الاتراك بالخلافة محمد بن الواثق وتلقب بالمهتدي بالله وهو زاهد بن العباس ، ودفع الخليفة المعتز الى عدة رجال يعذبونه ويمنعون عنه الأكل والشراب

ثلاثة أيام ، فطلب حسوة من ماء البئر فمنعوه ، ثم جصصوا سردابا بالجص الثخين ،وأدخلوا فيه وأطبقوا عليه بابه فأصبح ميتا ، وكانت وفاته لليلتين خلتا من شعبان من هذه السنة أي سنة 255 .

أما أمه قبيحة أتخذت من الدار التي تسكن بها سربا أي طريقا تحت الارض، وأحتالت هي والجارية (قرب) وأخت المعتز فهربن من السرب ، واختفين في سامراء، وبث صالح بن وصيف على قبيحة العيون أي الجواسيس والأرصاد ، فلم يظفر بها ثم ظهرت من قبل نفسها في شهر رمضان من السنة المذكورة ، وسلمت نفسها الى الأتراك، ودلتهم على الاموال التي عندها ا والذخائر والجواهري التي أدخترها ،وكانت في الحقيقة قد عزمت على الفتك بصالح بن وصيف، وآمرت الكتاب على ذلك وكتبت الى موسى بن بغابالري تسأله القدوم الى سامراء وترك ما قبله من البلاد ، فلما أوقع صالح بالكتاب – كما ذكرنا في أول الاخبار- وعلمت أنهم أقروا له بالمؤامرة ، بسبب ما نالهم من العذاب أيقنت بالهلاك، فعملت في التخلص فأخرجت ما في الخزائن داخل قصر الجوسق بسامراء من الاموال والجواهر وفاخر المتاع فأودعته ودائع، وضمتها الى ودائع قديمة ، ثم أظهرت للأتراك ، ودلهم أحد الجواسيس على كنز لها كان في دار صغيرة ،قريبة من المسجد الجامع بسامراء. قال أحد أصحاب صالح بن وصيف :جاء بنا ذلك الرجل الجاسوس الى دار صغيرة نظيفة بحضرة المسجد الجامع ، فدخلناها ففتشناها فلم نجد شيئا ،فأخذ الرجل فأسا فجعل ينقر بها بالحيطان ، حتى وقعت الفأس على موضع أستدل بصوته على أن فيه شيئا ، فهدمه واذا من ورائه باب ففتحناه ودخلنا اليه ،فأفضى بنا الى سرب وصرنا الى دار تحت الدار التي دخلناها ، بشكل وبنائها ، فوجدنا من الدنانير في أسفاط موضوعة على رفوف زهاء الف الف دينار أي مليون دينار ، ووجدنا ثلاث أسفاط : سفطا فيه زمرد من النوع الغالي ، وسفطا فيه حب اللؤلؤ كبار،وسفطا دونه فيه ياقوت أحمر لم أر مثله في الدنيا فقومّ الجميع أي قدرت قيمته فبلغت الفي الف دينار أي مليوني دينار ، فحملناه كله الى صالح بن وصيف، فلما رآه جعل لا يصدق ولا يوقن ، حتى تأمله ودقق النظر فيه،فقال عند ذلك:

قبح الله قبيحة وفعل بها وفعل، وعرضت أبنها للقتل في مقدار خمسين الف دينار وعندها مثل هذا في خزانة واحدة من خزائنها!

وكان لقبيحة أموال ببغداد فكتبت تأمر بحملها الى سامراء لتعطيها لصالح بن وصيف ، فوصل منها في شهر رمضان المبارك قدر خمسمائة الف دينار ، ووقعوا لها على خزائن ببغداد فحملت مقادير منها الى سامراء ، ولم تزل تباع تلك الخزائن بيعا متصلا ببغداد وسامراء عدة شهور حتى نفذت ، ولم تزل قبيحة مقيمة في سامراء الى أن شخص الناس الى مكة حاجين في هذه السنة ، فأشخصت هي وابنها الثاني اسماعيل وحفيدها عبد الله بن المعتز وجماعة غيرهم الى مكة مبعدين ، والظاهر أن صالح بن وصيف لم يكتف بكنوزها بل تجاوزها الى الاعتداء على عفافها قاتله الله – فقد سمعت تقول في طريقها الى بيت الله الحرام وتدعي عليه وتقول { اللهم اخزي صالح بن وصيف كم هتك ستري وقتل ولدي، وبدد شملي وأخذ مالي وغربني عن بلدي وركب الفاحشة مني} وبقيت قبيحة بمكة ، مع جماعتها منفية حتى أعادها الى سامراء الخليفة المعتمد على الله أحمد بن جعفر المتوكل وكان ذلك في أول خلافته ، وأكرمها فهي صاحبة أبيه ، ثم قتل صالح بن وصيف سنة 256 .

وقضيت السيدة قبيحة بقية عمرها في سامراء حتى توفيت بها في شهر ربيع الاول سنة 264 هجري في خلافة المعتمد على الله المذكور آنفا ، ودفنت هناك ، تاركة للتاريخ سيرة سيدة جميلة قاسية القلب مترفة سياسية ، أمتحن الدهر بها وامتحنها ، ورزأها القدر صاحبها المتوكل وأبنها المعتز وعرضها وأموالها وكنوزها ، وقد ذكرها لها المؤرخون ذوقا في البناء ، قال أحمد بن حمدون : بنى المعتز في قصر الجوسق في الصحن الكامل بسامراء بيتا قدرته له أمه قبيحة ومثلث حيطانه وسقوفه، فكان أحسن بيت رأيته ، فدعانا المعتز اليه ، الى آخر الخبر مما لا يخرج عن السكر والغناء ، ويعنينا منه انها هي التي نظمت خارطته وصورته ،فبرهنت على حسن ذوقها في العمارة .

فضل صاحب المتوكل

كانت فضل من النسو الخوالد، ذوات الآثار الكريمة والاخبار الطريفة والآداب البارعة . ولئن جاز للتاريخ أن يتغاضى عنها من حيث هي سيدة من سيدات العباسيات ، لئن تاريخنا تاريخ رجال ، لم يجيز له أن يتغاضي عنها من حيث أدبها الرفيع وشعرها الشاعر وروحها الخفيفة ، وفصاحتها المحكمة وبديهتها الحاضرة في النظم والنثر .

ولدت فضل في اليمامة في القسم الشرقي الجنوبي من جزيرة العرب،ونشأت هناك في قبيلة عبد القيس ثم نقلت الى العراق مثل الكثير من الجواري المولدات اللواتي ثقفن بالثقافة العربية ، وأدبن بالآداب الاسلامية وتربت على على الفصاحة والبلاغة وتدربت على الانشاء والايقاع والعزف والغناء ، كل على حسب قابليتها للطبيعة وملكتها المكتسبة وهواها وولعها .

أشتراها بالعراق محمد بن الفرج الرجخي، من أعيان الدولة العباسية،، أشتراها على أنها أديبة ،شاعرة ، وكاتبة رائعة ، وهذه الصفات بل الخصائص كانت ترفع في سعر الجارية ، ويجعلها مطلوبة ومرغوبة ومحبوبة ، ثم أهداها الرجخي الى الخليفة المتوكل على الله،وكانت دار خلافته في سامراء ، وكانت دار عظيمة فخمة فيها قور القصور ولا سيما القصر الجعفري المنسوب الى أسمه{جعفر} وكذلك المدينة التي بناها عند القصر ، فأنها أصبحت أكبر من سامراء وهي المدينة المتوكلية ، واذ كان المتوكل قد نهى الرعايا عن الخوض في الجدال والمماراة في المذاهب الدينية والمناظرات في القرآن الكريم ، كثر الانصراف الى اللهو والأدب والشعر والغناء وأتخاذ الجواري الادبيات والشاعرات والمغنيات في البلاط العباسي نفسه خاصة ، لأن محل الخليفة يجب أن يكون فيه من شواغل الاجسام والارواح وملاهي النفوس ومزاجيات الاوقات . فلم يكن غريبا أن يكون في القصر المتوكلي مثل(فضل) الشاعرة والكاتبة الظريفة ، (ومحبوبة) الشاعرة المحبوبة المطبوعة الجميلة المغنية وأن لم يكن غناءها من الدرجة الاؤلى . وهاتان الشاعرتان تذكران معا دائما ، قال عبد الله بن المعتز:- وهو من اعلام الشعر والأدب- قال لي ابراهيم بن المهدي: كانت

فضل الشاعرة من أحسن خلق الله حظا وأفصحهم كلاما وأبلغهم في المخاطبة وأثبتهم في المحاورة ،وقال بن المعتز أيضا: كانت تهاجي الشعراء ويجتمع عندها الأدباء ولها في الخلفاء والملوك مدائح كثيرة .

قال بعض المؤرخين : لما دخلت على المتوكل يوم أهدائها اليه قال لها : أشاعرة أنت يا فضل ؟ قالت كذا يزعم من باعني ومن أشتراني يا أمير المؤمنين . فضحك المتوكل وأدرك رقة طبعها ثم قال:أنشديني من شعرك يا فضل ،فقالت:

أستقبل الملك امام الهدى عام ثلاث وثلاثينا

خلافة أفضت الى جعفر وهو ابن سبع بعد عشرينا

انا لنرجو يا امام الهدى أن تملك الأمر ثمانينا

لا قدسّ الله أمرا لم يقل عند دعائي لك آمينا

فقال المتوكل لعلي بن الجهم السامي الشاعر:وكان حاضرا مجلسه – قل بيتا . وطلب من فضل الشاعرة أن تجيزه فقال علي: أجيزي يا فضل :

لاذ بها يشتكي اليها فلم يجد عندها ملاذا

فأطرقت هنيهة ثم قالت:

ولم يزل ضارعا اليها تهطل أجفانه رذاذا

فعاتبوه فزاد عشقا فمات وجدا فكان ماذا؟

فطرب المتوكل – وحق له أن يطرب – وقال أحسنت وحياتي يا فضل وأمر لها بالفي دينار جائزة لها.

وكان ذلك امتحانا لها لأن النظم في الحال والاجازة على حسب الطلب – أعني اتمام الشعر الناقص المعنى– يدلان على الملكية الشعرية وقوة البديهة والقدرة على النظم ، فمن لم تكن له ملكة أدبية قصرّ وبان عجزه.

دخلت فضل بذلك الامتحان العسير بلاط المتوكل وصارت من سيدة السيدات ، وكانت السيدة قبيحة الرائعة الجمال اول سيدات البلاط العباسي ، وكان شعر فضل بضاعة أدبية تعرض عند الطلب وتصان وتحفظ عند كساد السوق.

كنا ذكرنا بأن السيدة قبيحة أمرت فضل الشاعرة أن تنظم أبياتا على حسب هواها ، لتكون وسيلة لها الى ترضي المتوكل بعد اعراضه عنها في حادثة جرت بينهما ، فنظمت قولها:

لأكتمنّ الذي في القلب من حرق ... حتى أموت ولم يعلم به الناس

ولا يقال شكا من كان يعشقه ... ان الشكاة لمن تهوى هي الباس

ولا أبوح بشيء كنت أكتمه ... عند الجلوس اذا ما دارت الكاس

وبعد قتل المتوكل سنة 247 هجري تفرقت جواريه فمنهن من وجدت في هلاكه بؤسا وحرجا كمحبوبة ومنهن من وجدت فيه خلاصا وفرجا مثل فضلى فأنهاأطلقت حبها المزموم وباحت بغرامها المكنوم ،لعاشقها سعيد بن حميد الكاتب المشهور وكان هذا الرجل من أشد الناس بغضا لللعلويين واعراضا عن أهل البيت، وكانت فضل على العكس متشيعة متعصبة لأهل مذهبها تقضي حوائجهم بجاهها ، فتركت من أجل حبه مذهبها وصدفت عن قديم طريقتها وهكذا كان النصر والفوز للحب والغلبة للقلب على اللب والظفر للمشرب على المذهب.

وبعد هذا العشق التهبت عاطفة فضل الشعرية واسترسلت ملكتها الأدبية فما في حوافز الأدب حافز أقوى من الحب ، وأتت بالبارع من النظم والنثر اللذين جعلا قلبها معروضا على راحتها فلا كتمان ولا اخفاء ولا مداهنة ولا أستحياء ،

ولقد ظن معاصروها ان صاحبها سعيد بن حميد كان يكتب لها رقاعها ببلاغته المعروفة ، مع انها كانت أكتب وأبلغ وأشعر وأدب، كيف لا وقد قيل أن سعيد بن حميد كان يغير على نفيس كلام الناس فيجعله في رسائله ولو قيل لكل جملة من رسائله: ارجعي الى صاحبك لم يبق له منه شيء . قال ابراهيم بن المهدي : قلت لسعيد بن حميد ذات يوم : أظنك يا أبا عثمان تكتب لفضل رقاعها وتفيدها وتخرجها فقد أخذت طريقتك في الكلام وسلكت سبيلك . فقال لي وهو يضحك : ما أخيب ظنك ! ليتها تسلم مني: انني لآخذ كلامها ورسائلها ، والله يا أخي لو أخذ أفاضل الكتاب وأماثلهم عنها ما أستغنوا عن ذلك.

وكان يحدث بينهما ما يكون بين المتعاشقين من الدلال خوف الملال وتجني الذنوب لاغراء المحبوب ،أو لامتحان القلوب ومن تكلف الهجر لاختبار الصبر،فقد ذكروا أن سعيد بن حميد كان ذات يوم في مجلس الحسن بن مخلد الكاتب بسامراء فجاءه الغلام برقعة فضل الشاعرة تذكر فيها شدة شوقها. فقرأها وضحك.وقال : قد وحياتي ملحت فضل ،فأجب وحقيأنت بكلام مليح. فكتب اليها سعيد:

يا واصف الشوق عندي من شواهده ... قلب يهيم وعين دمعها يكف

والنفس شاهدة بالود عارفة ... وأنفس الناس بالأهواء تأتلف

فكن على ثقة مني وبينه ... أني على ثقة من كل ما تصف

وذكر محمد بن السرى أحد اصحاب سعيد بن حميد وهو في دار الحسن بن مخلد في حاجة لي وبينما كنت هناك جاءته رقعة من فضل الشاعرة وفيها هذان البيتان:

الصبر يقضى والغرام يزيد ... والدار دانية وأنت بعيد

أشكوك أم أشكو اليه فانه ... لا يستطيع سواهما المجهود

وتحت البيتين تقول{ يا أبا عثمان أنا في حال التلف ولم تعدني ولا سألت عن خبري} . قال محمد بن السري : فأخذ سعيد بيدي ومضينا اليها فسأل عن خبرها فقالت: هوذا أموت وتستريح مني . فأنشأ يقول:

لا مـــتّ قبلـــي أحيـــا وانـــت معـــا ولا أعـــيش الى يـــوم تموتينـــا

لكـــي نعـــيش بمـــا نهـــوى ونأملـــه ويـــرغم اللـــهفينا أنـــف واشـــينا

حتـــى اذا قـــدر الـــرحمن نيتنـــا وحـــان مـــن أمرنامـــا لـــيس يعـــدونا

متنـــا جميعـــا كغصـــني بانـــة ذبـــلا مـــن بعـــد مـــا نضـــرا واستوســـقا حينـــا

ثـــم الســـلام علينـــا في مضـــاجعنا حتـــى نعـــود الى ميـــزان منشـــينا

السيدة شغب أم المقتدر بالله

أن حياة هذه السيدة حافلة بالقصص والأعمال ، ولم تكن سيرتها بأقل شأنا من سير كبرى النساء في ذلك الوقت، من ملكات وحاكمات ومشاركات في الحكم.

كانت السيدة شغب في أول حياتها جارية لاحدى النساء الكبيرات ببغداد ،ثم تملكها الخليفة أبو العباس أحمد المعتضد بالله ابن ولي العهد الموفق طلحة ، وكان يقال لها {ناعم} لثماني ليال بقين في شهر رمضان المبارك سنة 283 ، ولدت للمعتضد أبنا سماه{ جعفرا} ، وهو الذي لقب بالمقتدر بالله حين ولي الخلافة ، ولما ولدته غير المعتضد أسمها وسماها (شغب) ، وكانت ولادتها ولدا ذكرا شغبا وتحريضا ، بالاضافة الى نساء الخليفة المعتضد، وتوفي المعتضد عنها في سنة 289 ، وولي للخلافة بعده أبنه المكتفي بالله ولبث في الخلافة حتى سنة 295 ، فتوفي فيها وهو آخر الخلفاء الحازمين في عصر نهضة الدولة العباسية بعد كوكبتها الأولى ، وولي للخلافة بعده أخوه أبو الفضل جعفر بن السيدة شغب، وهو أبن ثلاث عشر سنة وشهر واحد وأيام وكان أصغر من تولى الخلافة من بني عباس ،ولذلك أراد المتأمرين التلاعب بالخلافة فخلعوه مرتين فلم يفلحوا ، وفي خلافته ظهر شأن والدته شغب ، وعلا أمرها وتحكمت في الدولة ، وأدارت أمور الدولة على تدبيرها وتدبير القهرمانات ، وغيرهن من النساء ، فأصابها اضطرابات كثيرة وجرها سوء التدبير الى سوء العاقبة كما هو مفصل في كتب التاريخ.

وصارت شغب في عهد أبنها المقتدر لا تعرف الا بالسيدة ، فكان القائل اذا قال (أمرت السيدة) علم أنها شغب أم المقتدر ، وكذلك ورد أسمها في التواريخ ، واتخذت لنفسها ديوانا يقوم بأمره كاتب كالوزير ، وأول كاتب ولته ديوانها هو العباس بن الحسن ، وكان أبوه أبو العباس بن الحسن وزير المقتدر ، وجعلت لنفسها قهرمانة آي حاكمة ، وبعد عدة أشهر خلع أبنها المقتدر ، وبويع بالخلافة عبد الله بن المعتز الأديب الشاعر المشهور ، الا أن حزب المقتدر لم يذعنوا لهذا الخلع، وقاتلوا حزب عبد الله بن المعتز ففرقوهم لأنهم لم يكن لهم أموال يجذبون

بها القلوب ويصلحون بها الامور ضد المقتدر فأن معهم يوسف بن انبخاس وهارون بن عمران اليهوديين الصيرفيين ، وحزب المال هم الغالبون ، وبقي المقتدر في الخلافة وقتل عبد الله بن المعتز ، وتعاظم حكم السيدة شغب في الدولة ، وكان لها أخ أسمه (غريب) ويعرف بغريب الخال أي خال المقتدر ، فتمكن بالدولة أيضا ، وصار أبنه هارون من أعظم قادة الجيوش فيها.

وفي سنة 306 أمرت السيدة شغب قهرمانتها وأسمها (ثمل) أن تجلس بالرصافة قرب مدفن الامام أبو حنيفة ، وتنظر في مظالم الناس وشكاويهم من الحكام والمتولين ، وجعلت ذلك كل يوم جمعة ، فأنكر الناس أن تحكم بينهم امرأة ، واستبشعوا في ذلك السيدة شغب وعابوا عليها ، ولكن ثمل القهرمانة أحضرت معها القاضي ، فكانت تستشيره في الاحكام ، فسار أمرها على سداد واستقامة ، وانتفعوا بذلك المظلومين ، وترك الناس أستنكارهم وطعنهم ، وأيقنوا أن العدل هو المنشود لا الذي يقيمه من ذكر وأنثى وأبيض وأسود.

وفي هذه السنة أعني 306 الهجري من محرم أنشاءت السيدة شغب مارستانا أي مستشفى بسوق يحي على شط دجلة على مقربة من المحلة المعروفة بمحلة السفينة في الأعظمية ، وجعلت أمره الى الحكيم سنان ابن ثابت الصابي – أي الصبي- ، فجلس به ورتب الأطباء اللذين يعالجون فيه المرضى ، وكانت النفقة عليه كل شهر ستمائة دينار ، وأشار سنان الصابي على المقتدر أن يتخذ مارستان بأسمه ، فأنشا مارستانا بباب الشام فعرف بالمارستان المقتدري ، وكان في باب الشام غربي الشالجية ، وكان على نفقته الشهرية مائتي دينار ، ولم يكن أحسان السيدة شغب محدودا بمثل هذه الامور النافعة ، بل كانت تتصدق كثيرا وتحبس الاوقاف على المصالح الخيرية ، وتواظب على مصالح الحجاج وتبعث مع قافلتهم بخزانة شراب للمرضى ، وترسل الأطباء لمعالجتهم ، وتأمر باصلاح الأحواض في الطريق ، وكان يرد خزانتها من أملاكها مليون دينار في كل سنة ، والاحسان وأن كان من السياسة فأنه جزء ضئيل منها.

وقد حاولت هذه السيدةفي سنة 316 أن تقتل مؤنسا المظفر مقدم الجيوش العباسية ،فوصل اليه أنها قد وضعت له جماعة ،ليفتكوا به اذا دخلوا دار الخلافة ، وهي كا ذكرنا أن ارضها أرض سوق المنتصر عرفت فيما بعد ، فأستوحش مؤنس المظفر واحترس ، وطلب من الخليفة الخروج الى الثغور وترك الاقامة ببغداد ، فأذن له الخليفة ولكن حالت بينه وبين ذلك الحوادث وتغير قلبه بعد ذلك ، حتى بلغ التغيير أنه حارب الخليفة وقتله- كما هو معروف في التاريخ- ولما أراد المقتدر أن يخرج في سنة 320 الى حرب مؤنس المظفر بالشماسية وهي محلة الصليخ التي عرفت فيما بعد ،جزعت أمه وجهدت به ألا يخرج وكشفت عن ثديها – على عادة النساء في المصائب- وبكت، فغلب القضاء ونزل البلاء ، وخرج المقتدر هناك وولي للخلافة بعده أخوه ابو منصور محمد بن أحمد المعتضد ولقب بالقاهر بالله.

وقيل : لما أراد المقتدر الخروج الى حرب مؤنس المظفر قال لأمه شغب :قد ترين ما وقعت فيه وليس معي دينار ولا درهم ، ولا بد من مال يكون معي،، فأعنيني بما معك من المال ، فقالت له (قد أخذت مني يوم سار القرمطي الى بغداد ثلاثة آلاف دينار وما بقى لي معي ذخيرة الا ماترى) وأحضرت له خمسين الف دينار فقال لها المقتدر : وأي شيء تعنيني هذه الدنانير ، وأي مقام تقوم لي هذه الخمسون الفا في عظيم ما أستقبله؟) ثم قال لها : (أما أنا فخارج كيف كنت وعلى ما أستطعت ، ولعلي أقتل فأستريح ، ولكن الشأن فيمن تبقى بعدي، ويقبض عليها وتعذب ، وتعلق في هذه الشجرة تعليقة دراجية) وأشار الى شجرة كانت في بعض دور الخلافة . قالت ذلفاء: المنجمة وكانت على اتصال بالمقتدر ونسائه (فوالله لقد قبض على شغب وعلقت في تلك الشجرة بعينها) على أن السيدة شغب لم تكن كاذبة فيما قالت لأبنها ، ولم تكن كالسيدة قبيحة ، التي أعانت ببخلها على قتل ولدها المعتز ، وكان الخليفة القاهر بالله العباسي هو الذي أمر لها بسوء العذاب وطالبها بالاموال ، وكان قد قرر الرفق بها والتهديد ، فحلفت له لا مال عندها ولا جوهر ، الا صناديق فيها ثياب ومصاغ وطيب ، وذكرت انها لو كان عندها مال ما عرضت أبنها للقتل فضربها وعلقها منكسة برجل واحدة على الشجرة وكان البول يجري عل وجهها – لا حياء في التاريخ من شيء حدث – ولم

يجد عندها غير ما أقرت به وقيمته مئة وثلاثون الف دينار وذلك التعذيب يدل على وحشية القاهر بالله وفظاظة نفسه وغلظ قلبه ، فقالت له: (لو كان معي مال ماجرى في أمرنا من الخلل ما آل الى جلوسك حتى تعاقبني هذه العقوبة ، وأنا أمك في كتاب الله وقد خلصتك من أبني تشير الى محاولة حاولها قواد الجيش سنة 316 لخلع المقتدر ،وتولية القاهر للخلافة ولكن محاولاتهم بأءت بالفشل ، ثم أحضر القاهر اليها الشهود ليشهدوا عليها بأنها وكلته في بيع أملاكها ، ووقفت هي وراء الباب ، فلم يقتنع الشهود بذلك بل أرادوا رؤيتها بأعينهم ،على وفق ما أوجبته الشريعة الاسلامية ، فخرجت اليهم وتكلمت معهم وقال أحدهم: رأينا عجوزا دقيقة الجسم سمراء اللون الى البياض والصفرة ، عليها آثر الضر الشديد ، وكانت قبل ذلك قد مرضت وفسد مزاجها ، ثم أصابتها مصيبة قتل أبنها وبقائه بالعراء غير مدفون ، وامتنعت عن الاكل والشرب حتى كادت تموت ، فما زالوا يرفقون بها حتى أكلت كسرة خبز بملح، وكان الامير علي بن يلبق قد التزم بجانبها ، فطلب من القاهر بالله بأن يسلم له ما بقي في يده من متاع السيدة شغب فسلمه اليه وباعه ، ونقل السيدة شغب الى بيت والدته ،فبقيت في بيت والدته مكرمة المثوى مكرمة عشرة أيام ثم توفيت وكانت وفاتها بعد قتل ابنها بسبعة اشهر وثمانية ايام ، ودفنت بالرصافة بالجانب الشرقي من بغداد .

ولهذه السيدة أخبار كثيرة جمعت بين الغرابة والطرافة ، وكانت في قضية الحسين بن منصور الحلاج الشهير ، منعت ابنها المقتدر من الاذن بقتله، وأخرته اياما خوفا على أبنها ، لكنها لم تسطع تخليص الحلاج من القتل ، لانه ظهر في أيام القرامطة الزنادقة ومن وضع نفسه في موضع الريبة والتهمة فلا يلومنّ الا نفسه.

السيدة قطر الندى
زوجة الخليفة المعتضد بالله العباسي

هذه سيدة من السيدات العباسيات والتي أشتهرت بأسم قطرة الندى ، وكان هناك سيدتان بهذا الاسم احدهما قطر الندى بنت خماروية أمير مصر ، وقيل أسمها أسماء ولقبها قطر الندى والأخرى قطر الندى أم الخليفة القائم بأمر الله واسمها (علم) وموضوعنا هذا مقصور على قطر الندى بنت خماروية ،كما ذكرنا في بداية عنوان الموضوع.

أن هذه السيدة هي حفيدة أحمد بن طولون القائد التركي ، الذي أسس الدولة الطولونية بمصر ، وقطعها من مملكة بني العباس وأستقل بها وأبوها خماروية بن احمد بن طولون المذكور ولد بالعراق سنة250 هجري واخذه أبوه معه الى مصر ونشأ هناك وتزوج فولدت له قطر الندى ، وكانت موصوفة بفرط الجمال ووفرة العقل وحسن الأدب وكمال الخلق،وكان جدها احمد بن طولون يعد خارج الدولة العباسية ، القائمة بأسم الموفق طلحة بن المتوكل على الله وهو ولي العهد أخيه المعتمد على الله الخليفة العباسي ، ولم يكن للخليفة الا الاسم والوسم ، ولما فرغ بني عباس من أمر علي بن محمد صاحب الزنج الثائر – كان – في البصرة ونواحيها المدعي أنه الامام القائم بالحق الموعود به ، وجهوا جيوشهم نحو الاطراف العاصية كمصر وغيرها ،فخشي خماروية أن تطول الحروب والكروب بينهما ، فبادر الى المعتضد بالله العباس احمد الخليفة الجديد بالهدايا والتحف العظيمة ، وارسل بها مع تاجر من تجار بغداد الكبار أنذاك، وهو الحسين بن عبد الله المعروف بأبن الجصاص، ووصل الى بغداد سنة 289 وكان معه الهدايا ، عشرون حملا من الدنانير على البغال ، وعشرة غلمان من الخدم أي المماليك وصندوقان فيهما القماش الفاخر ، وعشرون رجلا على عشرون فرسا نجيبا ، بسروج محلاة فضة كثيرة ، ومعهم حراب حرب ، وعليهم أقبية ديباج والمناطق المحلاة ، وسبعة وثلاثون دابة بجلال مبرقشة وخمسة أبغل فارهة بسروج ولجم ، وزرافة ، وأرسل اليه بطلب يطلب فيها أن يزوج

أبنته قطر الندى من أبن الخليفة علي بن المعتضد وهو الذي ولي الخلافة بعدئذ ولقب بالمكتفي بالله ، وكان جميل الصورة أيضا ، وفي ذلك قول الشاعر:

قايست بين جمالها وفعالها ... فاذا الملاحة بالخيانة لا تفي

والله لا كلمتها ولو أنها ... كالشمس أو كالبدر أو كالمكتفي

وكان من المألوف في ذلك الوقت أن يخطب الامير رجلا عظيما لأبنته كما فعل الامير خمارويه ، فقال المعتضد للرسول(أنما أراد خمارويه أن يتشرف بنا وأنا أزيده في تشريفه : وأنا أتزوجها ، وكان المعتضد كثير الميل الى النساء وكأنه سمع بجمال قطر الندى ،فأرادها لنفسه ، وكان في تلك الايام قد خرج الى مدينة بلد فوق الموصل ، فبعث من هناك صداق قطر الندى الى خمارويه وهو مليون درهم ، مع شيء كثير من المتاع والطيب وتحف الصين والهند والعراق ، وبعث الى خمارويه خاصة كيسا من الجوهر المثمن فيه در وياقوت وأنواع من الجوهر ووشاح وتاج واكليل وقلنسوة ، وكان وصول ذلك الى مصر سنة 280 هجري وحينئذ أخذ خمارويه في تجهيز أبنته قطر الندى بجهاز يليق بعظمة الخلافة العباسية ، وكان من جملة الجهاز دكة من ذهب مركبة على اربع قطع عليها قبة من ذهب مشبك في كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من الجوهر عظيم القيمة ، ومائة هاون من الذهب وقيل هاون وأشياء كثيرة بحيث أن الفضلة التي بقيت من ثمن الجهاز كانت اربعمائة الف دينار ، فوهبها خمارويه لأبن جصاص وقيل ، بل قال له: لعل في العراق مما نحتاج اليه ليس عندنا ، فأشتراه لها بهذا المبلغ ، فلم يشتري أبن جصاص لها شيء وأخذ المبلغ . ولما فرغ الامير من جهاز أبنته قطر الندى ، أمر بأن يجعل لها في الطريق بين مصر والعراق في كل منزلة من منازل السفر ، قصر كامل وأن يكون في هذه القصور ما تستعمله على حسب عادتها في بيت أبيها ، وفي هذا الخبر شيء من المبالغة ، والظاهر انهم أرادوا بالقصور خياما فيها المنام والشراب والطعام والمغتسل ،فكانت اذا وصلت منزلة من المنازل ، وجدت فيه ما يسد حاجتها ، قال بعض المؤرخين : (وكانت قطر الندى في مسيرها من مصر الى بغداد على بعد

المسافة كأنها في قصر أبيها) وهذه مبالغة كما قلنا ، ومنهم من زعم على أن المعتضد تزوجها ليفقر أباها ويقلل من أمواله ، فلا يستطيع أن يبني دولة قوية على أن المعتضد أشترط على خمارويه أن يحمل اليه من خراج مصر مائتي الف دينار في كل سنة ، وهذا مقدار قليل على من تولى مصر فأنها معدن الاموال .

وكان مع قطر الندى عمها شيبان احمد بن طولون وخرجت من الفسطاط عمتها العباسة بنت احمد بن طولون ، فلما بلغت أخر المنطقة المصرية من بلاد الشام ودعتها ورجعت الى مصر .

وذكر المؤرخون ان أبن الجصاص التاجر أخفى كمية من جواهر قطر الندى، وأعلمها أن ذلك وديعة عنده الى وقت حاجتها اليه، ولكنه نام على الوديعة حتى وفاة قطر الندى وكثر بها غناه وثروته، الاأن ذلك سبب له محنا ونكبات في أيام الخليفة المقتدر ، فقد قبض عليه وأخذت منه الاموال الكثيرة بهذا السبب وبغيره من الاسباب.

ودخل موكب قطر الندى بغداد ، يوم الاحد لليلتين من المحرم سنة 282 ، وأنزلت في دار صاعد بن مخلد ، وكانت في الجانب الشرقي على شط فوق ارض المجيدية ، ولم نعلم موقعها على التحقيق ، وكان الخليفة المعتضد يومذاك غائبا في الموصل ، ولأربعه ليالي أخرى من شهر ربيع الآخر ، نقلت قطر الندى الى قصر المعتضد من قصر صاعد ، وكان أنتقالها في سفينة تعرف انذاك بالحراقة ومعها عدة حراقات وشذوات والشذوات هي سفينة سفن صغيرة ، وأمر المعتضد أن ينادي بجانبي بغداد ، أن لا يعبر أحد في دجلة يوم الاحد ، وامر بأغلاق ابواب الدروب التي تفضي الى الشط ، ومد على كل ممر نافذ الى دجلة شراع ومنع الناس الساكنيين على جانبي نهر دجلة أن يبقوا في أجنحة دورهم أي اليوم نقول لها -البرندات او البالكونات - لئلا يروا قطر الندى في دجلة بعد العشاء تحف بها الحراقات والشذوات ، حتى وصلت الى قصر المعتضد بالله فأخرجت اليه ، وأقام فيه يوم الاثنين ، وزفت اليه يوم الثلاثاء لخمس ليال من شهر ربيع الاول من سنة 282 وفي ذلك قال الرومي :

يـا سـيد العـرب الـذي زفـت لـه ... بـاليمن والبركـات سـيدة العجـم

أسـعد بهـا لسـعودها بـك أنهـا ... ظفـرت بما فـوق المطالـب والهمـم

ظفـرت بمـالء ناظريهـا بهجـة ... وضـميرها نـبلا وكفيهـا كـرم

شمس الضحى زفـت الى بـدر الـدجى ... فتكشـف بهمـا عـن الـدنيا ظلـم

وفي آخر السنة التي زفت فيها قطر الندى قتل أبوها خمارويه بمصر ، فقد ذبحه خدمه على فراشه ، وكان المعتضد قد بعث مع أبن الجصاص بهدايا الى خمارويه وأودعه رسالة اليه ، فخرج أبن الجصاص من بغداد فلما بلغ سامراء وصل الى المعتضد خبر موت خمارويه ، فكتب الى ابن جصاص يأمره بالرجوع، فرجع الى بغداد وأعاد معه الهدايا والرسالة.

ولبثت السيدة قطر الندى مع زوجها المعتضد حتى سنة 287 ولم تبقى معه الا خمسة سنوات، فقد توفيت في شبابها ببغداد في السبع من رجب من السنة المذكورة . ودفنت داخل قصر الرصافة وهو القصر الذي بناه المهدي العباسي ، وكانت الرصافة مجاورة لمدفن الامام أبي حنيفة – كما ذكرته بالسابق.

ومما جاء بالاخبار في أدب السيدة قطر الندى ، أن المعتضد خلا بها يوما في مجلس أفرده لها ، ولم يكن فيه أحد سواها ، فأخذه النعاس فنام على فخذها ، فلما أستثقل وأغفى وضعت رأسه على وسادة وخرجت من المجلس الى ساحة القصر ، فأستيقظ المعتضد فلم يجدها ، فأستشاط غضبا وناداها فأجابته عن قرب ، فقال لها: ألم أخل بك أكراما لك أو لم أدفع اليك مهجتي دون سائر حظاياي ، فتضعين رأسي على وسادة وتذهبين ؟! فقالت له : (يا أمير المؤمنين ما جهلت قدر ما أنعمت عليّ ولكن فيما أدبني به أبي أن قال لي : لا تنامي مع الجالسين ولا تجلسي مع النائمين)

ولم تترك السيدة قطر الندى أي آثر في العراق أو ايام الدولة العباسية حتى يذكرها التاريخ العباسي ، والذي أستنتج لنا من خلال التحقيق أنها على ما أشتهرت ممن ذاع عنها من الجمال وأدبها وأخلاقها في ذلك الزمان لم تستطع أمتلاك قلب المعتضد بالله ولا سيما دريرة جارية المعتضد بالله ، التي أشتهرت بحب المعتضد بالله أنه كان يحبها حبا جما ومفرطا ، وكان زواج قطر الندى سياسيا لا طبيعيا (أي لا دخل للقلب به) وربما كانت- تأمل وهو الحق – أن يتزوجها علي بن المعتضد فأستحوذت على أنانية المعتضد ، وجعلتها تودع الدنيا غير آسفة عليها ، وهي لم تتجاوز من العمر العشرين سنة .

خديجة خاتون السلجوقية
زوجة الخليفة القائم بأمر الله

كان أسم هذه السيدة (أرسلان خاتون) فأضافت اليه هذا الاسم تيمنا وتبركا بهذا الاسم الكريم ،أبوها هو داود جعفري بك هو أخو السلطان طغرل بك مؤسس الدولة السلجوقية ، وكان السبب في تزويجها للخليفة القائم بأمر الله رغبة في توثيق الصلة بين السجلوقيين والعباسيين ، بعد أن أستولى على العراق ، وأزال الدولة البويهية المتداعية الواهية ، وازدفر بشؤون الخلافة العباسية وباشرها نيابة عن الخليفة . وتم عقد الزواج يوم الخميس لثمانية باقية من محرم سنة 488 هجري ، وقد حضر العقد قاضي القضاة أبو عبد الله محمد بن علي الدامغاني المشهور ، وأبو الحسن المارودي البصري ، وكان أقضى القضاة ورتبة أقضى القضاة أقل مرتبة من قاضي القضاة ، وحضر كذلك عميد الملك منصور بن محمد الكندري وزير طغرل بيك ، ونقيب النقباء أبو علي بن تمام الزيني وعدنان بن الشريف الرضي الشاعر المعروف ،والامير تاج الملوك هزارسب بن بنكير بن عياض الكردي ، والأمير ابن ابي الشوك الكردي ،والامير أبو علي بن الملك كاليجار البويهي ، وعدة أمراء من الاتراك ، ووزير الخليفة أبو القاسم علي بن الحسن الملقب رئيس الرؤساء المعروف بابن المسلمة ، وهو الذي خطب خطبة الزواج ثم قال مخاطبا الخليفة (أن رأى سيدنا ومولانا أمير المؤمنين أن ينعم بالقبول فعل)، فقال الخليفة (قد قبلنا هذا النكاح بهذا الصداق) . وكان الصداق (مائة الف دينار) وقد ظل هذا الصداق مضرب الامثال ، وبدعة للجهال من أرباب الاموال وهو أعظم صداق وأعلاه في تاريخ الدولة الاسلامية ، ولقد ذكرنا في اخبار اللواتي ذكرناهم ، أن السيدة زبيدة بنت المقتفي لأمر الله وفاطمة بنت محمد بن ملكشاه السلجوقية ، والسيدة رابعة بنت ولي العهد أبي العباس أحمد بن المستعصم بالله وكان مبلغ الصداق كل منهن (مائة الف دينار) وكان ذلك أقتداء بالسيدة أرسلان خاتون — أعني خديجة السلجوقية .

وفي أوائل شعبان من السنة المذكورة أي سنة 488 ، مضى الوزير أبو القاسم ابن مسلمة ، الى طغرل بك بدار المملكة وكانت في محلة العيواضية ، كما قلنا ، وقال له (أمير المؤمنين يقول لك أن الله تعالى يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها ، وقد أذن في نقل الوديعة الكريمة الى دار العزيزة) ، فقال (السمع والطاعة للأوامر الشريفة) وكان قد نقل من دار المملكة الى دار الخلافة العباسية ، وكانت تحت شارع السموءل ، كثير من الاموال والجواهر واليواقيت وأواني الذهب والفضة ، والجنائب والبغال والعماريات وهي الكجاوات ، ونقل مع ذلك كله ثمانون جارية أبكارا مملوكات ، عليهن أقبية الديباج والمناطق المجوهرة وتحتهن الخيول المسومّة والبغال الرومية ، وست عماريات على البغال ، وعلى قبابها جواهر وغير ذلك ،هذا بعض الجهاز ، والحقيقة أن هذه السيدة كانت موعودة أن تزوج بذخيرة الدين محمد بن القائم بأمر الله ، فلما توفي وانقطع الامل بموته عدل عمها الى القائم بأمر الله والد ذخيرة الدين ، لينال المصاهرة التي يتجمل بها على الملوك وينال بها غير ذلك.

ومضت السيدة قطر الندى والدة الخليفة من دار الخليفة الى دار المملكة في الزبازب على دجلة ، وأرست الزبازب عند دار المملكة ، وأرسلت زوجة طغرل بك التونخان في نقل خديجة خاتون الى دار الخلافة ، فأرسلت بها اليها من دون أن تخرج أمها تكبرا ، وأما أنفة من هذا الزواج بين شابة وشيخ ، وهو اختلاف قانون الخلائق ، فأنحدرت الخليفة ليلا الى باب الغربة وقد ضربت على دجلة سرادقات تسير تحتها ، فدخلت دار الخلافة من باب الغربة المذكور أي باب سوق المستنصر فيما بعد عرف ، وكان مع الخاتون عميد الملك الكندري وزير الامبراطورية السلجوقية ، فحضر بين يدي الخليفة القائم بأمر الله وقبل الارض وقال : (الخادم ركن الدين طغرل بك قد أمتثل المراسم العالية في حمل الوديعة وسأل فيها كرم الملاحظة واجتناب الضيعة) ، ثم أنصرف.

وأدخلت خديجة أرسلان خاتون على الخليفة القائم بأمر الله فقبلت الارض مرارا ،فأدناها اليه وقربها منه وأجلسها الى جنبه ، وطرح عليها فرجية وهي نوع من

الملابس يطرح على الكتفين والظهر ، وكانت الفرجية منظومة بالذهب ووضع على رأسها تاجا مرصع بالجواهر ، وأعطاها من الغد مائة ثوب من الديباج ومن قصب الذهب ، وطاسة من ذهب قد نبت فيها الياقوت والفيروزج ، وعقدا من اللؤلؤ له قيمة عظيمة ، وأفرد لها من الاقطاع أثني عشر الف دينار في كل سنة .

وبقيت خديجة خاتون في دار الخلافة العباسية ، ولقبت بالجهة القائمية كناية عن السيد القائمية ، وبعد زواجها بسنتين ، حدثت بالخلافة العباسية الحادثة الكبيرة والرزية العظيمة ، من أستيلاء أبي الحارث أرسلان البساسيري القائد التركي سنة 450 ، على بغداد وأكثر لاد العراق ، وقطعه لخطبة بني العباس ، وخطبته للمستنصر بالله الخليفة العلوي الفاطمي على منابر بغداد ونواحيها ، فظفر فيمن ظفر به ، هذا القائد بالسيدة خديجة خاتون وكانت أموالها قد نهبت فالزمها واحترمها وسلمها الى أبي عبد الله بن جردة أحد أثريآء بغداد الكبار أنذاك ، ليقوم بخدمتها ،وكان ابن جردة قد ضمن لعلم الدين قريش بن بدران العقيلي أمير بني عقيل أي عرب عكيل الحاليين ، وكان مع ارسلان البساسيري ،عشرة آلاف دينار ،ليحفظ له داره ومن التجأ اليها من نهب الجند الفاتحين وسوء سيرتهم فكانت هذه المحنة حادثة كبيرة لخديجة خاتون ، فقد شهدت أسقاط الخلافة العباسية ونفي القائم بأمر الله الى حديثة عانة ، وحدثت في السنة نفسها وفاة والدها داود جغري بك خراسان ، فأشتدت المصيبة عليها وعظمت.

ولما أصعد أبو المعالي علم الدين قريش بن بدران أمير عقيل من بغداد الى تكريت ، في آخر المحرم من سنة 450 وذلك بعد نهبه المدينة أخذ معه خديجة خاتون معززة مكرمة ، ثم أرسل بها الى عمها طغرل بك مع رسول أسمه (نجدة) ، وأصحبه رساله الى السلطان المذكور يعده فيها أن برد الخليفة القائم بأمر الله ، من حديثة عانة الى عاصمة مملكة بغداد ويطلب الزلفى عنده، وكان ارسال قريش بالخاتون الى عمها بأمر أبي الحارث أرسلان ، فأنه بعث اليه يشير عليه بأنه ينفذ أرسلان خاتون الى السلطان طغرل بك ، ولما وصلت خديجة خاتون الى عمها أرسلت الى زوجها الخليفة القائم بأمر الله ، اربعين ثوبا من الانواه المختلفة وعشر

دسوت من الثياب وخمس دسوت مخيطة وعشرة آلاف دينار ، لأن حاله قد تضعضعت بعد نفيه الى حديثة عانة ، ولبثت أرسلان خاتون بعد هذه مع عمها طغرل بك الى سنة 453 ،ولكنها كانت تتفقد أحوال زوجها الخليفة القائم بأمر الله على عادتها ، فأنه لما 'أعيد الى بغداد من حديثة عانة بعثت اليه مع عمها طغرل بك بأثنتي عشر حبة من اللؤلؤ الكبار ، وطلبت الى عمها أن يقول له : أرسلان خاتون تخدم أمير المؤمنين وتسأله أن يسبح بهذه السبحة فقبلها الخليفة شاكرا.

وفي سنة 452 توفيت آلتون خاتون زوجة طغرل بك وكانت عاقلة وسيدة حكيمة وسديدة الرأي وكان السلطان يفوض أمره اليها ، على عادة الاتراك في قديم الزمان وكانت أوصته قبل وفاتها أن يتزوج أبنة الخليفة القائم لينال شرف الدنيا والآخرة ، وأوصت بجميع مالها لبنت الخليفة المنوي خطبتها المزمع زواجها ، وهذا من عظيم أخبار النساء في الاستقامة والصلاح ، وأراد طغرل بك أن ينفذ وصية زوجته آلتون خاتون ،فأرسل رسولا الى الخليفة القائم بأمر الله يخطب السيدة أبنته ، واتفق أن وصل الى طغرل بك رسول من الخليفة حمله رسالة تتضمن المطالبة باعادة أرسلان زوجته اليه ، فأرسلها طغرل بك اليه ، ورأى هذه أجابة تسهيلا لزواجه بأبنة الخليفة ، ولكن الخليفة لما علم بطلب السلطان ثقل عليه ذلك وانزعج منه ، وطال الكلام بين السلطنة والخلافة – وهذا سنذكره فيما بعد أبنة القائم بأمر الله –.

وفي شهر ربيع الآخر من سنة 453 قدمت ارسلان خاتون دار الخلافة ومعها الوزير عميد الملك الكندري ومعها الصداق والجهاز لأبنة الخليفة ، وقيل كان قدومها في جمادى الاول ،فأمتنع الخليفة من ذلك وأنكر طلبه كل الانكار ، فلما بلغ طغرل بك ذلك أرسل الى بغداد يأمر وزيره الكندري المذكور ، بنقل أرسلان خاتون من دار الخلافة الى دار المملكة جزاء بما ورد من الخليفة طلبه وكفاءة له، ولا سيما بعد أن خاطبته أرسلان في ذلك فلم يزد الا اباء، ثم كتب طغرل بك كتابا الى ارسلان خاتون ، يستعجلهافي أن تترك بغداد ويتضمن أشتياقا اليها وايثآرا لمشاهدتها ، ورسم لها فيه المسير اليه وضيق العذر عليها في التأخر ، فأمتعض

الخليفة من ذلك ثم علم أن سبب ذلك اقامته على الامتناع من تزويج أبنته بطغرل بك .

وفي سنة 454 ، أجبر الخليفة القائم بأمر الله على أن يزوج أبنته بالسلطان طغرل بك ، وجاء رسول من طغرل بك الى أرسلان خاتون ، ومعه أشياء بعث بها السلطان الى الخليفة فأوصلتها اليه ، ثم قدم طغرل بك الى بغداد فزفت اليه بنت الخليفة ومضت معها أرسلان خاتون وبعث معها طغرل بك بعقدين فاخرين وقطعة ياقوت حمراء كبيرة ، وخسرواني ذهب ، والظاهر أن الخليفة القائم بأمر الله لم يكن له هم بالنساء، أما لكثرة المصائب التي قاساها ، واما لأمر آخر كالزهد والاعتزال ، فأن أرسلان خاتون كانت تشكوا من أطراحه لها وأنه لم يقربها منذ أن أتصل بها ، فحمل ذلك عمها طغرل بك على أن يستأذن الخليفة في أن تسير معه وتبقى مدة سته أشهر ، فأبى الخليفة ذلك ، وأصر عمها على ذلك محتجا بأنها مطرحة أي معزوف عنها ، فسافرت معه .

وتوفي السلطان طغرل بك سنة454 وأرسلان خاتون مع أهله ، وفي شوال من سنة 458 ، أنفذ الخليفة القائم بامر الله خادما من خواص الخدم الى السلطان ألب أرسلان أبن اخ طغرل بك وهو أخو أرسلان خاتون ، للتهنئته بسلامة العودة بالسلامة فيغزوة غزاها مع الروم ، وللخطاب في رجوع زوجته الخاتون الى بغداد ، فقد طالت غيبتها ، ورد الخبر بعودتها الى بغداد مع الخادم ، وفي جمادى الآخر دخلت بغداد مع الخادم المرسل اليها ، وخرج أهل بغداد لأستقبالها على فرسخ واحد من المدينة ، وخرج الوزير فخر الدولة محمد بن محمد لاستقبالها .

وبقيت أرسلان خاتون في دار الخلافة العباسية حتى سنة 456 ، ففي هذه السنة خرجت الى الري من بغداد ، ولم يرد أي حديث عنها بعد ذلك من المراجع والكتب ويبقى أن نقول بأنها كانت أول الخواتين في الخلافة العباسية ولم تكن لها من المآثر ما تكون به قدوة للنساء الا أن أسمها أقترن بالتواريخ بأعظم الاحداث في الدولة العباسية ومنها لبلوغ مهرها مائة الف دينار ، ويبقى أن نقول بأن التاريخ لم يخلى من المرأة قط ولن يخلو

السيدة أبنة القائم بأمر الله
زوجة السلطان طغرل بك السلجوقي

الحديث عن هذه السيدة الكريمة يأكل الاحاديث ويبعث على العجب ويحدوا على الاستغراب ، فهي العذراء المتزوجة ، والمتزوجة العذراء وقد ذكرنا سابقا عنها بعض الشيء ،وهنا التفاصيل القول في سيرتها وأخبارها .

ذكرنا فيما سلف من سير سيدات البلاط العباسي،أن التوتخان زوجة السلطان طغرل بك السلجوقي توفيت سنة 452 ، وكانت ساعة أحتضارها وانتقالها الى دار قرارها ، قالت لزوجها :(أجتهد في أن تتزوج بأبنة الخليفة القائم بأمر الله ، فتحصل لك الوصلة بينك وبين بني العباس لتنال شرف الآخرة بعد أن نلت شرف الدنيا) . وأوصت بجميع مالها لبنت القائم المخصوض على زواجها ، المثار عزم السلطان طغرل بك على خطبتها ، وكانت وفاة التوتخان بمدينة جرجان من بلاد ايران ، فحزن السلطان طغرل بك عليها حزنا شديدا ،وحمل تابوتها معه الى مدينة الري فدفنها فيها ، وعزم على تحقيق أقتراحها ، والسعي في زواجه بأبنة الخليفة القائم بأمر الله واتفق أن الخليفة أرسل الى طغرل بك قهرمانته واسمها (صلف) وخادمه الخاص موفقا ، مؤسس الدولة الموفقية ببغداد ، ليحملا الى بغداد زوجته خديجة أرسلان خاتون بنت داود جغري السلجوقي ، فعادا الى بغداد بغير شيء ، وجاء معهما القاضي أبو يحي سعد بن صاعد قاضي الري ، برسالة من طغرل بك الى الخليفة ، تتضمن خطبة السيدة أبنته قيل أن وزير طغرل بك عميد الملك منصور بن محمد الكندري وقهرمانة الخليفة صلف أطمعا طغرل بك في أمكان الزواج ، فلما أطلع الخليفة على الطلب ثقل عليه حدا ،وانزعج منه ، فتكلم القاضي ابو يحي سعد بن صاعد في بيت النوبة من دار الخلافة ، كلاما يشبه التهديد وانه ان لم يجب الخليفة الى ذلك ساء ما بينهما فقال الخليفة : (هذا الزواج لم تجر به العادة لأحد الخلفاء ، وركن الدين طغرل بك هو عضو الدولة وركنها ، وهو المحامي عنها والماحي لكل أذى منها ، وما يجوز له أن يسوامنا هذا ويطالبنا به) . ثم أجاب الى الخطبة أجابة خلطها بكثرة الاقتراحات ظنا منه أن ذلك يبطل أتمامها ،

ويحمل طغرل بك الى تركها ، فمن أقتراحاته أن تسلم اليه مدينة واسط ، وتعطى أبنته جميع ما كان لألتونخان من الاملاك والاقطاع والرسوم في سائر الاصقاع ، فضلا عن المال الذي تركته ، مع ثلاثمائة الف دينار من الذهب العين برسم المهر ، وأن يكون مقام السلطان ببغداد دائما ، وكان العميد أبو الفتح المظفر بن الحسين والي بغداد وعميد العراق من قبل السلطان حاضرا فقال: (أما الملتمس فمجاب اليه من المهر وغيره من جهتي عن السلطان ولو كان أضعاف المبلغ ، فأن أمضيتم الأمر وعقدتم العقد سلم المبلغ جميعه وأما مجيء السلطان الى بغداد ومقامه فيها وأن لا يحدث نفسه بالرحيل فهذا أمرا لا بد من عرضه عليه ، فلما رأى الخليفة القائم أن الشروط التي اشترطها وأدخلها في الاقتراحات لا تحول دون تتزويجه ابنته . بطغرل بك أسف على قوله وندم لأن المانع الأصلي عنده كان من موانع الكفاءة التي قيل قديما :

فطلقها فلست لها بكفء   والا يعل مفرقك الحسام

فالسيدة بنت القائم عربية قرشية هاشمية عباسية ، من بيت الخلافة وطغرل بك تركي سلجوقي سلطان بني سجلوق فلم يكن كفؤا لها ، واضطر الخليفة الى ندب القاضي أبا محمد رزق الله بن عبد الوهاب التميمي الحنبلي المشهور في تاريخ الدولة العباسية ، الى الخروج الى الري ولقاء السلطان طغرل بك ، والاستقصاء منه في الاستعفاء من هذا الزواج المطلوب ، وأصحبه تذكرة ، والتذكر عندهم آخر الشروط وغاية الكلام المحرر، ، وقال له : أن تم الأمر فهو المراد ، وألا فأعرض التذكرة على السلطان على مضض مني وكره لذلك). وأرسل معه أبا الفوارس طراد بن محمد الزينبي الملقب بالكامل ، نقيب الهاشميين ، وبعث معهما بخلع وهدايا الى السلطان طغرل بك ورسم لأبي محمد التميمي أن يستعين عميد الملك منصورا الكندري وزير السلطان ، على العدول عن هذه الخطبة ، فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار.

ودخلت سنة 453 والحديث في أوله ، وفيها عزل طغرل بك ، أبا الفتح المظفر بن الحسين عميد العراق ، وولى مكانه أبا أحمد عبد الواحد أبن الخضر

النهاوندي ، ولقبه (رئيس العراقيين) وأذن له في القبض على أبي الفتح عميد العراق ، فلما علم هذا الامر التجأ الى دار الخليفة القائم بأمر الله مستجيرا بها ، وفي شهر ربيع الاول من السنة المذكورة دخل رئيس العراقيين بغداد ، واجتاز بدار الخلافة ولم يدخل بها ، ونزل في خيم تحت دار المملكة ، وكأنه قد نزل في دار المجيدية، ومد يده الى أقطاع الخليفة وهو قوام معيشته في ذلك الزمن زمن استبداد السلطنة ،وحدث أن ضرب غلامان له ، ضربهما جماعة من بني هاشم ، فبعث غلمانه في السفن حتى قابلوا قصر التاج وفيه الخليفة القائم وكان قصر التاج على الشط قرب المحكمة الشرعية ، فرموا القصر بنشابتين وأخذوا زورقا للخليفة كان فيه شعيرا ، فأنزعج الخليفة والناس وجرت من هذا الوالي أمور ثقلت على الخليفة ، فعوتب ولكنه لم يأتي بنتيجة معه العتاب ، وشعر الخليفة العباسي أنه أنتقل من أستعمار بني بوية الى أستعمار بني سلجوق ، وأن حرمته كانت أعظم في عهد بني بوية ، منها في عهد السلاجقة الذين جاؤوا لانقاذه من الذل .

أما رسل الخليفة الى طغرل بك بالاستعفاء من أبرام أمر الزواج فأنهم وصلوا الى همذان ، وكان السلطان فيها ، ثم أجتمعوا به واعطوه الكتب والهدية والخلعة وهي جبة ديباج مذهبة ، وفرجية منسوجة بالذهب وعمامة مشبكة مذهبة ، فأعرب طغرل بك على تعظيمه لذلك ووضع الفرجية على كتفيه ، ثم أذن لهما بالانصراف، وحضروا من الغد في دار المملكة بهمذان ، وطيف بهم في مجالسهم وكان فيها بيت في صدره دست مؤزر ومفروش بالنسيج ، وفيها سماط من ذهب عليه ثماثيل البلور والكافور والمسك والعنبر ، وكان ماء السماط وحده يساوي أربعمائة الف دينار ، وفي الدار عدة بيوت مملوءة من فاخر النسيج والفراء كالسنجاب والسمور وأبي قلمون ، وفيها شيء كثير من الالات والفراش والجواهر واليواقيت ، وقيل لهم : (كل هذا برسم الجهاز للسيدة المطلوبة الخطبة) ثم أنصرفوا وبقي أبو محمد رزق الله التميمي ، فأنه خلا بالوزير عميد الملك الكندري وفاوضه في أمر الزواج ، وطلب منه أن يحمل سلطانه على ترك الخطبة ، وعرض عليه الموضوع الذي بعثه الخليفة به ، فقال له عميد الملك : (هذه رسالة والموضوع لا يمكن عرضهما على السلطان ، فأن الامتناع لا يحسن بعد السؤال

والضراعة ولا تحسن المطالبة بالبلاد والاموال بأزاء الرغبة في الافتخار والجمال ، ومتى طرق أسماع السلطان وعلم أن الخليفة يرغب في الاشياء لا فيه ،ويؤثر المال ولا يؤثره فربما تغيرت نيته وحدث منه ما لا نؤثره ، وهو يفعل في جواب الاجابة أكثر مما يطلب الخليفة) . فقال له أبو محمد التميمي: (الامر لك ، والتعويل عليك فافعل ما تراه ، والآن له القول ،فسكن عميد الملك الى ذلك وبنى عليه أن الخليفة موافق على تزويج ابنته اذا نفذت الشروط ، وقال للسلطان :(أن اجابة أمير المؤمنين القائم بأمر الله قد حصلت)، فسر السلطان : سرورا عظيما وجمع الوجوه والآكابر وعرفهم الأمر ، وقال لهم عميد الملك : أن السلطان يذكر لكم نعمة الله عنده ، وبلوغه ما لم يبلغه أحد السلاطين قبله ، بسبب هذا الاتصال بأمير المؤمنين ، يعني المصاهرة ثم أراد الوزير أن ياخذ خط رسول الخليفة واقراره بالقبول ، فأبى الرسول وكتب خطه بمقتضى رسالة الخليفة وتذكرته فشق ذلك على العميد وصعب عليه ،لانه ظن نفسه ناجحا في أبرام زواج السلطان ، فعاد الامر كما كان . والظاهر أنه لم يطلع السلطان على خط أبي محمد التميمي رسول الخليفة لتبقى القضية مبهمة فينجو من تبعتها عند السلطان . ثم أمر وزيره عميد الملك بالمسير الى بغداد مع أبنة أخيه أرسلان خاتون زوجة القائم بأمر الله لابرام العقد وبعث معها فروخ خادمه الخاص وقاضي الري أبا يحيى سعد بن صاعد ، وأصحب الخاتون مائة الف دينار من مهر بنت الخليفة .وآلات ذهب وفضة وغيرها من أدوات الجهاز ، حتى الجواري والكراع ، وفي جملة ذلك الفان ومائتان وخمسون قطعة من الجوهر ،فيها سبعمائة وعشرون قطعة وزن الواحدة ما بين ثلاثة مثاقيل الى مثقال ، وقال للخاتون : ان لم ينعم الخليفة ويجب الى تسليمها فأقعدي فرّوخ برسم خدمتها والقيام على باب حجرتها.

وكان عميد الملك قد تلكأ في السفر الى بغداد ، ودافع وقال للسلطان طغرل بك : (قد كنت كتبت الى هزارسب بن بنكير بن عياض الكردي ، والي البصرة والأهواز حتى يحضر مائة الف دينار مما عليه ، ولا تخرج من خزانة الدولة شيئا ، وأنا على أنتظاره) فقال له السلطان : لا تفعل وخذ من الخزانة لا يقبح بنا أن لا يكون في خزانتنا ما نصرفه لهذا الامر . فحينذاك لم يجد ما يمنعه من المسير مع علمه

بغموض المصير . وقال الحجاب والأمراء الذين معه : أننا منفذون الى الخليفة في هذه المصاهرة والوصلة فما الثقة بأن الخليفة يفعلها ويسلم أبنته ألينا؟ فربما لا يفعل فنعود ولم نقض حاجة السلطان ، ونحصل من ذلك قباحة وسبه. فقال لهم السلطان : أن فعل الخليفة فذاك وأن لم يفعل فعودوا ، لأننا أردنا أن نعلم رأي الخليفة فينا وموضعنا عنده ، وأمر الجميع بالمسير الى بغداد ، فساروا ثم وصلوا اليها في يوم الخميس لثمان بقين من جمادى الاؤلى من سنة 453 ، و أستقبلهم من بلدة النهروان تحت بعقوبا أمين الدولة ابن دارست وزير الخليفة وأظهر لعميد الملك التعظيم والتكريم.

ولما دخل عميد الملك بغداد لم يدخل دار الخلافة بل جلس على باب النوبي، الى أن دخلت أرسلان خاتون دارها فدخل معها الدار ،ثم أنصرف الى دار المملكة في أرض العيواضية كما سميت فيما بعد ، فنزل فيها وأرسل من وقته يستدعي العميد أبا الفتح المظفر بن الحسين عميد العراق ، وكان بدار الخلافة لاجئا كما ذكرنا مسبقا ، وبعث اليه بخاتمه أيمانا له ، فجاء اليه فعاتبه عميد الملك وقال له : أكلت ضمان بغداد سنة ولم توف. ثم تركه حرا أياما ، وبعد ذلك قبض عليه وقيده ثم ضربه بالخشب وبقي في السجن ، حتى أخرج له الف دينار ، وكفله أحد الأمراء ثم أخرج من بغداد الى باب السلطان بهمذان ، ليلقى هناك حسابه ، ويعرض أعماله ويزيل التهمة عن نفسه.

ولما علم الخليفة القائم بأمر الله بهذه الامور كلها ، أيقن أن الشروط التي سيرها مع القاضي أبي محمد التميمي والاقتراحات لم يجيء جواب محرر عنها ، وعلم أن المهر قد حمل منه مائة الف دينار ، فأظلمت الدنيا بعينيه ، وظهر له سوء تدبيره ، ولما طلب منه بابرام العقد قال: أن هذا تشنيع وتبشيع لا خفاء به ولم تجر به عادة أحد من الملوك بأخذ أحد من الخلفاء بمثله، وأمتنع عن العقد ، ثم قال أن أعف من ذلك والا خرجت من بغداد ، ولم يأتي بفائدة حضور عميد الملك دار الخلافة ، لأن الخليفة أصر على الامتناع ، فبعث عميد الملك الى أرسلان خاتون في أن تخاطب الخليفة في معنى المصاهرة ، فخاطبته وهي زوجته - كما هو معلوم-

فأقام على أمتناعه ورفضه ، واذ تقطعت بعميد الملك الأسباب ، أخذ يطلق لسانه بالقبيح في ذكر الخليفة وقال : كان يجب الامتناع في أول الأمر ولا يكون اقتراح ولا تذكرة ، وهذا الامر أن لم يتم كان سعيا في دمي عند السلطان ، ثم غضب وأخرج نوبته أي طبوله ، لأن الوزير كان اذا سار ضربت الطبول بين يديه وتضرب الطبول أيضا ببابه في أوقات الصلوات الخمس ، فضربها بالنهروان ، وعزم على الخروج ، فسأله أبو منصور عبد الملك ابن يوسف ، الوجيه البغدادي المشهور في تاريخ بغداد ، وقاضي القضاة علي ابن محمد الدامغاني أن يتوقف ، وكاتبا خليفة بني العباس القائم بأمر الله وأرهباه وخوّفاه وخامة العاقبة ، وحسنا له العقد بشرط أن يشهد عميد الملك وقاضي الريّ أبو يحيى سعد بن صاعد على أنفسهما – بحكم وكالتهما – أنهما لا يطالبان بالسيدة المخطوبة المطلوبة مدة أربعة سنوات . ثم استفتي الفقهاء فيما حدث بين السلطنة والخلافة ، وتعليق الخليفة العقد على الشروط التي ذكرها ، فقال الحنفيون (ان العقد صحيح والشرط باطل) وقال الشافعيون (أن العقد باطل اذا دخل به شروط) ، وكان الخليفة شافعيا فأ حتج بمذهب الشافعي وامتنع من تزويج أبنته .

وزار عميد الملك الخليفة فوعظه مما قد لج فيه ، فقال له : (أنا أردّهذا الامر يا منصور بن محمد الى ديانتك ، وقد علمت ما فيه من الوهن على بني العباس ولم تجرى لهم به عادة).

وكتب الخليفة كتابا الى أصحاب السلطان طغرل بك ، يشكو فيه ما لقيه من أصحاب السلطان من العدوان ، اذ لم تكن هذه المعاملة معاملة من يطلب الشرف والمصاهرة ، والتجمل والثواب في الآخرة.

واذ كانوا على تلك الحال ورد على عميد الملك من طغرل بك كتاب يأمره فيه بأن يرفق بالخليفة ، وأن لا يخاطب في هذا الامر الا بالجميل ولا يكرهه احد عليه ، وأنكر ما فعل به أصحابه ، فكتب عميد الملك كتابا الى سلطانه يستأذنه فيما يفعل اذن ، وأقام يرعد ويبرق ويقول فيكثر ، والخليفة يحتمله ويصبر . وذات يوم صنع له امين الدولة ابن دارست وزير الخليفة دعوة في ديوان الخلافة ، فشرع

يأكل وغلمانه يتصافعون ويتضاربون بالوسادات حتى تقطعت ، وهذا دليل على أحتقارهم صاحب الدعوة ، ومعلوم أن صاحبها هو الخليفة . وجاء يوما الى ديوان الخلافة وعليه ثياب بيض وتحته بغلة بيضاء ، مع أن شعار بني العباس السواد ، فثيابهم سود وعمائمهم سود الا في أيام الحزن والعزآء فانهم يلبسون البياض – أي الملابس البيضاء- فعوتب وزير السلطان على مخالفة رسوم الدولة العباسية وآيينها – أي قوانينها أو عاداتها – فقال : هذا هو اللباس على ما جاءت به السنة النبوية . ثم حضر عميد الملك في جمادى الاخرة من السنة ، بحضرة الخليفة القائم بأمر الله ومعه القضاة وغيرهم ، وكان من عادة الخليفة في الظهور للزائرين أنه يجلس خلف ستار ثم يزاح هذا الستار فيراه الرائي، فشرع عميد الملك يستطعم الخليفة الكلام ويستدرجه اليه ، وقال :(أسأل مولانا أمير المؤمنين الدخول في ذكر ما شرّف به ركن الدين طغرل بك ، الخادم الناصح العبد المخلص وفيما رغب وسمت نفسه اليه ، ليسمع الجماعة كلام أمير المؤمنين ؟) فقال الخليفة : (نحن بنو العباس خير الناس بنا رشد واهتدى ، ومن ناوأنا ضل وغوى ، وقد سطر في هذا المعنى ما فيه كفاية)، وأسدلت الستار بينه وبينهم ، فأنصرف عميد الملك غاضبا وسار عشية يوم الثلاثاء السادس والعشرين من جمادى الاخرة طالبا همذان ومعه المال والجواهر ، وبقي الناس وجلين خائفين من اضطراب الأمر وانقطاع الاتصال بين السلطنة والخلافة العباسية ، واستمرار النزاع من أجل السيدة بنت القائم .

وفي شهر رجب من السنة المذكورة – سنة 453 – ورد رسول الوزير عميد الملك الى أبي نصر أحد أصحابه ببغداد ، يذكر فيه أن السلطان أرسل اليه بكتاب يقول فيه : أن الخليفة ان لم يجب الى المصاهرة والوصلة التي سألها فطالبه بتسليم أرسلان خاتون وردها اليّ، وأني سأسير الى بغداد وأتولى خطاب الخليفة في هذا ، وأمره بترك المال والجهاز ببغداد لنقل الخاتون الى دار المملكة ، الى حين أجتماعي بالسلطان واصلاح هذه القضية ، وكاتب الوزير أرسلان خاتون بمثل ذلك ، فازداد الانزعاج ودافع الخليفة عن الاجابة ، فشرع رئيس العراق عبد الواحد النهاوندي في خرق الهيبة ، وهجم دار الخلافة مرارا وأخذ ما التجأ اليه ، وقبض على أحد المقدمين الذين بعثهم الخليفة ليتولوا بعض اقطاعه ، وكان لائذا تحت

قصر التاج الذي فيه الخليفة ، فأخذ منه العمامة واللحاف ، والخليفة يشاهده فأستغاث الرجل بخدم الخليفة الذين كانوا على الروشن – أي البلكونات – أو كما تسمى اليوم البرندات– فلم يستطيعوا عونه ، وأدخل رئيس العراقيين يده في أقطاعات الخليفة والحاشية والخدم ، وطالبهم بالحقوق التي كانوا قد أدوها . فعل ذلك كله لايذاء الخليفة واجباره على تزويج أبنته ، فأظهر الخليفة العزم على الخروج من بغداد وأمر بأصلاح طياره وهو من السفن السريعة ، وانزعج الناس من ذلك ثانية وتوقعوا حدثا منكرا وخافوا . فلما رأى الخليفة ذلك أمر فنادى فيهم،(أن الخليفة غير عازم على ترك بغداد) فسكتوا وهدأ من روعهم ، ثم وصل كتاب من طغرل بك الى رئيس العراقيين ، يأمره بقبض ما في يد الخليفة من الاقطاع وما في يد حاشيته ، وأن لا يترك له الا مكان مقررا لأبيه القادر بالله ، وأن يطالبه بتسليم حاجبه لأن السلطان أتهمه بأفساد ذات البين ، فحضر رئيس العراقيين بيت النوبه من دار الخلافة ، وعرض على ديوان الخلافة ما أمره به السلطان ، فقال له الخليفة: (أما الاقطاعات فبين أيديكم ، وأما الحاجب فليس له نسب اليه أصل ولا حقيقة ، ويحضر قاضي القضاة فيستحلفه بالأيمان التي تبرىء ساحته ، فأما المطالبة بتسليم خواصنا وأصحابنا وثقافتنا فمما لا نفعله) ، وبالغ رئيس العراقيين في أستعمال القبيح في حق الخليفة ، وخرق هيبته ورفع الحشمة والحياء ، واستولى أيضا على الجوالي وهي جزية أهل الذمة ومقدارها الف وخمسمائة دينار ، وكانت داخلة في أقطاع الخليفة ، فصعب ذلك عليه ، وبعث الى رئيس العراقيين ابي منصور عبد الملك بن يوسف وقال قل له: أن ركن الدين طغرل بك ما جعل هذه الجوالي لنا فيأخذها منا وأنما هي أصل من أصول الشريعة يتعلق بنا فلا يجوز صرفه عنا ، فقال رئيس العراقيين لرسول الخليفة: (هل أخاطر بنفسي مع سلطاني في خدمة الخليفة، وورائي أعداء ينقلون الى السلطان عني أنني مقصر في ما أعتمده في حق الخليفة ، وقد كنت أرجو أن ينصلح الأمر وما أراه الا قد تفاقم ، وتزايدت الوحشة والكتب ترد عليّ من السلطان ، بكل ما يزيده النفرة والوحشة بينه وبين الخليفة ، فقال له الرسول : فرج عنا فنحن ندبر أمر المصاهرة والوصلة ، ونريد أن نراسل السلطان بذلك ، فرفع رئيس العراقيين يده، وانسلخت سنة 453 والحال بين السلطنة

السلوجقية والخلافة العباسية ، على ما ذكرنا من الاختلال والاعتدال والمراسلة والاحراج ، وكانت أكثر الجراءة على الخليفة من عمل عميد الملك الوزير . وأيقن الخليفة القائم بأمر الله بأن القوم غير تاركين له حتى يجيب على الزواج ، وفي صفر سنة454 أرسل من قبله أبا الغنائم بن المحلبان أحد ثقاته ، الى طغرل بك لتلافي الامر وخوفا من بعد المرام وأتساع الخرق وغضب السلطان المتزايد ، واستشهد الخليفة على نفسه بالاجابة الى الزواج ، قاضي القضاة أبا عبد الله الدامغاني ، وأبا منصور عبد الملك بن يوسف ، وكتب وكالة الى عميد الملك وزير طغرل بك في أبرام العقد ، أجاب الخليفة الى ذلك مكرها مجبرا بعد أن تمنع وتأبى وأقدم وأحجم، وبعد خمس أيام من رسول الخليفة ورد بغداد كتاب من السلطان يتضمن رد الاقطاع الى الخليفة والاعتذار مما جرى به سوء المقدار ، من تلك الامور المكروهة القبيحة ، وجاء في الكتاب (أن رسولا من قبل السلطان جاء على الخليفة ، بهدية ومشافهة تتضمن التنصل من كل ما جرى عليه من الاضطهاد ، فطابت النفوس ووقعت البشائر ببغداد ، وخلع على الركابية الذين حملوا كتاب السلطان طغرل بك، وطيف فيهم ببغداد والطبول والبوقات تضرب بين أيديهم ، وكاتب الخليفة رسوله أبن المحلبان ،وكان قد وصل الى شهرزور بالتوقف عن المسير ريثما يصل رسول السلطان طغرل بك الى بغداد برسالة فيكون جواب الخليفة بمقتضى الرسالة، فأقام أبن المحلبان هناك متعللا بكثرة الامطار والثلوج ، وبأن خراجا خرج من رجليه- أي قدميه - فمنعه عن الركوب . ولما طالت أيام المحلبان بشهرزور ، وعرف السلطان طغرل بك أن الخليفة أمره بالتأخر غضب واغتاظ ، وأنفد بكتاب الى أنة أخيه أرسلان خاتون زوجة الخليفة ، يدعوها به الى الخروج من دار الخلافة ، والتجهز الى الري ، فأنه مشتاق لها – على ما أدعى – ومؤثر لمشاهدتها ، فأستاذنت زوجها الخليفة فلم يأذن لها ، ثم سأل عن السبب الذي حمل طغرل بك على ذلك فقيل له : سببه تأخر رسولك ابن المحلبان عن السفر الى حضرة السلطان بقبولك التزويج ، فقال قولوا لهم : أنما توقف لانتظار نا رسول الذي ذكرتم أيفاده الى بابنا لنسمع رسالته ، ويكون انفاذها جميعا ، أما وقد أستشعرتم فنحن نأمر أبن المحلبان بالاتمام ، وكتب اليه بالمسير عن شهرزور الى السلطان فسار ووصل الى حضرته .

وفي يوم الخميس الثالث عشر من شعبان في سنة 454 عقد العقد للسلطان طغرل بك على السيدة بنت القائم بأمر الله ، بظاهر تبريز في الاسم دون الحقيقة، فلا يتصل بها ولا يلامسها حتى يفرق الموت بينهما ، وكان ذلك من الظلم العبقري الذي فعله طغرل بك، وعمل للعقد سماط عظيم واحتفال جسيم ، وكتب أبن المحلبان الى الخليفة رسالة يخبره فيها ، أنه أحتفل به عظيم احتفال وقرىء توقيع الخليفة الى السلطان على رؤوس الاشهاد والسلطان حاضر ، وأنه سلم وكالة الخليفة المحررة الى عميد الملك ووزير السلطان فقبّلها ، وأوصلها الى السلطان فقام من مجلسه عند مشاهدتها وقبلها وقبل الارض ودعا ، ثم أعادها الى عميد الملك فقرأها ، وانهم لما سمعوا أن الخليفة قد رسم فيها تعيين المهر بأربعمائة درهم ودينار، أرتفعت الاصوات بالدعاء للخليفة ، وبعد الأملاك – اي كتابة العقد- نثر من الذهب واللؤلؤ ، وتكلم السلطان باللغة التركية بما معناه الشكر والدعاء ، وأنه المملوك القنّ الذي قد سلم ورقّة وما حوته يداه وما يكسبه باقي عمره الى الخليفة ، ثم أرسل طغرل بك الى الخليفة بهدية عبارة عن ثلاثين غلاما أتراك على ثلاثين فرسا وخادمين وفرس بمركب وسرج من ذهب مرصع بالجواهر الثمينة ، وعشرة آلاف دينار ومثلها لكريمته المزوجة مع عقد جوهر فيه نيف وثلاثون حبة في كل حبة مثقال ، وجميع ما كان لآلتون خان المتوفاةمن الاقطاع بالعراق ومنه بعقوبا ، وثلاثة آلاف درهم لوالدتها وخمسة آلاف دينار للأمير عدة الدين محمد أبن القائم بأمر الله أخ السيدة ، ووردت الكتب بخبر توجه السلطان طغرل بك الى بغداد ، ثم جاء أراجيف بموته ثم جاءت البشائر بسلامته من مرض شديد ، ولم يكن ريب في أن هذا السلطان كان قد كبر وأسنّ وقارب الموت، وكان زواجه الاسميّ بتلك الشابة أيذانا بوداعه للدنيا .

وكان في تلك الايام مؤرخ عراقي شبه رسمي ، هو غرس النعمة محمد بن هلال بن المحسن بن أبراهيم الصابي من ذرية أبي أسحاق الصابي الكاتب المشهور، فأراد أن يسجل هذه الحادثة تسجيلا رسميا فأنها وحيدة فريدة ، فتوصل الى أستتكتاب الخليفة برجل وجيه مقرب عنده ، فأرسل اليه القائم بأمر الله على يد الوسيط بهذا الشرح الذي يقول فيه: لما كان من فعل البساسيري اللعين ، وأنتهاز

الفرصة فيمن أنضوى اليه من الاجناد المطرودة عن مدينة السلام ، وعود ركن الدين طغرل بك الى بلاده وتشاغله بقتال أخيه أبراهيم اينال حين شرد عن الطاعة وفارق الجماعة ، وأصغى الى أباطيل البساسيري واطماعه في الدولة والولاية ومضرة دار الخلافة ، واقتضى حكم الاستظهار أنتقال الامامة الى الحديثة ، والمقام بها الى أن تستقر الأمور وورد ركن الدين طغرل بك الى مدينة السلام وعادت الخدمة الشريفة الى مستقر سدتها ، وقتل اللعين البساسيري وحمل رأسه الى الخزانة الأمامية ، واقترح ركن الدين طغرل بك الى الانافة به ومقابلة خدمته ، بما يبقى له فخره وجماله على الاعقاب ، ويتخلد ذكره مع الدهر والزمان ، ورغب في الخدمة بتجميله بعقد على كريمته ، وعلم أن موضعه يقتضي كل ايجاب وترددت في ذلك أقوال أختلف وبذل في مقابلة ذلك من الاموال والاقطاعات ما أشتمل على الف الف دينار ، سوى الأواني المرصعة والمهد المرصع والمراكب المرصعة بالجواهر الثمينة ، وأعيد جميعه ثم أنساقت الحال الى أن عقدا اسما من غير أجتماع على اربعمائة درهم ودينار ، ثم يساق الشرح على ما جرى فيه ونسأل الله التوفيق في جميع الامور . هذا ما ذكره محمد ابن الصابي .

وهذه الوثيقة المكتوبة قد أحتوت على تسويغ الزواج وأوضح فيها أن طغرل بك عرض مليون دينار لأتمام الزواج بالسيدة بنت القائم ، ولما رأى والدها ان الامر ليس بأمر مال ولا خول ، أقتصر على المهر الشرعي أربعمائة درهم ودينار، وأعاد سائر الاموال المعروضة ، قال أبو المظفر سبط بن الجوزي : ذكر جدي أبو الفرج بن الجوزي في المنتظم أن العقد وقع على اربعمائة الف دينار ولكن الذي ذكره ابن الصابي أليق بالقصة لأن الخليفة القائم بأمر الله أتبع السنة الطاهرة في أربعمائة درهم ودينار .

وسار طغرل بك من تبريز الى أرمية ، ومرض هناك فشغب عسكره فأجلس على مضض وألم ، وأدخل الى قوادهم ووجوهم ، فأوصاهم بوصية يعملون بها أن نزل به حادث ، ثم شفي ونحا نحو بغداد ، ثم وصل الى تكريت ، واستدعى بسفن لينزل فيها الى بغداد ، وسار في دجلة حتى وصل قبالة قرية القفص ، وكانت شمال

بغداد قريبة منها ، فعزم الخليفة القائم بأمر الله على تلقيه واستقباله هناك ، فأستعظم ذلك طغرل بك وأبى أن يكلف الخليفة مثل ذلك التكليف ، واستقبله الوزير أبو نصر محمد بن جهير التغلبي ، ثم دخل السلطان بغداد ودخلت عساكره فنزلوا في دور الناس بعد أن أخرجوهم منها ، وكان في تلك الايام برد شديد فكانوا يوقدون من خشب الدور المستعمل في البناء ، ويتعرضون لحرم الناس حتى ان قوما من الاتراك صعدوا الى جامات حمام نسوي ، بنهر القراطيس وآخر بنهر طابق من الجانب الغربي ببغداد ، ففتحوها وأطلعوا على النساء ، ثم نزلوا فهجموا عليهن فأخذوا منهن ما أرادوا وخرجت الباقيات عاريات الى الطريق فأجتمع الناس وخلصونهن من أيديهم ، وقطع الجند الطرقات وأخذوا عمائم الناس ، وطغرل بك سلطانهم حامي الخلافة ، والامامة مقيم في دار المملكة لا يبدي ولا يعيد ، ثم أرسل وزيره عميد الملك الكندري الى الخليفة يطالبه بالسيدة ، ويطلب نقلها من دار الخلافة الى دار المملكة ، وبعث اليها مع الوزير بخاتمه وكان ذهبا وعليه فص ماس وزنه درهمان ، وبات الوزير في ديوان الخلافة مطالبا بنقل السيدة، فقال الخليفة: انك يا منصور بن محمد كنت تذكر ان الغرض من هذه الوصلة التشرف بها ، والذكر الجميل لركن الدين طغرل بك فيها . وكنا نقول لك: اننا ما نمتنع من ذلك الا خوفا من المطالبة بالتسليم ، وجرى ما قد لمته ، ثم أخرجنا ابن المحلبان وقرر معكم قبل العقد ما أخذ به خطك ، وانه ان كان يوما يطالب برؤية السيدة كان ذلك في دار الخلافة ، ولم نسم أخراج الجهة منها ، أراد بالجهة (السيدة أبنته) فقال عميد الملك : هذا كله صحيح ، والسلطان مقيم عليه وعازم الى الانتقال من دار المملكة الى هذه الدار العزيزة حسبما أستقر ، وهو يسأل أن يفرد فيها لحجابه وغلمانه وخواصه ، مواضع يسكنونها فيما يمكنه بعدهم عنه.

فقطع بهذا الكلام الحجة ، ثم راجع وكرر المراجعة حتى أجاب والدها الى نقلها الى دار المملكة ، فزفت الى طغرل بك في منتصف شهر صفر من سنة 455 مصعدة في دجلة ، وكانوا قد نصبوا لها من مشرعة دار المملكة على الشط قرب العيواضية الى الدار نفسها سرادق تسير فيه ،وضربت البوقات والطبول العظيمة عند دخولها الدار ، فجلست على سرير ملبس بالذهب ، ودخل السلطان طغرل

بك حجرتها فقبل الارض بين يديها وخدمها ، ودعا لأبيها الخليفة ثم خرج من غير أن يجلس، أما السيدة فلم تقم له ولا كشفت البرقع عن وجهها ، ولا رأت وجهه لحسن حظها . وظل السلطان طغرل بك والحواشي في صحن دار المملكة يرقصون ويغنون باللغة التركية فرحا وسرورا ، ولقد كان رقص السلطان طغرل بك من عجائب الزمان ومما يندر أن يمليه الملوان ، ثم أنفذ للسيدة مع أرسلان خاتون بشيء كثير من الجواهر، منها عقدان فاخران ونسيج خسرواني ذهب ، وقطعة ياقوت حمراء كبيرة ، ودخل اليها من الغد فقبل الارض ايضا وخدمها ، وجلس قبالتها ساعة على سرير ملبس بالفضة ، ثم خرج وانفذ اليها بجواهر أخرى مثمنة وفرجية مكللة بحب اللؤلؤ ومخنقة منسوجة بحب اللؤلؤ ، وما زال كل يوم يفعل ذلك ويخدمها ويقبل الارض ويبعث بالتحف ، وظهر عليه سرور عظيم ، ومن الخليفة تألم جسيم . وخلع على وزيره عميد الملك وزاد في ألقابه لحصول المصاهرة بسفارته – يمكن هنا كان القصد برعايته – وبقيت الولائم في دار المملكة اسبوعا كاملا ، ولتسع بقين من شهر صفر المذكور مد سماط كبير وخلع على جميع الامراء اللذين جاؤوا بغداد مع السلطان طغرل بك ليشهدوا على هذا الزواج المضحك للعقلاء.

وفي شهر ربيع الاول حضر الوزير عميد الملك بيت النوبة بدار الخلافة ، وأستاذن للسلطان طغرل بك في السفر من بغداد والانصراف الى بلاد ايران ، فأذن له الخليفة ، فأستصحب السيدة العباسية معه بعد أن امتنعت وأبت اباء شديدا ، فغضب السلطان عليها وألزمها بالمسير معه ، ولم يتبعها من دار الخلافة سوى ثلاث نسوة برسم خدمتها ، ولحق بوالدتها من الحزن ما لم يمكن دفعه عنها ، ولحق والدها الخليفة أمر عظيم وظهر الحزن عليه ، وكان فعل السلطان لذلك بأشارة وزيره عميد الملك.

وخرج طغرل بك من بغداد في يوم الاحد الثاني عشر من ربيع الاول ، وكان مريضا مأيوسا من سلامته ، فوصل الى الري وتوفي فيها في ثامن من شهر رمضان من السنة التي تزوج فيها ، ذلك الزواج الاسمي ، ووصل نعيه الى بغداد ليلة

الاحد الرابع والعشرين من الشهر ، أي بعد سته عشر يوما وكان له من العمر سبعون سنة تقريبا وقيل ثمانون ، وكان بين زفاف السيدة بنت القائم بأمر الله ووفاته ستة أشهر وثلاثة وعشرين يوما . وجلس وزير الخليفة في صحن السلام بدار الخليفة للعزاء بالسلطان ، وقطعت خطبته من منابر بغداد بحكم موته .

واضطربت الدولة السلجوقية بعد موت طغرل بك ، وكثر المطالبون بالسلطنة على أختلاف أجيالهم . وفي الري اضطربت أحوال الجنود ، وطالب الوزير عميد الملك السيدة بنت القائم بأمر الله ، بجواهر كانت للسلطان معها ، وذكر زيادة قيمتها ونفاستها ، وحاجتها الى أنفاقها على الغلمان من جنود السلطان ، فأنكرت السيدة ذلك ، فأستولى على أقطاعها ونواحيها ، ثم استظهر عليها وأخذ منها ما أخذ ، وكان يريد أن يولي بعد طغرل بك أبن أخيه أبا القاسم سليمان الملقب بمشيد الدولة ، فلم يتم له الامر وتولى السلطنة ألب أرسلان محمد بن داود ، وهو أبن أخيه لطغرل بك أيضا وأخو الطالب للسلطنة المذكور، واعتقل وزير عمه عميد الملك الكندري لأن وزيره نظام الملك أبا علي الحسن وأسحاق الطوسي حرضه عليه وقال انه لا يؤمن شره ، ثم ارسل السلطان ألب أرسلان السيدة بنت القائم بأمر الله في الحال ، وأذن لها في الرجوع الى بغداد ، وأنفذ اليها بخمسة آلاف دينار للنفقة ، فأبت أن تقبلها ، فقيل لها لا يجوز رد مثل ذلك فقبلت ، وخرجت من وقتها الى دار المرتضى نقيب العلويين بالريّ ثم سارت من عنده الى بلدة سامراء ، وفي خدمتها جماعة من الاعيان ، منهم رسول السلطان ألب أرسلان فقد جاء يطلب الى الخليفة اقامة الدعوة والسلطنة لصاحبه ، ووصلت السيدة الى بغداد عشية يوم الاحد ثالث عشر ربيع لآخر ، وخرجت لاستقبالها والدتها وخدم دار الخلافة والقهرمانة صلف ، واجتمع الناس لمشاهدتها فدخلت ليلا وسر بها القائم بأمر الله والدها بدخولها وعودتها ، وبقيت هذه السيدة في دار الخلافة ، فخفت أخبارها واحوالها .

وفي سنة 467 توفي والدها القائم بأمر الله وهي في الحياة وتولى أبن أخيها عبد الله ولقب بالمقتدي بأمر الله ، وعاشت مدة خلافته حتى توفي سنة 487

وولي الخلافة من بعده أبنه المستظهر بالله ، وفي عهد هذا الخليفة ظهر للسيدة بنت القائم تدخل في السياسة ونسب اليها أنها تسعى في أزالة دولته ، فألزمها الاقامة في دارها ومنعها من الخروج حتى وفاتها عذراء لم تمس في سادس المحرم من سنة 497 وحملت جنازتها في زبزب من دار الخلافة الى الرصافة جنوب الاعظمية حاليا ، وجلس ارباب الدولة العباسية في بيت النوبة للعزاء بها ، وكانت موصوفة بالدين وكثرة الصدقات وقد أدركت ثلاثة خلفاء أبيها وأبن أخيها وحفيد أخيها المستظهر بالله وفي عهده توفيت وأدركت من سلاطين بني سلجوق ثمانية ، زوجها الاسمي طغرل بك وألب أرسلان ابن أخيه داود وملكشاه بن الب ارسلان وتتش بن الب ارسلان ومحمود بن ملكشاه وسنجر بن ملكشاه وماتت بعد أن ضحي بشبابها بل بحياتها من أجل زواج أسمي أراده طغرل بك ودل على حماقته وقسوته معا . قال أبن الاثير عز الدين (وهذا لم يجر للخلفاء مثله فأن بني بوية مع تحكمهم ومخالفتهم لعقائد الخلفاء لم يطمعوا في مثل هذا ولا سأموهم فعلة).

وكان للوزير عميد الملك منصور بن محمد الكندري أثر سيء في هذه الحادثة النادرة ، وفي أخراج السيدة من دار الخلافة ، وتسييرها مع السلطان طغرل بك الى الريّ. ولما أعتقل عميد الملك أرسل الوزير نظام الملك الى السيدة المذكورة يعلمها أنه دبر في أعتقال عميد الملك ، لما فعله في حقها وسبب من نقلها خارج دار الخلافة دار أبيها وبلدها خلافا للشروط ، وآل أمر عميد الملك الى أن حرض نظام الملك عليه السلطان الب أرسلان فأمر بقتله فقتل يوم الاحد سادس عشر ذي الحجة في سنة 456 ومثل به أفظع تمثيل ،ولا نشك في أن نظام الملك أتخذ أساءة عميد الملك الى الخلافة العباسية ذريعة الى القضاة عليه وأزالة مزاحم له في مرتبة الوزارة ، معروف بالكفاية والدراية والسياسة والرئاسة ، وأن كان جريئا على الخلافة العباسية في خدمة سلطانه الغاشم .

ونختم الكلام على السيدة بنت القائم بأمر الله بأن المؤرخين المعاصرين والمنتحلين لكتابة التاريخ ، ظنوا بل أكدوا أ، هذا الزواج زواج طغرل بك بالسيدة العباسية حقيقيا ، ولم يكن بالحقيقة كذلك ، بل كان زواجا اسميا صوريا ،

وعلى نحوه جرى زواج السيدة زبيدة بنت المقتفي لأمر الله ، زوجة السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه العجوز ، وكلتاهما ماتت عذراء ، ومن الخطأ المبين ما قرأه الناس في بعض الروايات العصرية مأن طغرل بك أراد بزواجه بأبنة القائم بأمر الله أن تنقل الخلافة الى أبنه بعد وفاة القائم بأمر الله ، فهذا هراء وتشابك في الامور لما ذكرنا من الاسباب والاخبار فنظام وراثة الخلافة لم يخرج عن قول الشاعر :

بنونا بنوا أبنائنا وبناتنا   بنوهنّ أبناء الرجال الأباعد

هذا الى أن الدلائل دلت على كون طغرل بك عقيما لم يولد له ولد على تعدد زوجاته ، وورث السلطنه بعده أبن أخيه كما هو معلوم وقد ذكرنا اليه ، هذا ما وجدته من سيرة السيدة المتزوجة العذراء بنت القائم بأمر الله العباسي ، وهي سيرة شاملة على حوادث غريبة ووعظات وعبرة ، أستبان فيها ما لقيه خليفة بني العباس من جور بني سلجوق واضطهادهم ، وطلبهم منه ما لم تسم اليه نفس ملك ولا سلطان قبلهم ، واتضح فيه لون الحكم الذي كانوا يحكمون به البلاد ، وسيرة جنودهم القبيحة ، بين العباد ولا سيما أهل بغداد ، فأنهم كانوا يخرجون الناس من مساكنهم ولو كان ذلك في اشد الاوقات بردا او حرا ويغتصبونها ويسكنون بها، ويتعرضون للناس وحرمهم حتى في الحمامات ، وانكشفت بهم سيرة سلطانهم طغرل بك وما كان علية من قلة المبالاة ، بأمور الرعايا ، وتقصير في تأديب الجنود ، وتعلقه بالامور التافهة وتركه مكارم الأمور، ومحاسن التدبير ، وتنكبه عن جادة السياسة الحكيمة .

والعبرة الاجتماعية من ذلك الزواج الغريب ، هي ما آل اليه من تضاؤل الصداق من اربعمائة الف دينار الى درهم واحد وتبقى عشرة دراهم وهي للصرف الشرعي للدينار فعلى هذا كان المهر أربعمائة درهم متداولة وعشرة

دراهم شرعية ، والناس أحرار بأتباع هذه الافعال والسلوك (هذه السبيل من حط المهر الى ذلكم المقدار الضئيل) تشجيعا على الزواج من قوامة التحاب والتراضي وتوسم السعادة وترسم طريقها ، لا كثرة المهر أدوات الفخر ولا استكثار من النثار والاثاث ، فأن ذلك كله زائل أو فاني اذا لم يكن به مودة واخلاص وتفاني ، فليس الزواج بتجارة عند ذوي البصائر ولا حرقة عند أولي العقول الراجحة بل هو الجمع بين جسدين وروحين متحابان في الحياة وفي الهوى والمشرب وان كانا متفارقين ، ثم التقيا بالزواج لقاء دائما .

السيدة قرة العين أرجوان

السيدة قرة العين أرجوان أم الخليفة المقتدي بأمر الله ، والارجوان في الاصل صبغ أحمر شديد الحمرة ونوع من الشجرة له أزهار حمر أحسن ما تكون من حيث الجمال ، وكل لون يشبهها فهو أرجوان . والظاهر أن السيدة أرجوان سميت باسم ذلكم الزهر الجميل أو بالياقوت الارجواني وهو الشديد الحمرة. كانت هذه السيدة جرية أرمنية أدخلها الرق قصر الخليفة القائم بأمر الله العباسي ببغداد ، فأن هذا الامام أشتراها لابنه الوحيد ذخيرة الدين أبي العباس محمد ولي عهد الخلافة الوارث المنتظر للأمامة . وفي سنة 447 هجري . مرض ذخيرة الدين وتوفي وله من العمر سبع عشرة سنة . فعظمت الرزية بوفاته وتفاقمت المصيبة ،لأنه كان الولد الذكر الأوحد للقائم بأمر الله ولم يبق للخليفة ولي عهد ، واستشعر الناس بانتقاص الدولة العباسية ، وأنفصام أمرها وانقطاع نظامها ، أما سائر العباسيين من غير البيت الذي فيه الخلافة فقد كانوا خالطوا العامة وتزوجوا فيهم وجروا مجرى السوقة بينهم ،، فلم يكن ممكنا استخلاف أحد منهم لأن العرب ما داموا عربا يشترطون السيادة والشرف في ملوكهم وخلفائهم . ثم علم أن السيدة قرة العين أرجوان حبلى من ولي العهد فتشوقت النفوس ما يكون من ذلك وتشوقت الى معرفة ما ستلده من ذكر أو أنثى ، فولدت بعد ذلك بخمسة أشهر ولدا ذكرا فسموه عبد الله وكنوه بأبي القاسم ، وهو الذي أصبح خليفة بعد جده القائم بأمر الله ولقب بالمقتدي بأمر الله ، وسيرته حسنة ومشهورة عند مؤرخي العراق وكانت هذه الولادة التي هيأها الله تعالى لقرة العين أرجوان سببا لتعظيمها وتكريمها وعدها من النساء المباركات ، فيها حفظ بيت الخلفاء العباسيين وبها دامت الخلافة بعد ما أوشكت أن تنهار وكان يوم الولادة من أيام السرور والاعياد في بغداد وسارت فيه البشائر الى البلاد الاسلامية ولقب المولود المبارك الجديد بعدة الدين .

وفي سنة 450 استولى على بغداد أبو الحارث أرسلان البساسيري القائد التركي المشهور وخطب فيها للخليفة المستنصر بالله الفاطمي ، واصبح العراق من ممالك الدولة الفاطمية ونفي القائم بأمر الله العباسي الى بلدة حديثة (عانه)

واسترت والدة الخليفة قطر الندى وكانت أرمنية أيضا وقرة العين ارجوان وذهب أبنها عدة الدين مع عمته وجدته في غمار الناس ببغداد ، وكان عمر عدة الدين دون أربع سنوات ، وظلوا يبيتون في المساجد وينتقلون من مسجد الى آخر مع المكدين والشحاذين والقائد أرسلان البساسيري قد أذكى عليهم العيون والمتجسسين ببغداد فلم يظفر بهم ، ولم يكونوا يشبعون الخبز ولا يدفأون من البرد ، ثم أتصلوا سرا بأحد أولياء الخليفة يعرف بابن المحلبان فخرج بهم من بغداد الى نواحي سنجار ثم حملهما الى حرّان من بلاد الجزيرة .

أما أرجوان قرة العين وقطر الندى فقد ظهر على أمرهما أرسلان البساسيري لأن الثانية – أعني قطرة الندى- كتبت اليه من مكان استتارها من بغداد رقعة تشكو فيها الضر اليه وتشرح ما لحقها من الاذى والفقر حتى أن القوت يتعذر عليها وكانت قد ناهزت التسعين . فأفرد لها القائد الفاتح دار في الحريم الطاهري على دجلة فوق المنطقة بين الكاظمية وبغداد ورتب لها جاريتين تخدمانها وأجرى لها راتبا من الخبز واللحم وبقيت في حكمه هي والسيدة أرجوان كألاسيرتين ، فلما هرب من بغداد وانحدر الى واسط حملهما معه كالرهائن ، ثم عاد السلطان طغرل بك الى العراق وقاتل أرسلان البساسيري فقتله ثم أعاد من واسط الى بغداد في ذي الحجة من سنة 451 والدة الخليفة ومعهما ارجوان ووصال قهرمانة الخلافة . هذا ما جرى على السيدة أرجوان من مصائب الزمان وطوارق الاحداث ، فقد كانت هاربة ومطلوبة مروعة معوزة محواجا قد فارقت ولدها وضيعت فلذة كبدها ثم ردها الله تعالى الى مقر عزها ومحط كرامتها ومقام نعيمها ، الى أن بقيت متشوقة الى أخبار عزيزها عدة الدين الذي كتب الله له أن يكون خليفة للمسلمين وامير المؤمنين . وفي يوم الثلاثاء تاسع جمادى الاخر ورد بغداد الامير عدة الدين أبو القاسم مع جدته وعمته في رعاية المحلبان ، وخرج الناس لأستقبالهم وكان في دخولهم الى زبزب كبير في دجلة فلما بلغ زبزب مشرعة باب الغربة أي شريعة شارع السموءل التي عرفت فيما بعد بهذا الاسم – قدم لعدة الدين فرس يحمله ابن المحلبان على كتفه وركبه على فرسه ودخل به دار الخلافة وسلمه الى جده الخليفة القائم بأمر الله ، فشكره الخليفة وقرت عين أمه أرجوان برؤيته وثابت اليها طمأنيتها وسعادتها

وبقيت طوال خلافة أبنها من سنة 467الى سنة 487 وبقيت على قيد الحياة فأدركت خلافة حفيدها المستظهر بالله وخلافة أبنه المسترشد ورأت البطن الرابع من أولادها وتوفيت سنة 512 . وهي أول سنة من خلافة المسترشد ودفنت في دار الخلافة ثم نقلت في السنة نفسها الى مقبرة الخلفاء العباسيين ، بالرصافة ، على مقربة من قبر الأمام أبي حنيفة . وكانت هذه السيدة كثيرة البر بالمعروف وذكرها أبن الساعي في كتاب (من أدركت خلافة ولدها) وحجت بيت الله الحرام ثلاث مرات ، والذي يظهر لنا من التحقيق من المصادر أنها كانت من السابقات الى أقامة الآثار الدينية ، وأن من جاءت بعدها من النسوة قلدوا خطاها في ذلك ، فأنا الدارسين لخطط بغداد العتيقة نجد أسم (رباط ارجوان) المشيد ببغداد يتردد كثيرا في تاريخ بغداد ، ويتردد مع اسم درب كان لرباط فيه اسم (درب زاخي) وهو اسم سرياني نبطي وهو من الاسماء للأنباط الذي كان لهم أتصال بضياع أرض بغداد الشرقية الحالية قبل أن تبنى وتصبح مدن ، فمن ذلك ما ورد من ترجمة أبي الازهر محمد بن محمد بن حمود المقري الصوفي . كان هذا من أهل واسط وتعلم بها قراءة القرآن المجيد ومن الروايات ثم قدم بغداد وأقام في رباط السيدة أرجوان والدة الخليفة بدرب زاخي وبقي مقيما الى أن توفي سنة 571 هجري ومن ذلك ما ورد في ترجمة ابي شجاع محمد بن منجح ابن عبد الله الواعظ الصوفي تفقه ببغداد على مذهب الشافعي ثم درس بالجزيرة واتقن الفقه وعلم الخلاف ثم خرج الى بلاد الشام وتولى القضاة ببعلبك وأقام بها مدة ثم عاد الى بغداد وسكن الرباط الأرجواني بدرب زاخي على قدم التصوف ، وكان يفتي ويحدث ويعظ وله شعر حسن منه:

سلام من وادي الغضا ما تناوحت . على ضفتيه شمأل وجنوب

أحمل أنفاس الخزامي تحية إذا آن منها بالعشي هبوب

لعمري لئن شطت بنا غربة النوى وحالت صروف دوننا وخطوب

فما كـــل رمـــل جئتـــه رمـــل عـــالج   ومـــا كـــل مـــاء عمـــت فيـــه ســـروب

رعـــى الله هـــذا الـــدهر كـــل محاســـني   لديـــــه، وإن أكثـــــرتهن، ذنـــــوب

ومن شعره قوله :

عـــــذيري مـــــن زمـــــن كلمـــــا   شـــــددت عـــــرى أملـــــي حلـــــها

عـــــرائس فكـــــري قـــــد عنســـــت   لأنـــــي عـــــدمت لهـــــا أهلـــــها

ونفســـــي تنهـــــل مـــــن مـــــورد   تـــرى المـــوت في الـــورد إن علـــها

عليهـــــا مـــــن الـــــدهر أثقالـــــه   ولا يغلـــــط الـــــدهر يومـــــاً لهـــــا

توفي ابن المنجح في سنة 581 وصلى عليه برباط الشيخ أبي النجيب السهروردي الذي قبره فيه ، وهو قبالة دار الضباط التي كانت فيما بعد ، ولعمري لئن لم يقرن اسم هذا الرباط في التاريخ الا الى اسم هذا الفقيه الفاضل الشاعر الواعظ ليستحق التمجيد وتخليد التاريخ ، فكيف وقد كان مباءة للفضلاء ومن شيوخه أي اللذين أداروا أموره- كما يقال اليوم - كريم الدين أبو منصور الحسين بن محمد بن ابراهيم الكاتب كان شيخا لطيفا محبا للعلم فاضلا كتب بخطه كثيرا من الكتب وتوفي في سنة 596 هجري ومنهم أبو منصور الحسن بن علي بن محمد المعروف بابن الكريم الصوفي وهو والد محمد بن الكريم مؤلف كتاب الطبيخ احد الكتب المهمة في الثقافة العربية ، وقد توفي سنة 596 وتولى بعد الرباط المذكور الشيخ عفيف الدين اسفنديار بن البوشجي المنشىء المحدث الواعظ الخطاط

الشاعر، وقد تولى كتابة ديوان الأنشاء للدولة العباسية ببغداد في المحرم من سنة 584 وصرف عنها في السنة نفسها ومن شعره :

وقد كنت مغرى بالزمان وأهله ... ولم أدر أن الدهر بالغدر دائل

أرى كل من طارحته الود صاحباً ... ولكنه مع دولة الدهر سائل

ورب أناس كنت الحظ ودهم ... وما نالني منهم سوى المزق طائل

تغالوا ولائي ثم حلوا سآمة ... وحال بني الأيام لا شك حائل

وأعدم شيء سامه المرء دهره ... حبيب مضاف أو خليل يواصل

أسادتنا قد كنت أحظى بوصلكم ... وأجني ثمار العيش والدهر غافل

وما خلت أن البين يصدع شملنا ... ولا أنني عنكم مدى الدهر راحل

وتالله ما فارقتكم عن ملالة ... ولكن نبت بي المقام المنازل

قطعت الفلا عنهن حين أضعنني ... فافقرن عن مثلي وهن أواهل

وإني إذا لم يقل جدي ببلدة ... هدتني إلى أخرى السرى والعوامل

إذا المرء لم يظمأ لورد مكدر ... فلا بد يوماً أن تروق المناهل

سيعلم قومي قدر ما بان عنهم ... وتذكرني إن عشت تلك المعاقل

ومن شعره :

الدهر بحر والزمان ساحل ... والناس ركب راحل ونازل

كأنهم سيارة في مهمة ... مكاره الدهر لهم مناهل

ومنه :

الـــدهر بحـــر والزمـــان ســـاحل   والنـــاس ركـــب راحـــل ونـــازل

كـــأنهم ســـيارة في مهمـــة   مكـــباره الـــدهر لهـــم منـــازل

وقد توفي اسفنديار سنة 625 هجري في خلافة المستنصر بالله ودفن في مشهد عبيد الله العلوي المعروف بأبي رابعة شرقي الاعظمية .

هذا مختصر عن السيدة قرة العين أرجوان وهذا بعض أخبار الرباط الارجواني ولئن أسترسلنا في تاريخ هذا الرباط لنخرجن كتابا مستقلا فيه من الادب والشعر

السيدة بنت ملكشاه السلجوقية
زوجة الخليفة المقتدي بأمر الله

هي أحدى الخواتين السلجوقيات بنت جلال الدولة ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي ، أشهر ملوك بني سلجوق ، وزوجة الخليفة عبد الله المقتدي بأمر الله العباسي ، وقد أشتهرت بلقب خاتون ولم يشتهر أسمها ، وهذا الامر من غرائب التاريخ الاسلامي ، وألا فكيف يجهل المؤرخون المعروفون أسم سيدة لهج بذكرها التاريخ ، وكانت من كبار السيدات في العالم فضلا عن الممالك الاسلامية ، والدول الشرقية .

كان الخليفة المقتدي لأمر الله معاصرا للملكشاه السلجوقي ، وكانت أمور العراق وغيرها من البلاد الاسلامية موكولة الى السلطان المذكور ، وأتباعه كنظام الملك الوزير الشهير ، ويخطب على منابرها بعد الخليفة المقتدي. وفي السنة السابعة من خلافة المقتدي ، أي سنة 474 هجري خرج الوزير فخر الدولة أبو نصر محمد بن محمد جهير وزيره من بغداد ،قاصدا أصفهان ليخطب الى السلطان ملكشاه أبنة الخليفة المقتدي بأمر الله ، وكان معه هدايا والطاف تساوي عشرين الف دينار تقريبا ، فلما وصل أصفهان خرج نظام الملك الملك الطوسي والآمراء فأستقبلوه ، وبعد أن أقام فخر الدولة ابن جهير بأصفهان ، كلم نظام الملك في خطبة أبنة السلطان على الخليفة ،فقال له نظام الملك : (ما أستقر في هذا شيء فأن رأيتم أن تجربوا الطلب من تركان خاتون والدة الصبية).

وكان نظام الملك أراد أن لا يدخل نفسه في القضية ، فأمره السلطان ملكشاه أن يمضي مع وزير الخليفة الى زوجته تركان خاتون ، ليخاطباها في زواج أبنتها ، فذهبا معا الى والدة الفتاه ، فقال لها وزير الخليفة: (أن أمير المؤمنين راغب في أبنتك) فقالت له : (قد رغب اليّ في هذا ملك غزنة وملوك الخانية بما وراء النهر ، وطلبوها وخطبوها لأبنائهم وبذل كل واحد منهم أربعمائة الف دينار ، فأن أعطاني أمير المؤمنين هذا القدر من المال فهو أحق بها منهم ، وزواجه أحب اليّ) فقال لها الوزير : (رغبة أمير المؤمنيين لا تقابل بهذا) ، وكانت أرسلان خاتون

زوجة الخليفة القائم بأمر الله التي تحدثنا عنها مسبقا حاضرة عندها فعرفتها ما يحصل لها من الشرف والفخر في تزويج أبنتها من الخليفة ، وقالت لها : (ان هؤلاء كلهم عبيد الخليفة وخدمه ومثل الخليفة لا يطلب منه المال).

وجرت في ذلك مراجعات ، أنتهت بقبول الطلب ، بشرط أن يعجل وزير الخليفة المقتدي بأمر الله خمسين الف دينار عن حق الرضاع ، وكان هذا من عادة الاتراك اذ ذاك الزواج ، وأن يكون المهر أي الصداق مائة الف دينار ، فقال لها الوزير : ما بصحبتنا مال معجل الا أن نستطيع أن نحصل ها هنا على عشرة آلاف دينار ، ثم نبعث من بغداد بأربعين الف دينار . فوقع الرضا بين الطرفين وشرع الوزير في تحصيل عشرة الآلاف دينار التي وعد بهافلم يستطع ذلك ، وعلم السلطان ملكشاه بعجز الوزير عن أداة المبلغ فأمر بتأجيل والتأخير ، وأن يرسل المبلغ من بغداد .

واشترطت تركان خاتون أم البنت أيضا على الخليفة ، أن يرسل أمه وعمته ومن يجري مجراها من أهل بيته ، والمحتشمين من اهل البلاد ، وتستقدم خواتين خزنة وسمرقند وخراسان ووجوه البلاد ، ويكون العقد بمحضر هؤلاء جميعا ، واشترطت فوق ذلك أن لا تبقى سرية ولا حظية ولا قهرمانة ، وأن يكون مبيته عند أبنتها فقط. فأجابها الوزير الى ذلك كله ، وأخذ يد السلطان على ذلك نيابة عن زوجته ، وعاد الى بغداد وأعلنت البشائر في بغداد يوم الثلاثاء حادي عشر من صفر سنة 457 ، فكان يوم سرور .

وفي سنة 480 أي بعد الخطبة بخمس سنوات ، دخلت بنت السلطان ملكشاه مع أمها تركان خاتون ونزلتا دار المملكة ، وكان السلطان ملكشاه ببغداد ايضا في حينه بعد فتحه حلب وغيرها من بلاد الشام والجزيرة وفي محرم من تلك السنة نقل جهاز الخطيبة من دار المملكة الى المخزم أي أراضي العيواضية التي عرفت فيما بعد الى دار الخلافة العباسية ، وكان على مائة وثلاثين جملا مجللة بالديباج الرومي وفي ذلك مقادير عظيمة من الذهب والفضة وعلى أربعة وسبعين بغلا مجللة بالديباج الملكي وأجراسها وقلائدها من الذهب والفضة ، وكان على ستة بغال منها أثنا

عشر صندوقا من فضة لا يقدر ما فيها من الجواهر والحلي ، وكان في الجهاز ثلاثة عماريات أي كجاوات ، وكان الخدم ونحو ثلاثة آلاف فارس يسيرون أمام الجهاز والبوقات والطبول تضرب . ومع الموكب ثلاثة وثلاثون فرسا من الخيل الرائعة عليها سروج الذهب المرصعة بأنواع الجوهر ، ومهد عظيم كثير الذهب ، وسار بين يدي الجهاز الأمير سعد الدولة كوهرائين والامير برسق ، وكانا من اعظم أمراء الدولة السلجوقية .

ولما وصل الجهاز محلة نهر المعلى أي محل شارع المأمون وما حوله من محلة باب الآغا ، نثر الناس على السائرين في موكبه الدنانير وثيابا أعلانا منهم بالفرح والسرور ، وكان الناس أمروا – على عادة ذلك الزمان – بتعليق أسباب الفرح وتزيين بغداد ، أستعدادا لزفاف أبنة السلطان ملكشاه الى الخليفة المقتدي ،

وبعد وصول الجهاز بخمسة أيام أرسل الخليفة وزيره – وكان يوم ذاك ظهير الدين أبو شجاع محمد قدوة الوزراء ، الى تركان خاتون عشية الجمعة من محرم سنة 480 وكان بين يديه نحو ثلاثمائة شمعة موكبية ومثلها مشاعل من النفط ، والشمعة الموكبية كبيرة جدا ويسميها البعض من المؤرخين بأسطوانة الشمع أي شمعة مثل الدلك ، ولم يبقى دكان في حريم دار الخلافة أي محلات النصارى ومحلة الرواق وسوق العطارين حاليا الا وقد اشعل شمعة او شمعتين أو أكثر من ذلك ، وكان مع الوزير المملوك ظفر مملوك الخليفة ، ومعه محفة وهي كالتختروان ، لم يرى الناس مثلها .

فلما وصل الوزير الى دار المملكة قال لتركان خاتون سيدنا ومولانا أمير المؤمنين يقول: ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها ، وقد أذن في نقل الوديعة الى دار العزيزة : فقالت : السمع والطاعة للمراسم الشريفة . وحضر وزير السلطان نظام الملك ومن دونه من أرباب الدولة السلجوقية كأبي سعد المستوفي والأمراء ومع كل منهم شموع ومشاعل ، وحضرت نساء الآمراء الكبار ومن دونهن كل واحدة منفردة في جماعتها وتجملها ، وتزاينها وتجاملها وتحاسينهن ، وبين أيديهن الشمعات الموكبيات والمشاعل ، يحملها الفرسان على خيلهم ،

أحاطت بها مائتا جارية تركية على الخيل المطهمّة ، وسار موكب العرس العروس من دار المملكة الى دار الخلافة وأدخلت على الخليفة المقتدي بأمر الله ، وكانت تلك الليلة من الليالي البديعة الجميلة في تاريخ بغداد ، وفي تلك الليلة خرج السلطان ملكشاه الى الصيد خارج بغداد ، على عادة الملوك يوم تزويج بناتهن ، وفي صباح تلك الليلة أقام الخليفة المقتدي لأمراء السلطان وعسكره وليمة عظيمة ، أستعمل فيها اربعين الف من السكر ، وخلع على الأمراء والكبار ، وأرسل الى خاتون أم زوجته بخلع عظيمة ، والى جميع الخواتين على حسب أقدارهن - الخلع كانت أما الهدايا أو قطع الذهب او الملابس وكل حسب قدره ولا زالت تستعمل عند البعض الى يومنا هذا - .

وعاد السلطان ملكشاه بعد الصيد الى بغداد ، ودخل محلات نهر المعلى وشاهد التعاليق المعلقة للفرح بزواج أبنته ، ونثرت عليه مقادير كبيرة من الدنانير ، ثم رتب لابنته زوجة الخليفة ديوانا ووزيرا يعرف بمعزة الملك وكاتبا يسمى أبا الحسن بن حكار ، وبعد ذلك خرج قاصد أصفهان.

ومن سمع أخبار هذا الزواج العظيم وأنباء هذا القدر من الانفاق ، والتجمل الكثير في أثاث الجهاز ، ظن أن ذلك السعادة والهناء بأعيانها ، ولكن الامر لم يكن كذلك ، فأن هذه الخاتون ولدت في شهر ذي العقدة من سنة 480 أي سنة زواجها ولدا ذكرا فسماه أبوه الخليفة المقتدي (جعفر) وكناه بأبي الفضل ، وزينت بغداد لأجل ذلك وكأن حب المقتدي لها أنتقل الى أبنها وصار الحب الزوجي حبا لولده وهذا لا تصبر عليه النساء فأنهن يرغبن بحب مزدوجا هي وأبنائها .

وأخذت الخاتون تشكو زوجها الى أمها وأبيها ، وتذكر لهما أنها كثير الاطراح والاعراض عنها ، وأكثرت في ذلك فبعث السلطان ملكشاه ، الى بغداد سنة 482 رسولين هما بزان وصواب ليطلبا الى الخليفة الأستذان في سفر خاتون الى أصفهان عاصمة الدولة السلجوقية ، فأذن لها الخليفة في ذلك بعد التلكؤ ، فخرجت من بغداد وكان ذلك بعد سنتين من زواجها وأخذت معها أبنها الامير أبا الفضل جعفر أبن المقتدي بأمر الله ، وخرج للتوصيلها سائر أرباب الدولة ومعهم الوزير

أبو شجاع الى بلدة نهروان وكان يسير بين يديه محفة الامير ابي الفضل ، هو والامير سعد الدولة كوهرائين ، وخدم دار الخلافة وسار معها الى أصفهان النقيبان ، نقيب بني العباس ونقيب لآل ابي طالب ، فوصلت الى المدينة المذكورة ، فجدرت هناك وتوفيت بالجدري ووصل نعيها الى بغداد فجلس الوزير للعزاء سبعة أيام وأكثر لها الشعراء من الرثاء لها ببغداد ، وكانت هذه الحادثة الأليمة مما أوهى الاتصال بين الخليفة المقتدي والسلطان ملكشاه ، حتى عزم السلطان على تشعيت أمر المقتدي ، واخراجه من بغداد الى حيث يشاء ، ولكن حال الموت دون تنفيذ امره – أعني السلطان ملكشاه توفي في سنة 585 ودفن في مقبرة الشويتري أي مقبرة الشيخ جنيد الحالية ، وهذا ما وصلنا اليه من سيرة الخاتون ام جعفر أبي الفضل زوجة المقتدي لأمر الله أبنة السلطان ملكشاه السلجوقية ....

كوموش (عصمت) خاتون زوجة الخليفة المستظهر
زوجة الخليفة المستظهر بالله العباسي

هي الخاتون بنت ملكشاه الثانية ، زوجة الخليفة المستظهر بالله ابن المقتدي بأمر الله ، وأخبارها على قلتها عجيبة وغريبة ،، وزوجها الخليفة أحمد المستظهر بالله ولي الخلافة في سنة 487 ، بعد وفاة أبيه المقتدي بامر الله وكان المستظهر بالله أبن ستة عشر سنة وشهرين حد ولايته للخلافة ، وفي سنة 502 أراد أن يتصل بالسلاجقة بالمصاهرة وكان سلطانهم محمد بن السلطان ملكشاه ، وكانت في حمايته الخلافة العباسية ، فخطب اليه الخليفة المستظهر بالله أخت الخاتون بنت ملكشاه الثانية ، فأجابه الى خطبته ، وأجرى عقد الزواج بمدينة أصفهان عاصمة الدولة السلجوقية ، في يوم الجمعة الثاني والعشرون من شعبان سنة 502 المذكورة ، وكان وكيل الخليفة وزير السلطان محمد وهو نظام الملك الصغير احمد بن نظام الملك الكبير وخطب خطبة الزواج الفقيه ابو العلاء صاعد بن محمد الحنفي النيسابوريّ، على صداق مقداره مائة الف دينار ، على عادة الخلفاء والسلاطين أنذاك ونثر في العقد دنانير وجواهر ، وبقيت الخاتون باصفهان حتى سنة 504 ، ففيها بعث الخليفة المستظهر بالله القاضي زين الاسلام محمد بن نصر الهرويّ، الى أصفهان ،لا ستحضار زوجته الخاتون ، في تلك السنة في يوم السبت الثامن والعشرون من رجب جاء بها الى بغداد ، وكان أخوها السلطان ملكشاه ببغداد ، فنزلت عنده بدار المملكة ، ثم نقل جهازها في شهر رمضان ، على مائة واثنين وستين جملا وسبعة وعشرون بغلا ، وكان في الجهاز جوار مزينات يمشين بين يدي محفة الخاتون ، وجنائب ومهور ، وزينت بغداد وأغلقت الاسواق ونصبت القباب ، وهي كأقواس النصر والظفر ، وتشاغلت اهل بغداد بالفرح ، وكان زفاف الخاتون الى المستظهر بالله في ليلة العاشر من شهر رمضان وكانت ليلة زفافها من ليالي السرور العظيمة، وكان للمستظهر زوجة ست السادة نزهة وكانت صفراء .

أنتقلت من بيت السلطنة الى بيت الخلافة ، فكان ذلك أشد خفاء لأخبارها واحوالها ، وبعد التحقق وجدنا لها أخبار أخرى في حوادث سنة 517 وهي بناء

سور على بغداد الشرقية ، آي بغداد التي كان يبتدىء سورها من فوق القلعة نحو الشرق الى جهة قبر الشيخ عمر السهروردي ، ثم باب الشيخ حتى الباب الشرقي ، فأن الخليفة المسترشد بالله بن المستظهر بالله وأمه نزهة ضرة الخاتون المذكورة ، وهو الذي تولى الخلافة بعد أبيه ، وكانت وفاة أبيه سنة 512 ، فالخاتون اذن عاشت مع زوجها الخليفة المستظهر بالله ثماني سنوات وتوفي عنها ، وكان لها مال واقطاع أي مقاطعات ، وسلطة كبيرة لأن أخوتها كانوا سلاطين العالم الشرقي وهم السلطان محمد والسلطان بركيارق والسلطان سنجر وكما أسلفنا فأنه تم ذكرها في بناء السور في 517 وتفصيل ذلك الخبر أن المسترشد بالله أمر في هذة السنة ببناء سور ، ليحصن بغداد ويعيد الى الدولة العباسية أستقلالها ، أن الدفاع داخل الاسوار كان من قواعد الحروب في ذلك الزمان ، وكان أهل بغداد يعملون في بناء السور أهل كل محلة منهم أسبوعا ، ويخرجون بالطبول والصنجات والملاهي ، ومن آثار ذلك السور باب الظفرية الذي عرف فيما بعد بالباب الوسطاني ، ورأى الخليفة المسترشد بالله في تلك الايام فرصة لعمل ختان الطهور لأبنائه وأبناء أخوته ، وكانوا أثني عشر صبيا ، فأذن للناس أن يقيموا الفرح ، ويعلقوا أدوات السرور وآلات الابتهاج ، فعلقوا الثياب والديباج والجواهر ، وظهر لهم من ذلك منظر رائع الجمال والمال ، وعملت الخاتون بنت ملكشاه زوجة الخليفة المستظهر بالله قبة باب النوبي ، والقبة كما قلنا تشبه قوس الظفر في عصرنا ، وباب النوبي كان أحد أبواب دار الخلافة العباسية ، فوق أرض جامع الخاصكي بقليل ، وعملت قبة ثانية بدرب الدواب ، وهو درب محلة الرواق ، وكان في القبة غرائب منحوته وأشياء عجيبة ، ونصب عليها ستران من الديباج الرومي ، مقدار كل واحدة منهما عشرون ذراعا في عشرون ، وعلى أحدهما أسم الخليفة المتقي لله وعلى الاخرى اسم المعتز بالله ، واظهر للناس أشيائهم المخباة وجواهرهم المكنوزة ، وعرضوها في سبع ليالي بلياليهن.

وفي سنة 526 في خلافة المسترشد بالله ، تكلم أهل بغداد في الخاتون المذكورة بسبب شاب يعرف بابن المهتر أي رئيس الفراشين ، فقتله الخليفة ، وأظهر للناس أن هرب ، وأحضر مملوك خاتون واسمه نازح أو هو مصحف الاسم فقيل له: (أنت

حافظ الخاتون وقد قذفت بالزنا مع أبن المهتر) فصفعوه وأخذوا خيله وقريته وأما الخاتون فأن أبن زوجها المسترشد بالله ، أخذ منها مقاطعتها ، وطرد خدامها ومماليكها ، وأقام معها في دارها من يحفظها ، وكتب الى أخيها السلطان سنجر بالقضية ، وكان سنجر سلطان خراسان وأكبر السلاطين من بني السلجوق ، يستأمره في أمر أخته الخاتون ، وأشتهر أمرها بين الناس : وكتبت الى أخيها السلطان سنجر تشكو المسترشد ، واذا كانت القضية تمس عرض الامبراطورية السلجوقية ، فضلا عن عرض الخلافة العباسية ، قامت بين الدولتين عداوة زرقاء ، ونشأ حقد وبغض ، نسي فيها الدين وتزلزل قي اليقين ، فقد قيل أن السلطان سنجر كتب الى أخته أنه عازم على الفتك بالخليفة المسترشد بالله، بما فضح بيت السلجوقي ، فضيحة لا يزولها ذكرها على مر الدهور وكر العصور ، وعلم الخليفة المسترشد بالله أن السلطان سنجر في جانب أخته عليه ، فانه أخذ منها الكتاب الذي أرسله أخوها ، وهيجه مما رأى فيه من التوعد والتهديد ، فحمله ذلك على الخروج الى قتال سنجر ، وقطع خطبته في بغداد والنواحي الاخرى للبلاد ، والخطبة بالسلطنة لمسعود بن محمد بن ملكشاه ، ومن بعده لداود بن محمود بن محمد بن ملكشاه وهو ابن اخي مسعود ، ثم تحدى السلجوقيين الا واحد منهم على الخليفة ، وخرج الى حربهم ، فكسروا جيشه قرب همذان وأسروه ، ثم بعثوا عليه رجالا فقتلوه في خيمته سنة 529 ومثلوا به أقبح ثمتيل : جدعوا أنفه وأذنيه وتركوه عريانا ، وكان في ذلك الثمتيل دليل على الانتقام للعرض ما تفعله الاقوام الوحشية ، وأتهم السلجوقيين بهذه الجريمة الشنيعة الاسماعلية الباطنية ليخلصوا منها.

وبقيت الخاتون في بغداد بعد قتل المسترشد بالله، وكان لها أثر محمود في حصار بغداد سنة 530 ، فأن السلطان مسعود حاصر فيها الخليفة الراشد أبن المسترشد ، وخاف أهل بغداد فحمل الكثير من أموالهم ، الى دار الخليفة ودار خاتون ، ثم خرج الخليفة الراشد من بغداد رابع عشر ذي القعدة بعد أن سلم دار الخلافة ومفاتيحها للخاتون ، فأخرجت أصحابها لحفظ باب النوبي من أبواب دار الخلافة ، وترك الراشد نساءه واولاده عند الخاتون أيضا ، ثم دخل السلطان مسعود

بغداد ظافرا واخذ جميع ما كان للراشد من مال والمقاطعات فمضت اليه الخاتون وهو بدار المملكة ومرت بمضيها سوق الثلاثاء ،آي سوق الآغا كما عرف فيما بعد وما يتصل به من الاسواق ، وبين القواد والجنود والأتراك وأستعطفته واسترحمته ، فرد على أهل الراشد جميع ما أخذ على التقريب وحرر لهم مكان في ملكهم من المقاطعات ، وعظمت منزلة الخاتون فيما بعد وأستوزرت لنفسها صاحب مخزن الخلافة وكان كوزير المالية ، وكانت لها مقامة محمودة أيضا في سنة 532 ، فأن السلطان مسعود أستولى على بلاد بني دبيس الاسدي المزيدي ، من الحلة وغيرها من سقي الفرات ، وبقوا في ضيق شديد فأرسلوا أختهم سفرى بنت دبيس ابن صدقة ملك العرب ، الى الخاتون زوجة المستظهر بالله تستشفع بها الى السلطان مسعود ، ليعيد عليها ما أخذ منها وشكت اليها الضرّ ، وكانت سفرى بنت دبيس هذه من زوجتيه كهار خاتون بنت عميد الدولة محمد بن محمد بن جهير الوزير ، وكانت سفرى في غاية الجمال ، فوصفتها الخاتون للسلطان مسعود فقال لها : أحضريها عند حتى أحضر القضاة وأتزوجها ،ففعلت وتزوجها وأمر الوزير أن تزين بغداد لزواجه سيعة ايام ، فظهر في التزين فساد عظيم بضرب الطبول والزمور والحكايات أي الثمتيل الهزلي ، وشرب الخمر جهرا . هكذا قال أحد المؤرخين وكتب.

وفي سنة 533 وصل رسول من طغرل بك بن قاورت السلجوقي ملك كرمان الى السلطان مسعود يخطب اليه عمة أبيه الخاتون زوجة المستظهر بالله ، وكان بين موت زوجها الخليفة وخطبتها الثانية أحدى وعشرون عاما ، وكان مع الرسول تحفة حسنة ، فأرسل السلطان مسعود وزيره الى دار الخاتون فأستأذنها بالزواج بتزويج نفسها بالملك المذكور ، فأذنت له ، فحضر القضاة دار المملكة ووقع العقد في ثامن عشر من صفر من عام 533 على صداق مقداره مئة الف دينار ، ونثرت فيه الدراهم والدنانير – كما جرت العادة في ذلك الوقت – ثم سيرت الخاتون الى

كرمان فماتت عندما وصلت الى هناك وذلك في سنة 536 في خلافة المقتدي لأمر الله ، وجاء الخبر الى بغداد بموتها فجرى لها العزاء يومين في الديوان ، قال احد المؤرخين : وكانت دارها ببغداد حميّ للناس واها هيبة واصحاب في خدمتها وبقيت اخبارها قليلة كما قلنا ، فآنها آثرت في السياسة وفي التاريخ وأحدثت عداوة في بيت الخلفاء والسلاطين السلاجقة ، بشذوذ سيرتها وأتيانها أمرا، أما زوجها الثاني طغرل بك قاورت السلجوقي ملك كرمان فقد توفي سنة 565 أي بعد زواجهم بتسع وعشرين سنة ، وهذا يدل على التفاوت في الاعمار وعلى أن الزواج كان لصيانة الشرف لا غير .

فاطمة خاتون
بنت السلطان محمد السلجوقي

فاطمة خاتون بنت السلطان محمد بن ملكشاه بن الب أرسلان وزوجة الخليفة العباسي العظيم المقتفي لأمر الله ، ومحي شرف الدولة العباسية ومعيد أستقلالها ومجد جلالها وقاصم ظهور الاعداء ورافع لواء المنصور ،

لم أجد عن هذه الخاتون تاريخ ميلادها أو نشأة صباها وهي كسائر الاميرات وبنات السلاطين والملوك ، ولولا تزوج بها الخليفة المقتفي بأمر الله لطوى الزمان أسمها ، فتاريخنا تاريج رجال .

كان لفاطمة خاتون خمسة أخوة ،محمود ومسعود وطغرل وسليمان وسلجوق ، وصار منهم اربعة سلاطين في الدولة السلجوقية ، والذي لم يخطب بالسلطنة هو سلجوق ولم أجد ذكرا لأخواتها وكانت تقرأ وتكتب وذلك كان نادرا في بنات تلك العصور وأن كن سليلات السلاطين .وسبب زواجها أن السلطان سنجر بن ملكشاه وأبن أخيه السلطان مسعود – أعني عمها وأخاها- بعد أن توطآ على قتل الخلفتين العباسين المسترشد بالله والراشد بالله قبحت سمعتهما ، ونفرت منهما قلوب الرعايا ، وطعن الناس على عقائدهم فأرادا أن ينفيا عن أنفسهم تلك الجريمة الفظيعة ، فزوجا أبا عبد الله بن محمد المقتفي لأمر الله فاطمة خاتون ، وطلبا اليه أن يزوج أبنته زبيدة بالسلطان مسعود ، وكان زواج السيدة زبيدة على قاعدة زواج السيدة بنت القائم بأمر الله العباسي بطغرل بك ، أي أن لا يلامسها حتى يفرق الموت بينهما ، لأنها عباسية وهو تركي لم يكن كفؤا لها ، وقد أراد بذلك أن يظهرا للناس تعلقهما بالدولة العباسية وأخلاصهما لبني عباس ، والمصافاة لهم ، وهكذا تكون أعمال المرائين ومكائد المجرمين يقتلون بيد ويصافحون بيد .

وفي شعبان من سنة 531 عقد للمقتفي لأمر الله على فاطمة خاتون ببغداد وكان مبلغ صداقها مائة الف دينار وهو صداق نادر في ذلك التاريخ ، وكان وكيل المقتفي لأمر الله شرف الدين أبو القاسم علي بن طراد الزيني العباسي ، وحضر

العقد أخوها السلطان مسعود وأكابر الدولة ، ونثرت في العقد الجواهر والدنانير وحب اللؤلؤ وتماثيل وكافور وعنبر ، وفي سنة 534 دخلت فاطمة خاتون بغداد بصحبة أخيها السلطان مسعود ، وأقامت عنده بدار االمملكة وكانت في محلة العلوازية ، ثم زفت في جمادى الآخر ، وقيل في الاول الى الخليفة المقتفي في زي عجيب وموكب مهيب ، وكان في موكب زفافها زوجة السلطان مسعود سفرى بنت دبيس بن صدقة الاسدي المزيدي ملك الحلة ، وأميرة سلجوقية من كبيرات الاميرات والوزير شرف الدين الزينبي ، وموكب الدولة العباسية وفيه المهد ، وهذا المهد شيء مستحدث أتخذته الدولة العباسية في مواكبها على نحو سكينة بني أسرائيل ، وزينت بغداد عشرة أياما أبتهاجا بذلك الزواج العظيم المشهود ، وقد وصفت هذه السيدة على قلة أخبارها بالتدبير الصائب والرأي الحسن ، ومن أخبارها أنها كانت ذات ليلة من سنة 541 مع زوجها الخليفة في قصر من القصور لدار الخلافة مشرف على مشرعة باب الغربة ، - اي الشريعة التي عرفت فيما بعد- وكانت تعرف أيضا بمشرعة الابرلين أي باعة الابر ، فاحترق القصر كله من شمعة كانت بيد جارية من جواري السيدة لأن نارها علقت بأطراف خيش وهو نسيج كالجنفاص ، كان يستعمل للمراوح في الصيف وخرج المقتفي وفاطمة الخاتون ليلا من القصر هربا من النار واحترق في القصر أثاث عظيم والآت كثيرة وزي رائع ، ولما أصبح المقتفي ،اطلق المسجونيين وتصدق على الفقراء بأموال كثيرة وشكر الله على سلامته وسلامة زوجته، وسكنت فاطمة خاتون بعد ذلك قصرا في دار الخلافة يعرف بدركاه خاتون أي قصر الخاتون ، وهي زوجة الخليفة المستظهر بالله العباسي ، والحي الذي كان حوله من داخل سور دار الخلافة عرف بالخاتونيتين ، الخاتونية الداخلة والخاتونية الخارجة ، وكان ذلك القصر من أبنية الخليفة المستظهر بالله والد المقتفي لأمر الله ، ولم تعش فاطمة خاتون في دار الخلافة العباسية عيشا طويلا ، فأنها توفيت في يوم السبت الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر من سنة

542 ، وصلى عليها الشريف الأكمل نور الهدى نظام الحضرتبين أبو القاسم علي بن الحسين الزينبي الحنفي ، قاضي قضاة الدولة العباسية ، في صحن السلام بقصر التاج ، ثم حملت جنازتها من دار الخلافة في زبزب وهو نوع من السفن في تلك العصور وأصعدوا بها الى ترب العباسين أي مدافنهم في محلة الرصافة في جنوبي محلة الامام أبي حنيفة النعمان بن ثابت .

ودفنت فاطمة خاتون هناك قرب مدفن الخليفة المستظهر بالله والد زوجها داخل القبة ، وكان ذلك تعظيما لها لان الرصافة كانت مقبرة خاصة للعباسين فحسب ، ولا يدفن فيها الا العباسيون والعباسيات ، ومن أسرة الخلفاء وقد زال قبرها بزوال قبر المستظهر بالله وغيره من القبور بني العباس ، فأن هولاكو الجبار لما حاصر بغداد سنة 656 أحرق مقابر الخلفاء بالرصافة ونبش قبورهم وبرزت منها الرؤوس والعظام وفي ذلك قال شمس الدين محمد بن عبيد الله الكوفي الشاعر الواعظ وقد رأى ما فعل التتار بالقبور :

ان تـرد عـبرة فتلـك بنـو العبـاس حلـت علـيهم الآفـات

أسـتبيح الحـريم اذ قتـل الأحيـاء مـنهم واحـرق الامـوات

وقد ذكر أبن بطوطة قبور بني العباس بالرصافة ذكرا يشك فيه لانه سد أسمائهم من المهدي الى المعتصم بالله وقال: وعلى كل قبر منها اسم صاحبه وفي أقواله مجازفة وسهو – كما هو ظاهر للمحققين في التاريخ .

ومن الغريب أن هذه السيدة الجليلة النبيلة لم تترك شيئا من الآثار في بغداد ولا في غيرها ، وأن بقاءها ثماني سنوات في عصمة الخليفة المقتفي لأمر الله كان كافيا في اتيان عمل من الاعمال الصالحة الباقية ، وقد ذكرها العالم الخططي كاي تسترتج الانكليزي في كتابه الخططي الموسوم ببغداد في عهد الخلافة العباسية وقال : أشتهرت بكونها أميرة ذات عقل وعلم وسلطان وقدرة في الشؤون السياسية اذ

ذاك، وقد وافتها المنية في دركاه خاتون سنة 542 قبل وفاة زوجها المقتفي لأمر الله فدفنها في قبور الخلفاء في الرصافة . وفي أقواله تزيد وتسمح وتساهل . والظاهر أنه نقل ما ورد في وفيات الاعيان أستطرادا فقد قال مؤلفه : ويقال ان فاطمة خاتون كانت تقرأ وتكتب ولها في التدبير الصائب ، وسكنت في الموضع المعروف بدركاه خاتون وتوفيت في عصمة المقتفي يوم السبت الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة 542 ودفنت بالرصافة رحمة الله عليها . هذا قول مؤلف الوفيات وبين القولين فرق مبين وأن كان الرجل مثنيا ثناء حسنا .

السيدة بنفشة

{ سيرتها وآثارها ، ومدرستها وقبرها }

كانت هذه السيدة في أول أمرها مملوكة رومية من الجواري اللاتي أفضت النخاسة بهن الى دار الخلافة العباسية ، فمنهن من أصبحن بعد أعتاقهن من رقهن سيدات ، ومنهن من أصبحن أمهات للخلفاء والامراء ولما كانت المرأة قليلة الحظ في التاريخ الاسلامي لم يكن غريبا أن نعرف تاريخ النساء في التاريخ الاسلامي للبعض منهن مثل السيدة بنفشة الذي كان سيدها المستضيء بأمر الله تقيا وورعا ومستقيم السيرة عادلا الا أنه كان مستضعفا عاجزا عن الاضطلاع بأمور الخلافة مسكينا ،فكثرت الاضطرابات في عهده وتنافس الأمراء والوزراء في الاخذ بزمام السلطان ، واستدعى ذلك أحياء العصبيات المذهبية ، وطمع الدولة السلجوقية في تجديد حكمها في العراق بعد أنقراضه ، وتنقص ملوك الاطراف وأمرائها لأطراف العراق ثم أنتهى ذلك كله بموت الامام واستخلاف ابنه الخليفة الهمام الناصر لدين الله .

وكان للمستضيء بأمر الله جارية أخرى أسمها زمرد خاتون وكانت المنافسة بينهما طبيعية وكل منهما تلقب بالجهة ، وهي كناية عن السيدة العظيمة من سيدات الخلفاء والسلاطين . الا أن زمرد خاتون ولدت لسيدها من الاولاد فصارت حرة بعد أعتاقها أو ولادتها وتأثل لها فضل عظيم في ذلك . وكانت بنفشة حنبلية المذهب وزمرد شافعية المذهب ، وكانت على شافعيتها تعطف على الحنابلة وتحسن اليهم وترعى مصالحهم طول خلافة زوجها المستضيء بأمر الله والمدة التي عاشتها من خلافة أبنها الخليفة الناصر لدين الله ، وهذا أمر يدل على التسامح المذهي النبيل .

ومن أجمل آثار بنفشة مدرسة كانت أتخذتها للحنابلة سنة 570 في باب الشعير بباب الأزج من بغداد – باب الأزج اسم المحلة كبيرة كانت تسمى بها

المواضع التي تشمل محلة السلطان علي ورأس الساقية حتى تربة الشيخ الجليل عبد القادر الجيلي المعروف بالجيلاني .

قال جمال الدين أبو الفرج ابن الجوزي في حوادث هذه السنة : {وفي يوم الخميس خامس عشري شعبان سلمت اليّ المدرسة التي كانت دارا لنظام الدين بن أبي نصر (المظفر بن علي بن محمد) بن جهير وكانت قد وصلت ملكيتها ، الى الجهة المسماة بنفشة فجعلتها مدرسة وسلمتها الى أبي جعفر بن الصباغ ، فبقي المفتاح معه أياما ثم أستعادت منه المفتاح وسلمته اليّ من غير طلب كان مني وكتب في كتاب الوقف (انها المذكور بذكر الدرس في المرسة ، فحضر قاضي القضاة وحاجب الباب وفقهاء بغداد وخلعت علي خلعة نفيسة ، وخرج الدعاة بين يدي الخدم ، ووقف أهل بغداد من باب النوبي الى باب المدرسة كما يكون في العيد وأكثر وكان على باب المدرسة ألوف ، والزحام على الباب ، فلما جلست لالقاء الدرس عرض كتاب الوقف على قاضي القضاة وهو حاضر مع الجماعة فقرىء عليهم وحكم به وأنفذه ، وذكرت في ذلك الدرس فألقيت يومئذ دروسا كثيرة من الاصول والفروع وكان يوما مشهودا لم ير مثله .}

وكان قد أشار الى هذه المدرسة في حوادث سنة 542 لأبن الجوزي وقال : عزل (نظام الدين المظفر بن علي بن محمد) أبو نصر بن جهير في ربيع الاول عن الوزارة وسكن بالدار التي بناها بشاطىء بباب الازج وهي التي آل أمرها الى أن صارت ملكا لجهة المستضيء بأمر الله {بنفشة} فوقفتها مدرسة لأصحاب احمد بن حنبل ، وسلمتها اليّ ، فدرست فيها سبعين وخمسمائة وأشار الى هذين الخبرين أبو المظفر يوسف المعروف بسبط ابن الجوزي ، وقال زيادة على ما ذكر جده وهي اليوم سنة 654 تعرف بمدرسة ابن الجوزي وأن بنفشة وقفت على المدرسة قرية ، وأن الذين أجتمعوا في الطرق يوم افتتاح المدرسة ينيف عددهم على خمسين الف انسان وأشار الى وقف القرية على المدرسة تاج الدين بن الساعي وسيأتي النقل عنه.

وهذه المدرسة التي رأى الأديب الرحالة ابن جبير سنة 580 هجري أبن الجوزي فيها ، وسمع دروسه وظن انها دارة مع أن كثيرا من مدرسي تلك العصور وكانوا يسكنون في المدارس التي يدرسون فيها . قال أبن جبير { ثم شاهدنا صبيحة يوم السبت (13 صفر سنة 580)... أي مجلس الفقيه الامام الأوحد جمال الدين أبي الفضائل (عبد الرحمن) بن علي الجوزي بازاء داره على الشط بالجانب الشرقي وفي آخره على أتصال من قصور الخليفة وبمقربة من باب البصلية – باب البصلية هو الباب الشرقي ، وكان باقيا فيما بعد فهدمته بلدية بغداد وأزالت آثار من آثار السلف – آخر أبواب الجانب الشرقي وهو يجلس به كل يوم سبت ، فشاهدها مجلس رجل ليس من عمرو ولا زيد وفي جوف الفراكل الصيد آية الزمان وقرة عين الايمان ورئيس الحنبلية ... ثم قال مكررا وصف هذا المجلس العظيم . وحضرنا له مجلسا ثالثا يوم السبت الثالث عشر لصفر بالموضع المذكور بازاء داره على الشط الشرقي ، فأخذت معجزاته البيانية مأخذها فشاهدنا من أمره عجبا.}

وسميت هذه المدرسة أيضا بالمدرسة الشاطئية لكونها واقعة على شاطىء دجلة وهذا تسامح في التسمية لأن عدة مدارس كانت على اللشاطىء في ذلك العصر منها مدرسة ثقة الدولة الأنباري ومدرسة أبي النجيب السهروردي والمدرسة الموقفية ومدرسة عز الدين سعادة بن عبدالله المستظهري وقد جاءت تسمية الشاطئية في سماع نسخة من كتاب الانساب المتفقة في الخط المتماثلة في النقط والضبط لأبي الفضل محمد بن طاهر المقدسي ، بخط ابن الجوزي نفسه ، وهذا بعض نصه : كتبه عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي حامدا لله تعالى ومصليا على رسوله محمد وآله ، وقع الفراغ منه في ليلة الخميس ثالث عشر جمادى الآخرى من سنة 575 بالمدرسة الشاطئة من باب الازج والحمد لله.

وفي هذه المدرسة أمتحن ابن الجوزي – أعني أصابته محنة على حسب ما ذكر سبطه– وذلك في سنة 590 ، لأنه كان من أعوان الوزير عبيد الله بن يونس الحنبلي، وكان هذا الوزير عدوا لأبناء الشيخ الزاهد عبد القادر الجيلي الحنبلي ، فلما قبض على الوزير المذكور سلط ركن الدين عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر

الجيلي على أبي الفرج بن الجوزي في السنة المذكورة ، وتولى هو أعتقاله ، قال سبطه (وكان جدي يسكن بباب الازج بدار بنفشه وكان الزمان صيفا وجدي جالس في السرداب يكتب وأنا صبي صغير فما أحسسنا الا بعبد السلام واذا به قد هجم على جدي في السرداب وأسمعه غليظ الكلام وختم على كتبه وداره وبى عياله وجرى عليهم ما لم يجر على أقل الناس ....)

وبعد هذه الحادثة أسند التدريس في مدرسة بنفشة الى ركن الدين عبد السلام المذكور حفيد الشيخ العابد عبد القادر الجيلي ، فدرس فيها الفقه الحنبلي ، ودرسّ بعده في هذه المدرسة الشيخ العلامة عماد الدين أبو صالح نصر بن تاج عبد الرزاق بن عبد القادر الجيلي .

وأمرت السيدة بنفشة أيضا في سنة 570 بعمل جسر لبغداد اذا لم يكن لها الا جسر واحد قمد هذا الجسر الجديد من الدواليب بباب الغربة الى رقة ابن دحروج بالجانب الغربي . وكما كان لهذه السيدة الآثر الحسن في جعل الخلافة للأمام ابي العباس احمد بن الناصر لدين الله وتنحية أخيه أبي منصور هاشم عنها وذلك لأن المستضيء بأمر الله كان هو وجماعة من أرباب دولته يخشون الأمير أبا العباس المذكور فأعتقله خوفا منه ولما أحس المستضيء بدنو الاجل أراد أن يعهد الى الامير ابي منصور هاشم فقالت له الست بنفشه الله الله أن تعدل عن ابي العباس فكانت هذه الكلمة الراجحة الناجحة فرعى الناصر لدين الله ذلك لها .واحسن اليها أعظم الاحسان وأنزلها في الدار التي كانت تسكن والدته بها زمرد خاتون .

وذكر للسيدة بنفشة بأنها قد بنت رباطا (تكية) للنساء المتصوفات (الدرويشات) وقال السيوطي ، ناقلا من تاريخ محب الدين محمد بن محمود النجار المؤرخ { وبنفشا الرومية مولاة المستضيء بالله كانت صالحة كثيرة الخيرات والمبرات . قال ابن النجار :أنها كانت في عيد الفطر كل سنة تخرج زكاة الفطر صاعا من التمر وتقول: هذا ما فرضه علي الشرع وأنا لا أقنع من مثلي (كذا) فتخرج صاعا من ذهب العين دنانير متفرقة على الفقراء وذكرها ابن الكثير في البداية والنهاية (ج 13 ص 34) يالثناء الحسن ولم يكن أحسانها مقصورا على هذه

الانواع المذكورة بل تعدتها الى مجاملة العلماء وتطيب نفوس الفضلاء بمثل ما ذكره الامام ابن الجوزي من اخبار خطبة ابنته رابعه وزفافها قال في حوادث سنة 572 ما نصه { وزفت ابنتي رابعة ليلة الاربعاء ثاني عشر المحرم الى زوجها وكان زفافها في دار الجهة المعظمة في درب الدواب وحضرت الجهة وذلك بعد أن جهزتها بمال كثير } وقال السبط وهذه رابعة هي والدتي تزوجها ابن رشيد الطبري وهو أول أزواجها ولم يطل عمره معها ثم زوجها جدي بوالدي بعد موت ابن رشيد وقد سمعت الحديث ، وزفت الى ابن رشيد في المحرم سنة 572 في دار الجهة بنفشة جهة الخليفة وجهزتها بمال عظيم ....ما قصد جدي بهذا الكلام الا الاعلام بمكانته وعلو منزلته عند الخليفة ، وأن احد من أبناء جنسه لم يصل الى مرتبته .

وذكرها تاج الدين بن الساعي قال: كان لها بر معروف وصدقة جارية وقفت بباب الأزج على دجلة على فقهاء الحنابلة ووقفت عليها قرية وذكر ما قدمنا ذكره ثم قال : ولها بطريق مكة آثار جميلة وقال المؤرخ الكبير شمس الدين الذهبي: كانت أحب سراري المستضيء بأمر الله ..... وكانت كثير الرغبة في أفعال البر وذات دعابة وروح خفيفة .

توفيت السيدة بنفشة في التاسع والعشرين أو التاسع عشر من شهر ربيع الأول سنة 598 ذكر ذلك ابن الساعي والذهبي والسيوطي وابن النجار قال سبط ابن الجوزي : ولما توفيت تولت أمرها والدة الخليفة الناصر لدين الله الجهة زمرد خاتون ، وجهزتها أحسن جهاز ودفنتها في تربتها المجاورة لمعروف الكرخي وذلك في ربيع الاول وقال ابن الساعي : وصلي عليها بالجانب الغربي عند التربة المجاورة لقبر معروف الكرخي ودفنت بها .

هذا التحقق الذي وصلت اليه بسيرة هذه السيدة النبيلة الجليلة وتاريخ آثارها وهي قدوة السيدات الفاضلات .

السيدة زمرد خاتون
زوجة الخليفة المستضيء بأمر الله

زمرد خاتون كانت سيدة من سيدات دار الخلافة العباسية ، وهي أم خليفة وزوجة خليفة من خلفائهم ، وتعرف اليوم قبة قبرها ، بقبة الست زبيدة عند مدفن الشيخ الزاهد العابد معروف الكرخي ، في الجانب الغربي من بغداد ، وقد رممت القبة غير مرة كما هو ظاهر فيها ، وآخر من رممها الوالي كاظم باشا نسيب السلطان عبد الحميد العثماني الثاني .

هذه السيدة كانت هذه السيدة في اول أمرها فتاة تركية مملوكة وكانت جارية للأمير أبي محمد الحسن بن يوسف العباسي الذي تولى الخلافة ولقب بالمستضيء بأمر الله سنة 566 وهي سنة وفاة أبيه المستنجد بالله . وكان له جارية أخرى أسمها بنفشة ولها شأن عظيم في التاريخ وقد ذكرنا عنها سابقا وقد أعتقها الخليفة المستضيء بأمر الله فصارتا زوجتين له أحداهما ضرة أخرى ، ولقبت زمرد بالجهة المعظمة فلم يحدث بينهما ما يحدث بين الضرات وذلك لسمو أنفسهما وصحة ديانتهما ، وفي سنة 552 ولدت زمرد خاتون للمستضيء أبنا ، فسماه بأحمد وكنا بأبي العباس وهو الذي أستخلف ولقب بالناصر لدين الله . وكان الخليفة المستضيء بأمر الله تقيا زاهدا ناسكا عابدا ، نزعت منه أمور الخلافة وشؤون الدنيا فأقبل على الآخرة ، وحذت حذوة زوجتاه زمرد خاتون وبنفشة ، واشتهرتا بالصلاح والخير والنسك والعبادة . وكانت زمرد خاتون شافعية المذهب وبنفشة حنبلية ، فبنت الاوْلى - أعني زمرد - مدرسة للشافعية بجوار تربة الشيخ معروف الكرخي ، ورباطا أي تكية ومدفنا لنفسها ، وهو المدفن المعروف بقبر السيدة زبيدة - كما ذكرنا في أول الحديث- ووقفت على الكل أوقافا سنية داره . وفتحت هذه المدرسة للشافعية ، يوم الخميس التاسع والعشرين من شوالسنة 589 ، وأمرت بأن يكون مدرسا فيها فخر الدين أبو عبد الله محمد بن أبي نصر النوقاني الشافعي المشهور عند المشتغلين بتاريخ العراق ، وأمرت أيضا بأن تخلع عليه خلعة جميلة وعمامة وطرحه ، والطرحة هي طيلسان المدرسين ، وأجرت له جراية حسنة

ومشاهرة كثيرة ، وسكن طلابه في المدرسة وسكن هو في دار متصلة بها ، بنيت لأجله ، وكان ذلك في خلافة ابنها الامام الناصر لدين الله على ما هو واضح من التاريخ الذي ذكرناه للأفتتاح . وبنت أيضا مسجدا في موضع الحظائر على دجلة ، ويعرف اليوم بمسجد الخفافين جنوبي المدرسة المستنصرية ومعلوم أنه بني قبل هذه المدرسة ، ولم يبق اليوم من عمارته الاؤلى الا المنارة وهي أقدم المنارات ببغداد ، لأنها بنيت قبل أنتهاء القرن السادس للهجرة ، وعلى طرازها بنيت كل منائر بغداد، من القرون الخالية بعد انشائها حتى اليوم . وجددت بناء رباط كان قرب مشهد عبيد الله العلوي المعروف اليوم بأبي رابعة شرقي الأعظمية . ولقد أجمع المؤرخون على أختلاف عصورهم على أنها كانت من أرغب الناس في فعل الخير ، واكثرهن له فعلا . وكانت تبر العلماء وتفضل على الفقراء والمساكين ، وتتفقد الايتام وذو الحاجات والفاقات ، وتتصدق بالصدقات الوافرة ، وننفضل على اهل العلم والدين والصلاح والمنقطعين ، وكانت تعطف على الحنابلة أيضا فأنها زوجت الشيخ عبد الغني بن نقطة الحنبلي الزاهد المشهور ، بجارية من جواريها ونقلت معها جهازا يساوي عشرة آلاف دينار . قال أبو المظفر يوسف المعروف بسبط بن الجوزي في تاريخه (كانت صالحة كثيرة المعروف والصدقات دائمة البر والصلاة ، متفقدة لأرباب البيوت ، حجت وأنفقت ثلاثمائة الف دينار – على ما بلغني– وكان معها نحو من الفي جمل ، وتصدقت على أهل الحرمين مكة والمدينة ، وأصلحت البرك والمصانع أي مخازن المياه ، وعمرت التربة عند قبر معروف الكرخي والمدرسة الى جانبها ، وأوقفت عليهما الاوقاف . توفيت في جمادى الأؤلى من سنة 599 وحزن أبنها الخليفة الناصر لدين الله عليها حزنا لم يحزنه ولد على والدته ، وفعل في حقها ما لم يفعله احد وصلى هو عليها في صحن السلام ومشى بين يدي تابوتها الى دجلة من ناحية قصر التاج ، ثم حملت في الشبارة نهارا ، والوزير نصير الدين ناصر بن مهدي العلوي قائم مشدود الوسط ، وارباب الدولة قائمون في السفن ، وصعدوا بتابوتها من دجلة الى القرية ، وأمر الخليفة الناصر أن يمشي الناس من دجلة الى تربتها المجاورة لمعروف الكرخي والمسافة بعيدة وكان الوزير نصير الدين بن مهدي سمينا فكاد يهلك ، وقعد في الطريق نحوا من ثلاثين

مرة ، وعمل العزاء لها شهرا كاملا ، وانشدت المراثي ، وختمت الختمات ، وتكلمت أنا في العزاء ، وكان قد وقع الثلج يوم وفاتها وزاد الماء في دجلة زيادة عظيمة ، وتكدر نهر عيسى والتربة قريبة منه .... وخلع على الاعيان ومن لم يخلع عليه أعطاه مالا ، وأمر بأن يفرقّ جميع ما خلفته والدته زمرد خاتون من ذهب وفضة وحلي وجواهر وثياب ، في جواريها ومماليكها ، فقسم بينهما ، وحمل ما كان في خزائنها من الآشربة والمعاجين والعقاقير الى المارستان العضدي ، وكان يساوي ألوف دنانير ، وحزن عليها أهل بغداد حزنا عظيما لأنها كانت محسنة الى الناس . أنتهى كلام سبط بن الجوزي أما الشبارة التي حملت فيها جنازة زمرد خاتون فهي نوع من السفن متوسطة الكبر كاليخت وأما محله القرية التي أصعدت الجنازة من مشرعتها فهي باب السيف وما حولها نحو الغرب ، وقد نقل قول سبط بن الجوزي، أبو شامة المؤرخ في تاريخه (ذيل الروضتين) والامام شمس الدين الذهبي في تاريخ الاسلام ، وزاد نقلا عن ابن البزوري المؤرخ أن أرباب الدولة ظللوا يترددون ولم يضرب طول الشهر في الدولة طبل ولا شهر سيف ودام لبس ثياب العزاء سنة كاملة ، قال الامام الذهبي : وهذا أمر لم يعمل مثله لأحد ولا لخليفة ... وقلت أنا : وهكذا بلغ الناصر لدين الله المثل الأعلى بين الخلفاء في كل الامور وهكذا فلتكن محبة الولد لوالدته . وما أثر من أخبار هذه الجهة المعظمة ، أنها كانت تحب سماع وعظ الشيخ جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي ، شيخ الشيخ المذكور : ثم شاهدنا مجلسا ثانيا له ... بباب بدر في ساحة قصور الخليفة ، وخصّ ابن الجوزي بالوصول اليه والتكلم فيه ، ليسمعه من تلك المناظر الخليفة ووالدته ومن حضر من الحرم .... فصعد المنبر وأرخى طيلسانه عن رأسه تواضعا لحرمة المكان ... ثم صدغ بخطبته الزهراء ... ثم أخذ في الثناء على الخليفة والدعاء له ولوالدته ، وكنى عنها بالستر الآشرف والجناب الأراف ، ثم سلك سبيله في الوعظ .... وموضع باب بدر كان وراء جامع مرجان الحالي .

وكانت زمرد خاتون تقيم في دار عظيمة فخمة تعرف بدار سوق تمر ، ثم تنازلت عن هذا القصر لضرتها السيدة بنفشة ، لأنها أعانت الناصر لدين الله أبنها على تولي الخلافة ، وبعد أثنتي عشرة سنة من وفاة زمرد خاتون ، توفي أبو الحسن

علي بن الخليفة الناصر لدين الله ، الملقب بالملك المعظم ولي عهد الخلافة العباسية ونائب أبيه في الفتوة ، فدفن مع جدته زمرد خاتون . قال الشيخ العلامة عز الدين بن الاثير في تاريخه : ولما توفي الملك المعظم أبو الحسن علي بن الناصر لدين الله ، أخرج نهارا ومشى جميع الناس بين يدي تابوته ، الى تربة جدته عند قبر معروف الكرخي فدفن عندها ، ولما ادخل التابوت أغلقت الأبواب وسمع الصراخ العظيم من داخل التربة ، فقيل ان ذلك صوت الخليفة وأما العامة ببغداد فانهم وجدوا عليه وجدا شديدا ، ودامت المناحات عليه في أقطار بغداد ليلا ونهارا ولم يبق ببغداد محلة الا وفيها النوح ولم تبق امرأة الا وأظهرت الحزن ، وما سمع ببغداد مثل ذلك في قديم الزمان وحديثه (هذا كلام ابن الأثير) وهكذا فليكن حب الشعب للملوك العادلين والأمراء المقسطين .

وآخر من نعلمها دفنت تحت هذه القبة ، عائشة خانم بنت مصطفى باشا وكانت زوجة حسن باشا والي بغداد ، وذلك سنة 1131 هجري اي سنة 1781 م ذكر ذلك الرحالة الاوروبي نيبهر ونقل ما كتب لعائشة خانم في باطن القبة ونقله من رحلة نيبهر غيره وأشار اليه العلامة لسترنج في آخر كتابه المؤلف في خطط بغداد الموسوم بكتاب (بغداد في عهد الخلافة العباسية) ونفي كل النفي أن تكون القبة لقبر زبيدة زوجة هارون الرشيد ، ناقلا من تاريخ عز الدين بن الآثير ان زبيدة مدفونة في مقابر قريش أي الكاظميةالحالية ، والحق معه ، الا انه لم يعرف ان هذه القبة قبة زمرد خاتون ، بل ذهبت به الظنون الى شيء آخر هو انها قبة عون ومعين التي ذكرها ابن جبير ، وكان فند الاستاذ الكبير ماسنيون قول لسرانج تفنيدا قويا .

واوجه ما يقال في سبب هذا الاستبدال ، ان أسم زمرد حطم حروفه الزمان ، فبقي منه الزاي والدال فظن الناس أن هذين الحرفين هما من اسم زبيدة لا من اسم زمردة فزمردة مجهولة التاريخ عن الناس ، ولا يعرف تاريخها الا المختصون .

السيدة سلجوقة خاتون

يظهر هذا الاسم غريبا لأول وهلة كان واجبا أن يكون مألوفا مأنوسا ، الا أن تاريخ العراق بمن فيه من عظماء وعظيمات ، لا يزال مستبهما مستعجما ، وهذه السيدة النبيلة بنت ملك وأخت ملوك ، وزوجة أمير ثم زوجة خليفة عظيم ، وتوفيت ببغداد ودفنت فيها ، على ما نحن ذاكرون في سياق سيرتها ، وطريف أخبارها ، وجليل آثارها.

ولدت هذه السيدة سنة 554 تقريبا في قونية من البلاد المعروفة يؤمئذ ببلاد الروم بالاناضول التركية ، في قصر أبيها الملك قليج أرسلان الصغير بن مسعود بن قليج ارسلان الكبير السلجوقي ملك قونية وما جاورها ونشئت هناك وكان لها من الأخوة سبعة أو أكثر ، وقد خطبها الى أبيها أحد ملوك الجزيرة وهو نور الدين بن محمد بن قرا ارسلان بن داود بن سكمان ابن أرتق ملك حصن كيفا التي عرفت في الاخير بحسن كيف ، ثم آمد المعروفة اليوم بديار بكر ، وكان هذا الملك من خلفاء السلطان صلاح الدين الايوبي ، فتزوجها نور الدين وأعطاه أبوها عدة حصون كانت تجاور مملكته لتوسيع أمارته ، ومكثت سلجوقة خاتون برهة في عاصمة زوجها حصن كيفا ، ثم آساء عشرتها ومعاملتها وأحب مغنية وشغفته حبا فتزوجها ومال اليها كل الميل ، فحكمت في بلاده وخزائنه وأمواله، وأعرض عن سلجوقة خاتون وتركها نسيا منسيا . فبلغ ذلك أباها قليج ارسلان ، فعزم على السير بجيش كثيف الى نور الدين محمد بن قرا ارسلان وأخذ بلده منه جزاء له بما صنع بأبنته من سوء العشرة والاضرار عليها ، وهجرها هجرا متصلا ، فكتب نور الدين الى السلطان صلاح الدين يستغيثه ويستجير به ، ويطلب اليه منع السلطان قليج ارسلان من احتلال بلاده ، والاستيلاء عليها ، فارسل صلاح الدين رسولا الى قليج ارسلان ، يحذره عاقبة الامور وما عزم عليه ويتهدده بأن يسير الى لقائه اذا تحرك نحو بلاد نور الدين ، فبعث اليه قليج ارسلان برسالة يقول فيها : انني كنت قد سلمت الى نور الدين عدة حصون تجاوره بلاده لما تزوج أبنتي سلجوقة خاتون ، فحيث آل الامر الى ما يعلمه صلاح الدين نفسه فأنا أريد أن يعيد اليّ نور الدين ما

أخذ مني . وترددت الرسل بينهما فلم تستقر الحال بالمراسلة ، فهادن صلاح الدين الفرنج المعروفين بالصليبية وسار في عساكره سنة 576 بلاد الروم حتى وصل الى رعيان بين حلب وشمشاط قرب الفرات ، فأتاه فيها نور الدين بن قرا ارسلان وأقام عنده ، فلما سمع قليج ارسلان بقرب صلاح الدين منه ارسل اليه اكبر أمرائه وقال له : قل لصلاح الدين أن هذا الرجل فعل مع ابنتي كذا وكذا ولا بد من أن أقصد بلاده واعرفه محل نفسه، فلما وصل الرسول واجتمع بصلاح الدين وأدىّ اليه رسالة ملكه أمتعض صلاح الدين وقال له : قل لصاحبك والله لا اله الا هو ،لئن لم يرجع لأسيرنّ الى ملطية وبيني وبينهما يومان ولا أنزل عن فرسي الا في البلد، ثم أقصد جميع بلاده وآخذها منه. فرأى الرسول أمرا شديدا ، فقام من عنده ، وكان قد رأى عسكر صلاح الدين وما هو عليه من القوة والتجمل وكثرة السلاح والدواب وغير ذلك مما ليس عند قليج ارسلان ما يقاربه ، فعلم صلاح الدين أن قصدهم أخذ بلادهم ، ولكن هذا الرسول لم ييأس من النجاح بل أرسل الى صلاح الدين من الغد يطلب أن يجتمع به ثانية ، فأمر باحضاره فقال لصلاح الدين : أريد أن أقول شيئا من عندي ليس رسالة من صاحبي وأحب أن تنصفني فقال له : قل ، قال : يا مولانا أما هو قبيح بمثلك وأنت من أعظم السلاطين وأكبرهم شأنا ، أن تسمع الناس عنك انك صالحت الفرنج وتركت الغزو ومصالح المملكة ، وأعرضت عن كل ما فيه صلاح لك ولرعيتك وللمسلمين عامة ، وجمعت العساكر من أطراف البلاد البعيدة والقريبة ، وخسرت انت وعساكرك الاموال العظيمة لأجل مغنية رقحاء ، فما يكون عذرك عند الله ثم عند الخليفة وملوك الاسلام وكافة العالم؟ وأحسب أن أحدا لا يواجهك بمثل قولي ، ولكن ألا يعلم الناس ذلك؟ ثم أحسب أن قليج ارسلان مات وهذه أبنته سلجوقة خاتون قد أرسلتني اليك تستجيرك وتسألك أن تنصفها من زوجها ، فأن فعلت فهو الظن بها أن لا تردها . فقال صلاح الدين له : والله الحق بيدك وان الأمر لكما تقول : ولكن هذا الرجل دخل عليّ وأستجار بيّ ويقبح أن أتركه ، ولكنك انت أجتمع به ، واصلح الحال بينكم على ما تحبون وأنا أعينكم عليه وأقبح فعله . ووعد صلاح الدين من نفسه بكل جميل . فأجتمع الرجل بصاحب الحصن نور الدين وتردد القول بينهم ،

فأستقرت الحال على أن يخرج المغنية من عصمته بعد سنة ، فأن لم يفعل ينزل صلاح الدين عن نصرته ويكن هو وأبوها قليج ارسلان ، واصطلحوا على ذلك ، وعاد صلاح الدين الى بلاد الشام ورجع نور الدين الى حصن كيفا فلما أنقضت المدة أخرج نور الدين المغنية من بلده فتوجهت الى بغداد وأقامت بها الى أخر حياتها .

وفي سنة 579 حجت سلجوقة خاتون الى بيت الله الحرام في موكب عظيم ، وكانت في طريقها الى مكة قد مرت ببغداد وسافرت صحبة أمير الحاج العراقي أبي المكارم طاشتكين بن عبد الله المستنجدي من كبار أمراء الدولة العباسية ، وكان حجها في خلافة أمير المؤمنين أبي العباس أحمد بن الناصر لدين الله العباسي ، وقد رآها الأديب الكبير الرحالة الشهير ابن جبير الكناني وذكر أن عمرها يومذاك نحو من الخمس والعشرين سنة ، وأن لها الكثير من أفعال البر في طريق الحاج منها سقي ماء السبيل ، على ثلاثين ناضحة من الابل ، وتفرقة الطعام على ثلاثين أيضا ، ومعها لما تختص من كسوة وأزودة وغيرهما نحو مائة بعير ، وذكر أيضا كان معها خاتونين أخرين ولكنهما كانت عظماهن ، ووصفها مرة قال: فجاءتنا خاتون المسعودية المترفة شبابا وملكا ، وهي قد أستقلت في هودج موضوع على خشبتين معترضتين بين مطيتين ، الواحدة أمام الأخرى وعليهما الجلال المذهبة وهما تسيران بها سير النسيم ، سرعة ولينا ، وقد فتح لها أمام الهودج وخلفه بابان وهي ظاهرة في وسطه منتقبة ، وعصابة ذهب على رأسها ، وأمامها رعيل من فتيانها وجندها ، وعن يمينها جنائب المطايا والهماليج العتاق ، ووراءها ركب من جواريها قد ركبن المطايا والهماليج على السروج المذهبة ، وعصبن رؤسهن بالعصائب الذهبية والنسيم يتلاعب بعذباتهن ، وهنّ يسرن خلف سيدتهن سير السحاب ، ولها الرايات ، والطبول ، والبوقات تضرب عند ركوبها وعند نزولها . وأبصرنا من نخوة الملك النسائي واحتفاله رتبة تهز الارض هزا ، وتسحب أذيال الدنيا عزا ، ويحق أن يكون لها هذا الهز ويخدمها العز فأن مسافة مملكة أبيها نحو أربعة أشهر وصاحب القسطنطينية يؤدي اليه الجزية وهو من العدل في رعيته على سيرة عجيبة من مولاة الجهاد على سنة مرضية....

ووصف زيارتها للروضة النبوية المنورة بالمدينة قال : ومن عجيب ما شاهدناه من الأمور البديعة الداخلة مدخل السمعة والشهرة ، ان أحدى الخواتين المذكورات وهب بنت الامير مسعود وصلت عشيّ الخميس السادس للمحرم ورابع يوم وصولنا الى المدينة المنورة ، الى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم راكبة في قبتها وحولها قباب كرائمها وخدمها والقراء أمامها والفتيان والصقالب بأيديهم مقامع الحديد يطوفون حولها ، ويدفعون الناس أمامها ، الى أن وصلت باب المسجد المكرم فنزلت تحت ملحفة مبسوطة عليها ، ومشت الى أن سلمت على رسول الله صلى الله وعليه وسلم والخول أمامها والخدام يرفعون أصواتهم بالدعاء لها اشادة بذكرها ، ثم وصلت الى الروضة الصغيرة التي بين القبر الكريم والمنبر ، فصلت فيها تحت الملحفة والناس يتزاحمون عليها ، والمقامع تدفعهم عنها ثم وصلت في الحوض بازاء المنبر ثم مشت الى الصفحة الغربية من الروضة المكرمة فقعدت في الموضع الذي يقال انه كان مهبط جبريل عليه السلام وأرخي الستر عليها وقام فتيانها وصقالبها وحجابها على رأسها الستر تأمرهم بأمرها . واستجلبت معها الى المسجد حملين من المتاع للصدقة فما زالت في موضعها الى الليل . الى أن قال : أزيل الستر عنها وبقيت بين خدمها وكرائمها متلفعة في ردائها ، فعاينا من أمرها في الشهرة الملوكية عجبا . وذكر صفة دخولها الموصل قال : ودخلت خاتون المسعودية تقود عسكر جواريها وأمامها عسكر رجالها يطوفون بها ، وقد حللت قبتها كلها سبائك ذهب مصوغة أهلة ودنانير ، سعة الأكف ، وسلاسل وتماثيل بديعة الصفات ، فلا تكاد تبين من القبة موضعا ، ومطيتاها تزحفان بها زحفا وصخب ذلك الحلي يسد المسامع ، ومطاياها مجللة الأعناق بالذهب ومراكب جواريها كذلك ، ومجموع ذلك الذهب لا يحصى تقديره ، وكان مشهدا بهت الانصار وأحدث الاعتبار . وقد وصفها غير مرة بالعبادة والخير وايثار أفعال البر من صدقات ونفقات في السبيل والمحبة للصالحين وزيارتهم متنكرة لأجل

الثواب . وقد ذاعت أخبار جمالها في العراق وغيرها من الاقطار ، وبلغت الامام الناصر لدين الله الخليفة العباسي ، ثم توفي زوجها نور الدين بن محمد بن قرا أرسلان سنة 581 فأرسل الخليفة الناصر لدين الله يخطبها الى أبيها فكان ذلك تشريفا له ولأبنته سلجوقة خاتون وأجابه الى تزويجها به شاكرا ، فأرسل الناصر لدين الله لاحضارها الشيخ أبا يعقوب يوسف بن احمد الشيرازيّ ثم البغدادي المحدث الصوفي شيخ رباط أرجوان فجاء بها الى بغداد سنة 582 ودخلت في عصمة الخليفة ، وشغب بها وأغرم بها وبحبها ، وحلت من قلبه المحل الآسمى ، وأمرت أن يبنى لها رباط أي تكية ، وتربة أي مدفن ويذلك يدل على صلاحها وعبادتها وتقواها ، فشرع في بنائهما في الجانب الغربي من بغداد على دجلة في محلة باب البصرة ، ووالى الشراف على ذلك الشيخ الفقيه الواعظ عبد الوهاب بن الشيخ عبد القادر الجيلي المعروف بالجيلاني الحنبلي ، ولكنها توفيت – رحمة الله عليها – قبل أن يتم البناء ، فدخل على الخليفة الناصر من الحزن عليها ما لا بوصف ، ووجد بها وجدا عظيما ظهر للناس كلهم . وبنى أبواب قصرها حتى لا يرى ما يذكره اياها . وكان لا يتمالك عن البكاء اذا ذكرها أحد ، وأظهرت الدولة العباسية كلها للحداد عليها ، ولبس أرباب الدولة من الوزير وغيره الثياب البيض . وكان البياض علامة حزن العباسين اذ ذاك وعمل لها عزاء عظيم ودفنت في تربتها في الجانب الغربي من بغداد . وكانت هي والرباط أعني التكية في الموضع المعروف بالخضر الياس الذي عرف فيما بعد . ثم جرفت دجلة هذين البنائين العظيمين ، وكان فتح الرباط والتربة سنة 589 وحضر خلق عظيم و وكان يوما مشهودا ، وجعل الناصر في تربتها خزانة كتب عليها حوت كثيرا من الكتب الجليلة المكتوبة بالخطوط المنسوبة . وممن رأى هذه الخزانة واقتبس منها كمال الدين عمر بن العديم القاضي الأديب المشهور مؤلف دفع التجري عن أبي العلاء المعري ، فقد زارها سنة 650 ونقل منها قصة الاعسر بن مهارش الكلابي وعشقه للصقيل بنت

طراد الأسدية ، ورآها معه أبو الحسن علي بن سعيد الأديب الجغرافي المؤرخ صاحب المعجب في أخبار المغرب وغيره من الكتب ، وصور هذه العمارة واضحة في مصورة بغداد التي صورها الأستاذ مطراقي في عهد السلطان سليمان القانوني العثماني ، بعد فتحه بغداد سنة 940 وآخر من رآها ووصفها نيبهر الرحالة الكبير المشهور ، فانه لما دخل بغداد في أواسط القرن الثاني عشر للهجرة أي أواسط القرن الثامن عشر ، رأى المكان المذكور ورأى التكية فيها جماعة من الصوفية البكتاشية ، ونقل ما بقي من الكتابة على جدرانها وفيها اسم قليج ارسلان السلجوقي ، اذن كان اسم سلجوقة خاتون قد عفا وتهدم لأن الاصل سلجوقة خاتون بنت قليج ارسلان . ولقد حار جماعة من المستشرقين في سبب وجود اسم السلطان المذكور هناك مع انه حكم في قونية وبلاد الروم ، وذهبت بهم الظنون مذاهب شتى في كيفية بنائه لمثل تلك التكية . واذا كانوا كغيرهم لا يعرفون تاريخ صاحبة القبر والتكية بقوا في متاهة ظنونهم ، أما اليوم فلم يبق من تلك التكية أي أثر كان ، فقد جرفتها دجلة – كما ذكرنا سابقا – ولسبط بن التعاويذي الشاعر المشهور قصيدة في رثاء سلجوقة الخاتون مثبتة في ديوانه يقول فيها :

فيا قبر ما بين الصراة ودجلة   الى نهر عيسى جادك الغيث من قبر

السيدة هاجر
زوجة المستنصر بالله وأم المعتصم بالله

هذه سيدة جليلة من سيدات دار الخلافة العباسية ببغداد.هذه السيدة الكريمة التقية ، هي هاجر زوجة المستنصر بالله ، وأم المستعصم بالله ، وكانت أول أمرها جارية من الجواري أنجبت من زوجها المستنصر بالله ولدين ذكرين هما الامير أبو القاسم عبد العزيز ، والامير أبو أحمد عبد الله الذي صار بعد وفاة أبيه المستنصر خليفة وأميرا للمؤمنين .

انها الى كونها زوجة خليفة وأم خليفة ، كانت على قاعدة جميلة ، راغبة في فعل الخير والمواصلة للفقراء بالبر والاحسان. ولقد أمرت ببناء رباط للصوفية بشارع ابن رزق الله بالجانب الغربي من بغداد ، وكان الرباط في شرقي قبر الشيخ الجليل معروف الكرخي . وأمرت أيضا ببناء تربة لنفسها بجانب الرباط ، ثم توفيت سنة 646 هجري قبل اتمامه ، فدفنت في تربتها تحت القبة ، وكان لها سبيل في طريق الحج ، ينفق فيه على فقراء الحجاج والمنقطعين في طريقه ويسقى العطاشى . وفي سنة 650 هجري فتح هذا الرباط وحضر فتحهأ بنها الخليفة المستعصم بالله ، ووزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمي وأرباب الدولة كافة . وكان الخليفة المستعصم بالله قاعدا على سطح الرباط ، وعملت فيه دعوة عظيمة وخلع على كل من تولى بناءه ، منهم الشيخ العلامة الأديب المؤرخ ظهير الدين علي بن محمد الكازروني الاصل ثم البغدادي . وقد ذكر حكاية طريفة في بناء هذا الرباط ، قال في احد تواريخه : كنت أتولى بناء الرباط المستجد ، فجأني شقاق يشق الصخر ، وقال لي : قد رأيت عجبا وينبغي أن تشاهده ، فقمت معه ، فأراني صخرة قد أنفلقت عن موضع قد تعداه المنشار ، وفيه أوراق خضر ودود تضطرب ، فأخذت الدودة والورق وجعلته في قرطاس وختمت عليه ، وحملته الى الشيخ صدر الدين علي بن النيار ، فحمله الى الخليفة المستعصم بالله فعجب من قدرة الله — عز وجل — ثم أن المستعصم بالله حضر وشاهد الصخرة ، ولم يكن عليها سبيل من ظاهرها ، وكان هذا المؤرخ من الثقات .

وكانت السيدة هاجر قد حجت في أبتداء خلافة ابنها وذلك سنة 641 هجري وكان أمير الحاج أبو الميامن مجاهد الدين أيبك المستنصري أحد مماليك الدولة العباسية . وقبل أن يذهب الى مكة المكرمة تلكم السنة خلع عليه في دار الخلافة العباسية ، وعبر الجانب الغربي من بغداد مع جنوده الذين هم برسم حماية الحجاج ، وكان فيهم أمير يعرف بحسن الدين قيران ، فنزل في تربة زمرد خاتون المعروفة اليوم بالست زبيدة ، وخرجت هاجر أم المستعصم بالله من دار الخلافة ، وانحدرت في دجلة في شبارة أبنها الخليفة المستعصم بالله ، والشبارة سفينة كاليخت، ثم خرجت من دجلة عند قرية درزيجان ، وكانت على دجلة في الجانب الغربي ، قريبة من بغداد ، وخرج ابنها المستعصم بالله على البر ليودعها وضرب له هناك سرادق ، فلما دخل السرادق نثر عليه شرف الدين أقبال الشرابي قائد جيوش الدولة العباسية ذهبا كثيرا ، ولم يكن المستعصم بالله قبل ذلك قد سافر سفرا نزل فيد مخيما ، ولما وصل الى الحلة مع والدته دخل دارا لهم على شاطىء الفرات ، فنثر عليه شرف الدين الشرابي أيضا ذهبا كثيرا ، ثم توجه المستعصم الى الكوفة ودخل جامعها ، ثم قصد مشاهدة –الامام علي رضي الله عنه – فزاره أي يقصد نا زيارة قبره– وكان المزور له الشريف محمد بن كتيلة العلوي ، فلما توجه الحاج الى بيت الله الحرام ودع المستعصم بالله ووالدته هاجر وعاد الى بغداد .

ووصلت السيدة الى بيت الله الحرام وحجته ، وتصدقت فيه بمال كثير ثم عادت متوجهة الى بغداد في السنة التي يليها –أي أقصد سنة 642 – وأمر شرف الدين اقبال الشرابي وكيله عز الدين الحسين بن عبدوس ، بالمسير الى واقصة ، من طريق الحج بين العراق والحجاز ، ليلقى فيها والدة الخليفة وهي عائدة من مكة ، وأنفذ معه تسعين جملا عليها تشريفات وحلوى وحوائج وغير ذلك ،ثم أمر صدر المخزن – وكان صدر المخزن كوزير المال في الرتبة – ومشرفة عميد الدين منصور بن عباس الدجيلي بالتوجه أيضا الى تلك المنزلة . وأمرا أن يستصحبا معهما ما أعداه من الاقامات ، والاقامات هي حوائج العيش للمسافرين القادمين ،وذكر أن فخر الدين المبارك بن المخرمي صاحب الديوان – وكان صاحب الديوان كوزير

الداخلية ، حمل الى السيدة هاجر من البصرة حمولا على ستة عشر جملا ، فيها حلوى وأقراص ماء الليمون وماء الليمون والحصرم وخل العنب من مصعد أي مقطر وغير مصعد ، وماء الورد والخلاف هو نوع من الصفصاف ، وقشور الطلع وشربات وليمون أخضر وأترجّ وتفاح وكمثرى ، وخوخ ونارنج ورمان وعنب وباذنجان ، ومع ذلك حصر بصرية وسجادة رفيعة ، فوصلت الأوساق الى الثعلبية فتسلمت.

وعزم المعتصم بالله على التوجه الى الكوفة للقاء والدته ، فعرض له مرض منعه من الخروج ، وصدر الأمر الى أرباب الدولة العباسية كافة ، بالخروج الى قرية فراشا من قرى نهر الملك ، وكانت بين الحلة وبغداد والى بغداد أقرب ، لاستقبال والدة الخليفة ، فخرجوا ما عدا الوزير نصير الدين احمد بن الناقد لعجزه عن الخروج بسبب مرضه ، فساروا الى زريران ، وهي قرية كانت بازاء المدائن أي سلمان باك من الجانب الغربي ، فوجدوا سرادقات السيدة هاجر وأمير الحاج بها ، فكان كل من أرباب الدولة ينزل على بعد من سرادق السيدة ويستأذن في أن يحضر، فيؤذن له فاذا حضر قبّل الارض بباب السرادق و فيخرج أمين الدين كافور الظاهري فيقول له : قد عرفت خدمتك أو ما هذا معناه ، ويؤذن له في العود . ثم نزلت السيدة بالليل في شبارة الخليفة وأصعدت الى بغداد ، وذلك بعد أن خلعت على أمير الحاج ابي الميامين ايبك الدويدار ، وأمرت له بخمسة عشر الف دينار ، وخلعت على القائد حسن الدين قيران وأمرت له بألف دينار .

ولما نزل الحاج بظاهر تربة زمرد خاتون – كما فعلوا في ذهابهم – نفذ شرف الدين عبد الله بن تاج بن النيار ، وهو وكيل والدة الخليفة والعدل ضياء الدين عبد الوهاب بن سكينة وهو الخازن ، وأبن بكران وهو نائب وكيل ، وضربت لهم خيمة خلف تربة زمرد خاتون ، وخلعوا على كل من كان في خدمة السيدة في حجها من

النواب والاتباع والخدم والمحفدارية أي التختروانية والجمالين والسقائين والحداة الذين كانوا يحدون الجمال ، والساقة الذين كانوا يسوقونها والنفاطين والخراس.

ومن أخبار تربة هاجر أن قائد الجيوش العباسية شرف الدين اقبالا الشرابي ، دفن بباب قبتها على يمين المدخل ، وذلك في سنة 653 ، وكان من العارفين لفنون الحرب وأرباب الدهاء في القتال وقيادة الجيش ، الا أنه قصر في اختيار المعتصم بالله وجعله خليفة ، وتنحية اخيه الامير ابي القاسم عبد العزيز المستنصر بالله ، وكان سوء اختيار هذا من أسباب سقوط الدولة العباسية ، لأن حسن الاختيار في الدول الوراثية الحكم والسلطان شرط في أستقامة الدولة وسلامتها ، وبقائها ونمائها ، فان لم يكن وجه للأختيار لكون الوارث الأقرب واحدا ، كان الحكم من القضاة المحتوم والقدر المحموم ، كما جرى في خلافة الظاهر بأمر الله بعد الناصر لدين الله فأدى ذلك الى ضعف الدولة العباسية ، وانحلالها ثم زوالها .

السيدة باب بشير زوجة المستعصم بالله

السيدة باب بشير ، زوجة الخليفة الشهيد ، أبي عبد الله الملقب بالمستعصم بالله بن الخليفة المستنصر بالله ، وهي التي بنت المدرسة البشيرية بالجانب الغربي من بغداد .

ومن المعلوم أن الخليفة المستعصم بالله كان آخر الخلفاء العباسيين ببغداد ، وأن المغول المعروفين بالتتار قتلوه ، وقرضوا الخلافة العباسية سنة 656 هجري 1258 ميلادي.

وكان للمستعصم بالله قبل أن يدرك الخلافة جاريتان ، ولدت له أحدهما ثلاثة بنين وابنة واحدة وولدت له الأخرى أربع بنات ، ولما أفضت الخلافة اليه لم يتغير عليهما ولا أغارهما بل راعاهما حفظا لعهدهما ، ثم طلبت اليه أم البنين أن يعتقها من العبودية والرق وأن يتزوجها ، ففعل ذلك متبعا آثار من سبقه من خلفاء بني العباس .

ولما ماتت أم البنين أتخذ المستعصم حظية أخرى ، يظهر لنا أنها باب بشير ، فولدت له ولدا سماه محمد وكناه بأبي نصر ، ثم طلبت منه أن يعتقها ويتزوجها ، فأجابها الى ذلك .

أن التسمية بباب بشير تبدوا لنا غريبة أول وهلة ، فاذا أستقرأنا أسماء النساء وكنيتهم في تلك الايام ،بانت التسمية مألوفة مأنوسة . فقد كانوا يكنون عن السيدة العظيمة المتزوجة بالجهة ، وأشتهرت بنت الخليفة المسنجد بالله بحجرة عفيف ، وأمثال كثيرة في تاريخهم .

تركت باب بشير آثارا جميلة ومآثر حسنة ، مقتدية بمن سبقنها من أمهات الخلفاء وزوجاتهم وحظاياهم وحسن الاقتداء دليل على جمال البدء، ومن تلك الآثار دار للقرآن الكريم ، ومدرسة للمذاهب الأربعة على قاعدة المدرسة المستنصرية ، فأن المدارس كانت قبل المستنصرية طائفية – أعني ان كل مدرسة تخص بمذهب من المذاهب ، فبنى المستنصر سنة 631 المدرسة التي أضيفت الى أسمه،

وجعلها للمذاهب الاربعة : الشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية ، فكان ذلك مشروعا محمودا في التدريس ، وطريقة حسنة في تأسيس المدارس وذريعة من ذرائع التآخي والتآلف والتصافي والتعارف . وممن أسرع في التقليد للمستنصر بالله في ذلك العمل الصالح ، الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك العادل الأيوبي ملك مصر ، فقد بنى سنة 639 وما بعدها مدرسة كبيرة في القاهرة بين القصرين ، ووقفها على المذاهب الأربعة فدرست فيها .

وفي سنة 649 أمرت السيدة باب بشير بأن تبنى لها مدرسة على هذه الطريقة المحمودة ، فأختط لها موضع تجاه محلة قطفتا ، بالجانب الغربي من بغداد ، وهي المحلة التي كانت تحاذي قبر الشيخ الزاهد معروف الكرخي من الشرق ، فالمدرسة كانت في شرقي القبر المذكور ولا أثر لها اليوم . وأمرت أيضا أن تبنى لها دار للقرآن الكريم ، ففتحت هذه الدار في سلخ شعبان من سنة 652 ، وكانت على شاطىء دجلة ، بالجانب الغربي من بغداد ولم أتحقق من موضعها ، وأستديم بناء المدرسة ، فتوفيت هذه السيدة قبل أن يكمل وذلك في التاسع من شوال سنة 652 ، فدفنت تحت قبة أعدتها لنفسها بجانب المدرسة ، وتوفي بعدها أبنها أبو نصر محمد بن المستعصم بالله ودفن عند قبرها تحت قبتها .

وفي سنة 653 بعد وفاتها فتحت مدرستها النعروفة بالبشيرية ، وكانت قد أشرفت عليها اشرافا كثيرا ، وكان أفتتاحها في يوم الخميس الثالث والعشرين من جمادى الاخرة من السنة ، وحضر المدرسة الخليفة المستعصم بالله وأبناءه وجلسوا في وسطها ، وحضر الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي وأرباب المناصب ومشايخ الرباط والمدرسون ، وكان المدرسين فيها سرج الدين النهرقلي (نسبة الى نهر القلائين) للمتفقه الشافعية ، ونور الدين محمد بن الغربي الخوارزمي للحنفية ، وعلم الدين احمد بن الشرمساحي المصري للمالكية ، وشرف الدين عبد الله بن محي الدين يوسف بن الجوزي للحنابلة ، وعملت فيها وليمة عظيمة ، وخلع على المدرسين المذكورين وعلى الناظر فيها ونواب البناء وعلى الخدم وخدم قبة السيدة

باب بشير ، وأنشدت أشعار كثيرة ، وكان يوم أفتتاحها يوما مشهودا من أواخر الأيام العباسية .

ومن مدرسي هذه المدرسة المشهورين بعدئذ فخر الدين عبد الله بن عبد الجليل الطهراني الحنفي المتوفي سنة 667 . وقيل كان هذا المدرس في وقعة هولاكو ممن يخرج الفقهاء من بغداد الى باب السور عند مخيم السلطان الجبار هولاكو ليقتلوا هناك . وذلك له بئس الخبر ، وأقبح الأثر ، ومنهم نور الدين علي بن الأطلبي الحنفي وتاج الدين عبد الرحيم بن يونس الموصلي الشافعي ، وصدر الدين محمد بن شيخ الاسلام الهروي ، ومجد الدين علي بن جعفر ، وجمال الدين عبد الله بن العاقوليّ المدفون في المحلة العاقولية في قبر مشهور مجاور للمدرسة التفيّض ، وهو من نسل النعمان بن المنذر ، وأبن عبد الحق عبد المؤمن مؤلف كتاب (مراصد الاطلاع على الأمكنة والبقاع) وغيره من الكتب الحسنة ، ونور الدين أبو طالب عبد الرحمن بن عمر البصري ، مؤلف التفسير الموسوم (بجامع العلوم في تفسير كتاب الله الحي القيوم) وغيره من جليل الكتب .

وكان في هذه المدرسة كتب موقوفة عليها ،منها الكتاب الموسوم بالعيون والنكت ، وجد على المجلد الخامس منه نص وقفيّته ومنها (هذا ما وقفه وتصدق به الجهة الشريفة المكرمة ، المقدسة الزكية المعظمة ، السيدة الكبيرة الرضية الأمينة الرحيمة ، الرؤوفة النبوية الامامية الطاهرة البرة ، جهة سيدنا ومولانا المفترض الطاعة على جميع الأنام ، أبي أحمد عبد الله بن المعتصم بالله أمير المؤمنين ، ثبت الله دولته وأعلى كلمته ، على طلاب العلم ، رغبة فيما عند الله من حسن الثواب ، وذخرا صالحا ليوم المآب ، وأمرت أن يكون بالمدرسة الميمونة التي أمرت بأنشائها ،بظاهر محلة شارع ابن رزق الله بالجانب الغربي من مدينة السلام وأن يعار برهن ضامن للقيمة ، وكتب في شهر رمضان المبارك من سنة 652 وصلى الله على سيدنا محمد عليه وسلم ، وبهذا أستدللنا على موضع الشارع المذكور .

أما دار القرآن التي أمرت ببنائها ،فقد فتحت في حياتها كما ذكرنا قبل هذا ، فمن تولى مشيختها سراج الدين أبو حفص عمر بن علي القزويني ثم الواسطيّ ثم

البغدادي المتوفي ببغداد سنة 750 ، وقبره معروف حتى اليوم بقبر سراج الدين (على ما قاله فاضل معاصر) في محلة سراج الدين المنسوبة اليه قرب العوينة ، وكنا نظنه قبر رجل آخر ، فعدلنا عن ذلك الظن ، لرجحان القول الثاني ، ولكون المؤلف الذي اعتمدنا عليه أولا ممن لا يعتمد عليهم في مثل هذه الأمور الدقيقة ، ومن حسن التوفيق لهذه السيدة الصالحة، انها توفيت قبل سقوط الدولة العباسية بأربع سنوات ، وكان الموت وهو خير نزال على الحرم ، خيرا لها من مشاهدة العاقبة الفاجعة، والمصيبة العظمى والكارثة الكبرى ، قتل زوجها الخليفة المستعصم بالله أفظع قتلة ، وأستصئال امراء بني العباس ونسائهم جميعا أشنع استئصال ، تلك المذبحة الهائلة الشنيعة الفظيعة ، الوحشية التي أمر بها اللعين الجبار هولاكوخان ، فأتيت في مقبرة عبد العزيز بن جعفر الخلال المعروف اليوم بالشيخ الخلاني، ففي

هذه المقبرة سالت دماؤهم كالنهر ،وسقطت جثثهم هامدة مضرجة بالدماء ، ولم يرحم منهم شيخ ولا امرأة ،ولا صبي ولا عجوز ، ولا خادم ،وهو حدث تقشعر منه الأبدان ، على طول الأزمان. ,

شمس الضحى زوجة أبي العباس ابن المستعصم بالله

شمس الضحى واسمها شاه لبنى هي بنت عبد الخالق بن ملكشاه بن صلاح الدين ابن أيوب ، تزوجها أبو العباس احمد بن الخليفة المستعصم بالله الشهيد ، وصارت من سيدات دار الخلافة العباسية ، ولم نجد لها تاريخ الولادة ، وأنما نعلم أن زوجها أبا العباس ولد سنة احدى وثلاثين وستمائة للهجرة ، سنة أفتتاح المدرسة المستنصرية في عهد جده المستنصر بالله ، وانها رزقت منه ثلاثة أولاد : ذكر واحد واثنتين ، فألابن ابو الفضل محمد والبنتان هما رابعة وكان مولدها يوم عيد الاضحى من سنة 655 هجري ، وست الملوك ، وخطب لزوجها المذكور بولاية عهد الخلافة العباسية الا أن الاقدار وسوء الايالة والاختيار ،والتعصب المذهبي ، وغلبة الجهال على أمور الدولة العباسية عجلت بسقوطها وهبوطها ، واستولى هولاكوخان على بغداد في اليوم الحادي والعشرين من المحرم من سنة 656 هجري، وخيم في شرقي الباب الشرقي من بغداد ، فخرج اليه الخليفة المستعصم بالله والوزير مؤيد الدين أبو طالب محمد بن العلقمي ، ومع الخليفة جمع كثير فلما صاروا الى ظاهر سور بغداد ، منعوا أصحابه من الوصول معه ، وأفردوا له خيمة فأسكن فيها ، ثم خرج ابنه أبو العباس أحمد زوج شمس الضحى يوم الجمعة ثاني صفر من سنة 656 هجري ثم عاد الخليفة المستعصم بالله الى بغداد في رابع من صفر ، ومعه جماعة من أمراء المغول ، فأخرج لهم

من دار الخلافة كثيرا من الاموال ، والجواهر والحلي والزركش والثياب وأواني الذهب والفضة والأعلاق النفيسة ، ثم عاد معهم الى مخيم هولاكو ظاهر السور في بقية ذلك اليوم . فأمر هولاكو اللعين بقتله ، فقتل يوم الاربعاء رابع عشر صفر ، ولم يرق دمه بل جعل في غرارة أي شالية ورفس وديس حتى مات ، ودفن وعفي أثر قبره . ثم قتل ابنه أبو العباس المذكور وأخوه أبو الفضل عبد الرحمن بن المستعصم بالله ، وأزيلت الدولة العباسية ، وكان سقوطها فاجعة عظيمة أليمة ،

ومصيبة أليمة أصابت الأمة في صميمها وأصمت قلبها وأذهبت عزها ،وأهلكت سلطانها.

لا جرم أن السيدة شمس الضحى شاه لبنى زوجة ولي العهد أبي العباس ، أمست أيما من زوجها ذات أيتام ، والحرب مأيمة ميتمة، تترك النساءأيامى والأولاد يتامى ، هذا الى كونها كابدت أعظم الأهوال ، وقاست أفظع المصائب وشهدت أشد المشاهد ترويعا وتفجيعا.

ولما ولى هولاكو خان سنة 657 بلاد العراق علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين الجويني ، ولقب بصاحب الديوان ، وكان يدعي النسب الى الفضل ابن الربيع حاجب أبي جعفر المنصور ، خطب علاء الدين شمس الضحى وتزوجها ، ولما ولى هولاكو خان سنة 657 بلاد العراق علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين الجويني ، ولقب بصاحب الديوان ، وكان يدعي النسب الى الفضل ابن الربيع حاجب أبي جعفر المنصور ، خطب علاء الدين شمس الضحى وتزوجها ، وسيرة زوجها الثاني طويلة ، فأنه تولى العراق من قبل الدولة الايلخانية الهولاكية زهاء اثنبن وعشرين سنة ، ولاية اختلط خيرها بشرها ونفعها بضرها ، وليس هذا محل الحكم لها ولا الحكم عليها ، الا انه كان يحب الأدب والعلم ويجيز عليهما جوائز سنية ، وهذا أمر راجح في ميزان تقوم الأمم ذوات الثقافات العوالي . وكان هو أديبا أريبا في الفارسية والعربية ، وله التاريخ المشهور الموسوم بجهان كشاي أي فاتح العالم ، يعني به الملك القاهر جنكيز خان . وكان علاء الدين كثير البناء ، ومنها في عهده منارة جامع القصر والتي عرفت فيما بعد بجامع سوق الغزل ، والتي تم بناءها سنة 678 هجري في سلطنة أباقا خان بن هولاكو خان،وقد مضى على بنائها ست وثمانون وستمائة سنة ،وتوفي علاء الدين سنة 681 هجري .

أما شمس الضحى شاه لبنى وفي التاريخ ، فأمرت ببناء مدرسة بجوار مشهد عبيد الله العلوي ، ويعرف بقبر النذور أيضا . ووصفه صاحب المراصد بأن بينه وبين سور بغداد وهذا يوافق قبر أبي رابعة شرق الاعظمية . وفي سنة 671 هجري تكاملت بناء المدرسة المذكورة ، وسميت (المدرسة العصمتية) نسبة الى نعتها (

العصمة) ووقفتها على الطوائف الأربع الشافعية الحنفية الحنبلية والمالكية ، على نحو ما فعلت قبلها السيدة باب بشير زوجة المستعصم بالله صاحبة المدرسة البشيرية ، وفتحت المدرسة في تلك السنة ورتب بها من المدرسين القاضي عز الدين أبو العز أحمد بن جعفر البصري للفقه الشافعي وعفيف الدين ربيع بن محمد الكوفي للفقه الحنفي ، وشرف الدين داود الجيلي للفقه الحنبلي ، ومجد الدين شقير الواعظ للفقه المالكي ، وخلع على جميع المدرسين وعملت فيها وليمة عظيمة ، وجعلت النظر في المدرسة - أي أدارة أمورها- الى شهاب الدين علي بن عبد الله صدر الوقف ببغداد – أي مدير الاوقاف وهو الذي أشرف على بناء منارة سوق العزل ، وجعلت الاشراف عليه الى كل من ولي قضاء القضاة ببغداد ، وبنت البى جانب المدرسة تربة لنفسها ورباطا للصوفية ، وجعلت في المدرسة خزانة كما كانت عادتهم ، وكانت في سنة 680 هجري زوجت أبنتها رابعة بنت ولي العهد أبي العباس أحمد بن المستعصم بالله ، بشرف الدين هرون بن شمس الدين محمد الجويني، وهو ابن اخي زوجها الثاني علاء الدين عطا ملك ، واشترطت عليه ان لايشرب الخمر أبدا ، فأجاب الى ذلك ، وعقد العقد وكتب كتاب الصداق على مائة الف دينار من الذهب ، العين الصحاح ، وكان الكاتب للعقد بهاء الدين علي بن عيسى الاربلي الكردي كاتب الانشاء بديوان بغداد ، ومؤلف كشف الغمة في مناقب الائمة .

وفي سنة 678 هجري توفيت العصمة شمس الضحى شاه لبنى ببغداد ، ودفنت فيها في التربة التي بنتها بجوار مدرستها العصمتية ز قال بعض المؤرخين في ترجمتها (أنها كثيرة الصدقات والاحسان والمبرات ، وكانت تحب أهل بغداد وترعى مصالحهم وتقوم في حوائجهم وتساعدهم ، ولعمري أن سيرتها وآثارها تدل على انها كانت سيدة عظيمة كريمة ذات خلق كريم وديانة صحيحة ، وكان ذلك ظاهرا في أفعالها ولا سيما أشتراطها على زوج أبنتها رابعة أن لا يشرب الخمر. وفي سنة 685 هجري في جمادى الآخرة منها توفيت ابنتها رابعة ببغداد ، ودفنت في تربة والدتها عند مشهد عبيد الله العلوي ، وبعد وفاتها ورد خبر ببغداد بأن السلطان أرغون بن أباقا خان بن هولاكو خان ، أمر بقتل زوجهاشرف الدين

هارون في حدود بلاد الروم ، وكان هذا السلطان المغولي يبغض بني الجويني أشد البغض فأراد أستئصالهم ، وقتلهم حتى أطفالهم ، وكان لرابعة من شرف الدين أبنان وأبنة واحدة فالابنان هما المأمون عبد الله والأمين أحمد والبنت هي زبيدة .

أما المدرسة العصمتية فان أخبارها بعد ذلك العصر بل نادرة أصبحت ، ففي سنة 683 أتخذت سجنا لأرباب الدولة في العراق التابعين للسلطان أحمد خان بن هولاكو خان ، وهم شرف الدين هارون زوج زبيدة وشمس الدين زرديان نائبه في بغداد ، وعز الدين المشارك في كتابه الديوان ، ونظام الدين عبد الله بن قاضي البندينجين أي مندلي وذلك لأن تولية السلطان أرغون كانت كافية في اعتقالهم واهلاكهم بعد شهرهم على أقبح الصور واسمج الهئيات . ورد ذكرها في أخبار نور الدين عثمان بن ابراهيم بن يعقوب بن عبد اللك الآمدي المالكي ، وكان قد استنابه قاضي بغداد بدر الدين محمد بن علي الرقيّ الحنفي في الحكم والقضاء بالجانب الغربي من بغداد ، وجعل مدرسا في المدرسة العصمتية ، وكان ورعا متدينا وتوفي سنة 687 هجري . في سنة725 في عهد الملك بو سعيد بن محمد خرنبده بن أرغون بن أباقا بن هولاكو غرقت بغداد أفظع الغرق وأهوله ، وانهارت أكثر عماراتها في الجانبين ، وصارت بغداد كالجزيرة وسط بحر ، فما تهدم من عماراتها المدرسة العصمتية ، وغرقت خزانة الكتب التي فيها ، وكانت تتساوي أكثر من عشرة آلاف دينار ، هذا من حيث القيمة ، فأما العلم الذي درس معها فلا يمكن أحدا التعويض عنه . وقيل في هذا الغرق أن الرجل كان يقف على سور بغداد فلا يرى على قدر مدّ بصر الا ماءا وسماءا وغرق ناس كثير وهلكوا ، واشتد الخطب وامتنع النوم الضجات ، والفديد والجلبة خوف الغرق ، وسار أهل بغداد في الأسواق مكشفة رؤوسهم كالزاهقة نفوسهم ، وعمائمهم في رقابهم وهم يتلو القرآن ، ويستغيثون الله ويودع بعضهم بعضا أيقانا منهم بقرب هلاكهم ، وجاء ماء الفيضان بحيات عظيمة جدا ، ولما نضب الماء نبت في أرض بغداد عروق بطيخ شكله كشكل الخيار وطعمه فج، ونبتت أشياء أخرى غريبة الشكل ، ولا شك في أن الماء هو الذي جاء ببذور تلكم النباتات من الأصقاع الشمالية ، ولم نجد بعد هذا الغرق للمدرسة العصمتية ذكرا ولا خبرا.

المراجع

أمير المؤمنين أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي ابن عبد الله بن عباس

الاسم المعروف للخليفة:	السفاح
اسمه الكامل:	عبد الله بن محمد بن علي ابن عبد الله بن عباس
الكنية :	أبو العباس
ترتيبه في تولي الخلافة:	الأول
تاريخ الميلاد:	108
فترة الخلافة بالهجري:	132 -136
فترة الخلافة بالميلادي:	749 -754 م
تاريخ الوفاة:	136

ولد بالحميمة من ناحية البلقاء ونشأ بها وبويع بالكوفة وأمه ريطة الحارثية. حدث عن أخيه إبراهيم بن محمد الإمام وروى عنه عمه عيسى بن علي وكان أصغر من أخيه المنصور.

واستخلف و هو ابن سبع و عشرون سنة ، بويع له بالخلافة بالكوفة يوم الجمعة لأربع عشر خلت من ربيع الأول سنة اثنين و ثلاثين و مئة مات السفاح بالجذري في ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة وكان قد عهد إلى أخيه أبي جعفر بالخلافة .

أبو عبد الله محمد الأمين

170ـ 198 هـ

الخليفة العباسي أبو عبد الله محمد الامين، ولى الخلافة بعد أبيه هارون الرشيد. أمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور فهو هاشمي أبا وأما، ولم يتفق ذلك لغيره من الخلفاء إلا لعلي بن أبي طالب، ولابنه الحسن.

اسمه الكامل محمد بن هارون بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي ابن عبد الله بن العباس، يكنى بأبو عبد الله، وهو السادس من الخلفاء العباسسين، تولى الخلافة بين عامي 193 إلى 198 للهجرة إلى أن قتل بعد نزاعه مع أخيه المأمون على الخلافة.

كان الأمين ولي عهد أبيه فولي الخلافة بعده وكان من أحسن الشباب صورة أبيض طويلا جميلا ذا قوة مفرطة وبطش وشجاعة ومعرفة يقال إنه قتل مرة أسداً بيده وله فصاحة وبلاغة وأدب وفضيلة.

قال الصولي: ولا نعرف للأمين رواية في الحديث إلا هذا الحديث الواحد حدثنا المغيرة بن محمد المهلبي قال رأيت عند الحسين بن الضحاك جماعة من بني هاشم فيهم بعض أولاد المتوكل فسألوه عن الأمين وأدبه فوصف الحسين أدباً كثيراً قيل: فالفقه قال: كان المأمون أفقه منه قيل فالحديث قال ما سمعت منه حديثاً إلا مرة فإنه نعي إليه غلام له مات بمكة فقال: حدثني أبي عن أبيه عن المنصور عن أبيه عن علي بن عبد الله عن ابن عباس عن أبيه سمعت النبي صلى الله عليه واله وسلم يقول "من مات محرماً حشر ملبياً".

قال الثعالبي في لطائف المعارف: كان أبو العيناء يقول لو نشرت زبيدة ضفائرها ما تعلقت إلا بخليفة أو ولي عهد فإن المنصور جدها والسفاح أخو جدها والمهدي عمها والرشيد زوجها والأمين ابنها والمأمون والمعتصم ابنا زوجها والواثق والمتوكل ابنا ابن زوجها وأما ولاة العهود فكثيرة.

وكان هارون الرشيد قد عهد بولاية العهد للأمين وللمأمون من بعده. وليس في خلافة الأمين والتي دامت قريبًا من خمس سنوات 193-198هـ/ 809 - 814م شيء يذكر، غير أنه أعطى المجاهدين مالا عظيمًا ووجه جيشًا تابعا له لغزو الروم، وأعطى مدن الثغور المواجهة للروم شيءًا من عنايته، فأمر في سنة 193 هـ/ 809م ببناء مدينة "أذنة" وأحكم بناءها وتحصينها، وندب إليها الرجال لسكناها، أما فيما عدا ذلك، فقد مرت خلافته في صراع بينه وبين أخيه المأمون من أجل الخلافة، انتهى بقتل الأمين وانفراد المأمون بالحكم، وكان الأمين قد تلقى علوم الفقه واللغة من الكسائي، وقرأ عليه القرآن.

كان الرشيد قد عزم على تولية المأمون من بعده بإعتباره أكبر أولاده سناً، إلا انه عاد فعدل عن ذلك وبايع ابنه الأمين، بسبب تدخل أمه زبيدة في الأمر. ولما آلت الخلافة إلى الأمين، عول على خلع أخيه المامون من ولاية العهد، وشجعه على ذلك وزيره الفضل بن الربيع. وحثه على تولية ابنه الرضيع موسى ولاية العهد وسماه الناطق بالحق، ومن ذلك الحين بدأت الفتنة بين الأمين والمأمون وسببها في الواقع نكث الأمين للعهد على نفسه في حياة أبيه مما أغضب الخراسانيين وغيرهم من الأمصار الأسلامية، وتطورت لتصبح نزاعاً بين الفرس والعرب، وظل الأمين خمس سنوات خليفة بالأسم دون الفعل لأن سلطته لم تكن تامة على جميع الأقاليم في الدولة العباسية، وكان الأمين شاباً مولعاً بالصيد والموسيقى والترف ومسلماً زمام الأمور إلى وزيره الفضل بن الربيع، والذي وقف معه في نزاعه مع أخيه أشهر القادة العرب حينذاك علي بن عيسى بن ماهان وعبد الرحمن بن جبله بينما وقف مع المأمون وزيره الفضل بن سهل وقادته هرثمة بن الأعين وطاهر بن الحسين، وهما من الفرس، وخلع الامين أخاه المأمون سنة 195هـ، وأمر المأمون بالقدوم إلى بغداد لتقديم البيعة فعهد المأمون إلى قائديه هرثمة وطاهر بالهجوم على بغداد فدارت رحى حرب رهيبة في موقعة يقال لها (الري) وهزم جيش الأمين وقتل قادته، وحوصرت بغداد 12 شهراً، وضربت بالمنجنيق وخربت المدينة وهدمت أسوارها وأحترقت أسواقها ورغم كل ذلك أستمر الأمين بلعبه ولهوه غير مبال لما يحدث فهاجمه جند المأمون وقتلوه وأرسلت رأسه إلى المأمون في خراسان.

لم يكن الأمين ولا المأمون يريدان الحرب والصراع، ولكن الفتنة أشد من القتل. ولا أقل أن نعرف أن المأمون حين نقل إليه رأس الأمين غضب غضباً شديداً، ولم يزل هكذا حتى إنتقم من الطاهر بن الحسين الخزاعي الذي قتل الأمين.

ورد في كتاب "المعارف" للدينوري:

" وبويع الأمين محمد بن هارون بطوس وولي أمر البيعة صالح بن هارون وقدم عليه بها رجاء الخادم للنصف من جمادى الآخرة، فخطب الناس وبويع ببغداد وأخرج من الحبس من كان أبوه حبسه فأخرج عبد الملك بن صالح والحسن بن علي بن عاصم وسلم بن سالم البجلي والهيثم بن عدي، ومات إسماعيل بن علية وكان على مظالم محمد في ذي القعدة سنة ثلاث وتسعين ومائة فولي مظالمه محمد بن عبد الأنصاري من ولد أنس بن مالك والقضاء ببغداد، وبعث إلى وكيع بن الجراح فأقدمه بغداد على أن يسند إليه أمراً من أموره فأبى وكيع أن يدخل في شيء وتوجه وكيع إلى مكة في ذي القعدة سنة ثلاث وتسعين ومائة ومات في طريقها، واتخذ الفضل بن الربيع وزيراً وإسماعيل بن صبيح كاتباً والعباس بن الفضل بن الربيع حاجباً وأغرى الفضل بينه وبين المأمون فنصب محمد ابنه موسى لولاية العهد بعهده وأخذ له البيعة ولقبه الناطق بالحق سنة أربع وتسعين ومائة، وجعله في حجر علي بن عيسى، وأمر علياً بالتوجه إلى خراسان لمحاربة المأمون في سنة خمس وتسعين ومائة، ووجه المأمون هرثمة من مرو وعلى مقدمته طاهر بن الحسين فالتقى علي بن عيسى وطاهر بالري فاقتتلوا، فقتل علي بن عيسى وجماعة من ولده في شهر رمضان سنة خمس وتسعين ومائة، فظفر طاهر بجميع ما كان معه من الأموال والعدة والكراع، فوجه محمد عبد الرحمن بن جبلة الأنباري فالتقى هو وطاهر بهمذان فقتله طاهر، ودخل همذان واجتمع هو وهرثمة فأخذ طاهر على الأهواز، وأخذ هرثمة على الجادة طريق حلوان، ووجه الفضل بن سهل زهير بن المسيب على طريق كرمان، فأخذ كرمان ثم دخل البصرة ولما أتى طاهر الأهواز وجد عليها والياً من المهالبة لمحمد فقتله واستولى على الأهواز ثم صار إلى واسط وصار هرثمة إلى حلوان، ووثب الحسين بن علي بن عيسى في جماعة ببغداد فدخل على محمد وهو في

الخلد فحبسه في برج من أبراج مدينة أبي جعفر فتقرضت عساكر محمد من جميع الوجوه، وتغيب الفضل بن الربيع يومئذ فلم يرَ له أثر حتى دخل المأمون بغداد فأرسل الحسين بن علي إلى هرثمة وطاهر يحثهما على الدخول إلى بغداد، ووثب أسد الحربي وجماعة فاستخرجوا محمداً وولده واعتذروا إليه وأخذوا الحسين بن علي فأتوه به فعفا عنه بعد أن اعترف بذنبه وتاب منه وأقر أنه مخدوع مغرور وأطلقه، فلما خرج من عنده وعبر الجسر نادى يا مأمون يا منصور، وتوجه نحو هرثمة فتوجهوا في طلبه فأدركوه بقرب نهربين فقتلوه وأتوا محمداً برأسه، وصار هرثمة إلى النهروان ثم زحف إلى نهربين ونزل طاهر باب الأنبار وصار زهير بن المسيب بكلواذا ولم يزالوا في محاربة، وكاتب طاهر القاسم المؤتمن بن هارون، وكان نازلاً في قصر جعفر بن يحيى بالدور وسأله أن يخرج إليه ففعل وسلم القصر إليه ولم يزلا الأمر على محمد حتى لجأ إلى مدينة أبي جعفر وبعث إلى هرثمة إني أخرج إليك الليلة، فلما خرج صار في أيدي أصحاب طاهرفأتوا به طاهراً فقتله من ليلته، فلما أصبح نصب رأسه على باب الحديد، ثم أنزله وبعث به إلى خراسان مع ابن عمه محمد بن الحسن بن مصعب، ودفن جثته في بستان مؤنسة في سنة ثمان وتسعين ومائة".

ورد في "سير أعلام النبلاء" للذهبي:

" الخليفة أبو عبد الله محمد بن الرشيد هارون بن المهدي محمد ابن المنصور الهاشمي العباسي البغدادي وأمه زبيدة بنت الأمير جعفر بن المنصور.

عقد له أبوه بالخلافة بعده وكان مليحاً بديع الحسن أبيض وسيماً طويلاً ذا قوة وشجاعة وأدب وفصاحة ولكنه سيئ التدبير مفرط التبذير أرعن لعاباً مع صحة إسلام ودين يقال: قتل مرة أسداً بيديه.

ويقال: كتب بخطه رقعة إلى طاهر بن الحسين الذي قاتله: يا طاهر ما قام لنا منذ قمنا قائم بحقنا فكان جزاؤه عندنا إلا السيف فانظر لنفسك أودع يلوح له بأبي مسلم وأمثاله قال المسعودي: ما ولي للخلافة هاشمي ابن هاشمية سوى علي ومحمد الأمين.

وقد جعله أبوه ولي عهده وله خمس سنين وتسلم الأمر بعد موت أبيه ببغداد وكان أخوه الآخر وهو المأمون بمرو فأمر الأمين للناس برزق سنتين ووصل إليه البردة والقضيب والخاتم من خراسان في اثني عشر يوماً في نصف الشهر وبايع المأمون لأخيه وأقام بخراسان وأهدى لأخيه تحفاً ونفائس والحرب متصل بسمرقند بين رافع وهرثمة وأعان رافعاً الترك وفيها قتل نقفور طاغية الروم في حرب برجان.

وفي سنة 194 أمر الأمين بالدعاء لابنه موسى بولاية العهد بعد ولي العهد المأمون والقاسم وأغرى الفضل بن الربيع الأمين بالمأمون وحثه على خلعه لعداوة بينهما وحسن له ذلك السندي وعلي بن عيسى بن ماهان ثم اصطلح هرثمة ورافع بن الليث بن نصر بن سيار وقدما على المأمون ومعه طاهر بن الحسين ثم بعث الأمين يطلب من المأمون تقديم موسى ولده على المأمون ولقبه الناطق بالحق فأبى ذلك المأمون واستمال المأمون الرسول فبايعه سراً وبقي يكاتبه وهو العباس بن موسى بن عيسى بن موسى.

وأما الأمين فبلغه خلاف المأمون فأسقطه من الدعاء وطلب كتبه الرشيد وعلقه بالكعبة من العهد بين الأخوين فمزقه فلامه الألباء فلم ينتصح حتى قال له خازم بن خزيمة: لن ينصحك من كذبك ولن يغشك من صدقك لا تجسر القواد على الخلع فيخلعوك ولا تحملهم على النكث فالغادر مفلول والناكث مخذول فلم يلتفت وبايع لموسى بالعهد واستوزر له.

فلما عرف المأمون خلع أخاه وتسمى بأمير المؤمنين وأما ابن ماهان فجهزه الأمين وخصه بمئتي ألف دينار وأعطاه قيداً من فضة ليقيد به المأمون بزعمه وعرض الأمين جيشه بالنهروان وأقبل طاهر في أربعة آلاف فالتقوا فقتل ابن ماهان وتمزق جيشه هذا والأمين عاكف على اللهو واللعب فبعث جيشاً آخر وندم على خلع المأمون وطمع فيه أمراؤه ثم التقى طاهر وعسكر الأمين على همذان وقتل خلق وعظم الخطب ودخل جيش الأمين إلى همذان فحاصرهم طاهر ثم نزل أميرهم إلى طاهر بالأمان في سنة 95.

وفيها ظهر بدمشق السفياني وهو أبو العميطر علي بن عبد الله بن خالد ابن يزيد بن معاوية فدعا إلى نفسه وطرد عامل الأمين وتمكن وانضمت إليه اليمانية وأهل حمص وقنسرين والساحل إلا أن قيساً لم تتابعه وهربوا.

ثم هزم طاهر جيشاً ثالثاً للأمين ثم نزل حلوان وأنفق الأمين بيوت الأموال على الجند ولا ينفعون وجاءت أمداد المأمون مع هرثمة بن أعين والفضل بن سهل وضعف أمر الأمين وجبن جنده من الخراسانيين فجهز عبد الملك بن صالح العباسي إلى الشام ليجمع له جنداً وبذل خزائن الذهب لهم فوقع ما بين العرب وبين الزواقيل فراح تحت السيف خلق منهم وأحاطت المأمونية ببغداد يحاصرون الأمين واشتد البلاء وعظم القتال وقاتلت العامة والرعاع عن الأمين قتال الموت واستمر الويل والحصار وجرت أمور لا توصف وتفاقم الأمر.

ودخلت سنة سبع وتسعين وفر القاسم الملقب بالمؤتمن وعمه منصور فلحقا بالمأمون ورمي بالمجانيق وأخذت النقوب ونفذت خزائن الأمين حتى باع الأمتعة وأنفق في المقاتلة وما زال أمره في سفال ودثرت محاسن بغداد واستأمن عدة إلى طاهر ودام الحصار والوبال خمسة عشر شهراً.

واستفحل أمر السفياني بالشام ثم وثب عليه مسلمة الأموي فقيده واستبد بالأمر فما بلع ريقه حتى حاصرهم ابن بيهس الكلابي مدة ثم نصب السلالم على السور وأخذ دمشق فهرب السفياني ومسلمة في زي النساء إلى المزة وخلع الأمين خزيمة بن خازم ومحمد بن ماهان وخامرا إلى طاهر. ثم دخل طاهر بغداد عنوة ونادى: من لزم بيته فهو آمن وحاصروا الأمين في قصوره أياماً ثم رأى أن يخرج على حمية ليلاً وفعل فظفروا به وهو في حراقة فشد عليه أصحاب طاهر في الزواريق وتعلقوا بحراقته فنقبت وغرقت فرمى الأمين بنفسه في الماء فظفر به رجل وذهب به

إلى طاهر فقتله وبعث برأسه إلى المأمون فإنا لله ولم يسر المأمون بمصرع أخيه وفي تاريخنا عجائب وأشعار لم أنشط هنا لاستيعابها.

قال أحمد بن حنبل: إني لأرجو أن يرحم الله الأمين بإنكاره على ابن علية فإنه أدخل عليه فقال له: يا ابن الفاعلة أنت الذي تقول كلام الله مخلوق؟ قلت: ولم يصرح بذلك ابن علية حاشاه بل قال عبارة تلزمه بعض ذلك وعاش الأمين سبعاً وعشرين سنة وقتل في المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة وخلافته دون الخمس سنين سامحه الله وغفر له وله من الولد: عبد الله وموسى وإبراهيم لأمهات أولاد شتى".

المراجع عن السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد

[1] هكذا وردت في "أعلام النساء"، ولعلها لا صغير في هذا الأمر (أي الخلافة).

[2] "أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام": 2/ 17 – 29 عن "الإمامة والسياسة".

[3] المرجع السابق: 2/ 20.

[4] "مروج الذهب" للمسعودي: 3/ 486، وهذا ليس طعنًا بالسيدة عائشة، إنما استفادت زبيدة من دروس التاريخ.

[5] في رواية "وأفضل سامٍ".

[6] وفي رواية "لوارث".

[7] وفي رواية "وفهمهم".

[8] وفي رواية "لأطهر"، وطاهر هو: طاهر بن الحسين بن مصعب الخزاعي (أبو الطيب): (159 – 207 هـ / 775 – 822 م)، وهو الذي وطَّد المُلك للمأمون عندما زحف إلى بغداد، فهاجمها وظفر بالأمين وقتله سنة 198 هـ، وعقد البيعة للمأمون، وكان في نفس المأمون شيء عليه؛ لقتله أخاه (الأمين) بغير مشورته، ولعله شعر بذلك، فلما استقر في خراسان، قطع خطبة المأمون، فقتله أحد غلمانه في تلك الليلة بمرو، وقيل مات مسمومًا. "الأعلام" 3/ 221.

[9] "فيما أتى".

[10] "فأخرجني".

[11] "آدري".

[12] تعني طاهرًا وكان أعورَ.

[13] تتمة الأبيات من "الطبري".

[14] "أعلام النساء": 2/ 27. "أوردنا النص بحرفيته، على الرغم مما فيه من انقطاع وأخطاء".

[15] 'رحلة ابن جبير': 165. ورآها بعض الصالحين في المنام بعد وفاتها سنة 217 هـ، فقال لها: ما فعل الله بكِ؟ قالت: غفر لي بأول معول ضرب في طريق مكة. وينسب هذا الخبر خطأً إلى عبدالله بن المبارك؛ لأنه توفي قبلها أيام الرشيد.

[16] سميراء: منزل بطريق مكة بعد توز، وتوز منزل في طريق الحاج أيضًا.

[17] المغيثة: منزل في طريق مكة بعد العذيب لحو مكة.

[18] العذيب: ماء بين القادسية والمغيثة، بينه وبين القادسية أربعة أميال.

[19] الثعلبية: منزل من منازل الطريق إلى مكة من الكوفة بعد الشوق وقبل الخزيمية.

[20] الخزيمية: منزل من منازل الحاج بعد الثعلبية من الكوفة، وقيل الأجفر.

[21] قَرَوْرَى: موضع بين المعدن والحاجر على اثني عشر ميلاً من الحاجر.

[22] البيت لجرير، ديوانه: 595.

[23] 'أمالي المرتضى': 235.

[24] 'زهرة الآداب وثمرة الألباب': 349.

[25] المرجع السابق: 962.

[26] 'وفيات الأعيان': 2/ 316.

[27] 'صبح الأعشى في صناعة الإنشا': 1/ 440

[28] 'الأخبار الطوال': 388.

[29] 'حلية الأولياء': 6/ 278

[30] 'وفيات الأعيان': 2/ 314.

ابن الجوزي

هو أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد القرشي التيمي البكري .يعود نسبه إلى محمد بن أبي بكر الصديق رضى الله تعالى عنه فقيه حنبلي محدث ومؤرخ ومتكلم (510هـ/ 1116م - 12 رمضان592 هـولد وتوفي في بغداد .

حظي بشهرة واسعة، ومكانة كبيرة في الخطابة والوعظ والتصنيف، كما برز في كثير من العلوم والفنون .

عرف بابن الجوزي لشجرة جوز كانت في داره بواسط ، ولم تكن بالبلدة شجرة جوز سواها .

قال فيه الإمام ابن كثير عند ترجمته له :

"وكان -وهو صبي- دينا منجمعا على نفسه لا يخالط أحدا ولا يأكل ما فيه شبهة، ولا يخرج من بيته إلا للجمعة، وكان لا يلعب مع الصبيان ."وقال عنه الامام ابن كثير كذلك: "أحد أفراد العلماء، برز في علوم كثيرة، وانفرد بها عن غيره، وجمع المصنفات الكبار والصغار نحوًا من ثلاثمائة مصنف "، وقال عنه الذهبي: "ما علمت أن أحدًا من العلماء صنف ما صنف هذا الرجل ."

أبطال التسريبات

الامام بن الجوزى يقول لكم :

"اتركوا الأمر للنساء وخذوا المكاحل يانساء بعمائم ولحى "

ما أشبه الليلة بالبارحة

فعندما هجم الصليبيون على الأندلس وبلاط الشهداء وقف الامام ابن الجوزى رحمه الله يخطب من فوق منبر المسجد الأموى بدمشق يصف من تقاعس عن الخروج لنصرة اخوانهم بالأندلس

بأنهم رجال فقدوا رجولتهم ..

وما أحوجنا لاستعادة خطبته اليوم بعد أن فرط من فرط منا فى كرامته وأصبحنا لاحول لنا ولاقوة راضيين بالوقوف عند عتبات الخوف واليأس والعجز، عسى أن ترفع كلماته الخوف من قلوبنا، أو أن تنزع كلماته اليأس من نفوسنا حيث خطب يقول :

"أيها الناس مالكم نسيتم دينكم وتركتم عزتكم وقعدتم عن نصر الله فلم ينصركم الله ..

حسبتم أن العزة للمشرك وقد جعل الله العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ..

ياويحكم أما يؤلمكم ويشجى نفوسكم مرأى عدو الله وعدوكم يخطر على أرضكم التى سقاها بالدماء آباؤكم؟ ..

يذلكم ويستعبدكم وأنتم كنتم سادة الدنيا ..

أما يهز قلوبكم وينمىء حماستكم مرأى اخوان لكم قد أحاط بهم العدو وسامهم ألوان الخسف؟

أفتأكلون وتشربون وتنعمون بلذائذ الحياة واخوانكم هناك يخوضون النار وينامون على الجمر؟

أيها الناس قد دارت رحى الحرب ونادى منادى الجهاد وتفتحت أبواب السماء،فان لم تكونوا من فرسان الحرب فأفسحوا الطريق للنساء يدرن رحاها واذهبوا وخذوا المكاحل يانساء"بعمائم ولحى .."

واذا كنتم فرسان الحرب فالى الخيول وهاكم لجمها وقيودها ، ياناس أتدرون مما صنعت هذه اللجم والقيود؟

لقد صنعها النساء من شعورهن لأنهن لايملكن شيئا غيرها ..

قطعنها لأن تاريخ الحب قد انتهى وبدأ تاريخ الحرب المقدسة ..

تاريخ الحرب في سبيل الله ثم فى سبيل الدفاع عن الأرض والعرض ..

فاذا لم تقدروا على الخيل تقيدونها فخذوها فاجعلوها ضفائر لكم فانها من شعور النساء.؟؟

أيها الناس ألم يبق فى نفوسكم شعور؟؟ثم ألقى الامام ابن الجوزى اللجم من فوق المنبر على رؤوس الناس صارخا "ميدى ياعمد المسجد وانقضى يارجوم وتحرّقى ياقلوب ألما وكمدا .. فقد أضاع الرجال رجولتهم أبو دلامة :زند بن الجون الاسدي بالولاء، شاعر مطبوع، كان صاحب نوادر وحكايات وأدب ونظم، وكان شاعراً فصيحاً، وماجناً مليحاً ، أسود اللون جسيم ،كان أبوه عبدا لرجل من بني أسد وأعتقه. نشأ في الكوفة واتصل بالخلفاء من بني العباس، فكانوا يستلطفونه ويغدقون عليه صلاتهم، وله في بعضهم مدائح.وكان يتهم بالزندقة لتهتكه، وأخباره كثيرة متفرقة.

وخاصم أبو دلامة رجلا فارتفعا إلى عافية القاضي فلما رآه أبو دلامة أنشد يقول

لقــد خاصــمتني دهـــاة الرجــال   وخاصــــمتها ســـنة وافيـــه

فمـــا أدحـــض الله لـــي حـــجة   ولا خيـــب الله لـــي قافيـــه

ومن خفت من جوره في القضاء ... فلست أخافك يا عافيه

فقال عافية لأشكونك إلى أمير المؤمنين ولأعلمنه أنك هجوتني قال له أبو دلامة إذا والله يعزلك ، قال ولم قال لأنك لا تعرف الهجاء من المدح قال فبلغ ذلك المنصور فضحك وأمر له بجائزة. خرج مع المهدي إلى الصيد فرمى المهدي وعلي بن سليمان ظبيا سنح لهما وقد أرسلت عليه الكلاب بسهمين فأصاب المهدي الظبي وأصاب علي بن سليمان الكلب فقتلاهما ، فضحك المهدي وقال لأبي دلامة :قل. فقال:

قـــد رمـــى المهـــدي ظبيـــاً   شـــك بالســـهم فـــؤاده

وعلـــي بـــن سليمـــا   ن رمـــى كلبـــاً فصـــاده

فهنيئــــــاً لهمــــــا ك ل امـــــــرئ يأكــــــل زاده

وكتب أبو دلامة إلى عيسى موسى، وهو والي الكوفة رقعة فيها هذه الأبيات:

إذا جئــت الأمـــير فقــل ســلام عليـــك ورحمـــة الله الـــرحيم

فأمــا بعـــد ذاك فلـــي غـــريم مـــن الأنصـــار قـــبح مـــن غـــريم

لـــزوم مـــا علمـــت لبـــاب داري لـــزوم الكلـــب أصـــحاب الـــرقيم

لـــه مائـــة علـــي ونصـــف أخـــرى ونصـــف النصـــف في صـــك قـــديم

دراهـــم مـــا انتفعـــت بهـــا ولكـــن وصـــلت بهـــا شـــيوخ بـــني تمـــيم

أتـــوني بالعشـــيرة يســـــألوني ولـــم أك في العشـــيرة بـــاللئيم

قال: فبعث إليه بمائة ألف درهم.

ودخل أبو دلامة على المهدي، وعنده محمد بن الجهم وزيره، وكان المهدي يستثقله فقال له: أبا دلامة، والله لا تبرح مكانك حتى تهجو أحد الثلاثة. فهم أبو دلامة بهجاء ابن الجهم فخاف شره فازداد حيرة ، فرأى ان هجاء نفسه أقل ضرراً عليه فقال:

ألا أبلـــغ لـــديك أبـــا دلامـــة فلســـت مـــن الكـــرام ولا كرامـــه

جمعـــت دمامـــة وجمعـــت لؤمـــا كـــذاك اللـــؤم تتبعـــه الدمامـــه

إذا لبس العمامة قلت قردا   وخنزيرا إذا نزع العمامه

فضحك القوم ولم يبق منهم أحدا إلا أجازهوعرض أبو دلامة ليزيد بن مزيد، وهو قادم من الري، فأخذ بعنان فرسه وأنشده: إني حلفت لئن رأيتك سالماً ... بقرى العراق وأنت ذو وفر لتصلين على النبي محمد ... ولتملأن دراهماً حجري فقال له: أما الصلاة على النبي فصلى الله عليه وسلم، وأما الدراهم فإلى أن أرجع إن شاء الله. فقال له: لا تفرق بينهما، لا فرق الله بينك وبين محمد في الجنة! فاستسلفها من أصحابه وصبها في حجره حتى أثقله. ودخل أبو دلامة على المهدي فأسمعه مديحاً له فيه، فأعجبه وقال له: سل حاجتك. قال: كلب صيد أصطاد به. قال: قد أمران لك بكلب تصطاد به. قال: وغلام يقود الكلب. قال: وغلام يقود الكلب .قال: وخادم تطبخ لنا الصيد. قال: وخادم. قال: ودار نسكنها. قال: وداراً تسكنها. قال: وجارية آوي إليها. قال: وجارية. قال: بقي الآن المعاش. قال :قد أقطعناك ألف جريب عامر، وألف جريب غامرة. قال: وما الغامرة؟ قال: التي لا تعمر. قال: فأنا أقطع أمير المؤمنين خمسين ألفاً من فيافي بني أسد. قال :فإنا نجعلها عامرة كلها.

أبو فراس الحمداني (320- 357) هو الحارث بن سعيد بن حمدان، فارس أسرة بني حمدان وشاعرهم، ولد في الموصل ونشأ يتيما لأن ناصر الدولة صاحب الموصل، وهو أخ سيف الدولة كان قتل سعيدا والد أبي فراس، فكفله علي (سيف الدولة) الذي كان زوج أخته.

رأى سيف الدولة في أبي فراس دلائل النجابة والفروسية فجعله صاحب منبج، وأوكل إليه أمر الثغور في نواحيها لصد الروم أو هجمات الأعراب، فأبدى شجاعة فائقة وإقداما عظيما.

وفي سنة 348 أسرت الروم أبا فراس، ففداه سيف الدولة سنة 355. ويقال إنه أسر مرتين إحداهما سنة 348 والثانية سنة 351، وفي الثانية ذهبوا به إلى القسطنطينية فأقام ينتظر فداء سيف الدولة له بمال وفير أو مبادلة بأسير عظيم فطال

ذلك حتى سنة 355. وبعد فداء أبي فراس ولاه سيف الدولة "حمص"، ولم يلبث أن توفي الأمير سنة 356 وتولى ابنه أبو المعالي تحت وصاية الوزير قرغويه، ولكن أمر السلطة دعا القريبين إلى الاقتتال قرب حمس، وانتهى الأمر بمصرع أبي فراس، وقبره معروف في قرية "صدد" قرب حمص.

كانت نشأة أبي فراس وطفولته في ظل والدته التي حدبت على رعايته، وتحت عطف زوج أخته سيف الدولة وتتلمذ على اللغوي الشهير ابن خالويه وغيره، كما شاهد أرباب القلم يفدون على بلاط سيف الدولة، واحتك بهم، ونبغ في الشعر، فتغزل ووصف المعارك، وله في الأسر قصائد كثيرة مشهورة عرفت بـ"الروميات" تعتبر من أرق شعره وأجمله.

سخر أبو فراس شعره ليتحدث عن مشاعره وأحاسيسه، فقد كان وجدانيا يصف ما يقع تحت بصره من حوادث ووقائع، وما يعتلج في صدره من آلام وآمال، ولأبي فراس مكانة عند مؤلفي الأدب، فقد قيل فيه: "بُدئ الشعر بملك وختم بملك، يعني امرؤ القيس وأبا فراس."

محمد بن حازم بن عمرو الباهلي بالولاء أبو جعفر.

شاعر مطبوع، كثير الهجاء، لم يمدح من الخلفاء غير المأمون العباسي، ونشأ في البصرة وسكن بغداد ومات فيها.

قال الشابشتي: كان يأتي بالمعاني التي تستغلق على غيره وأكثر شعره في القناعة ومدح التصوّف وذم الحرص والطمع.

وهبتُ القومَ للحسنِ بنِ سهلٍ فعوَّضني الجزيلَ منَ الثوابِ
وقالَ دعِ الهجاءَ وقلْ جميلاً فإنَّ القصدَ أقربُ للثوابِ
فقلتُ لهُ برئتُ إليكَ منهمْ فليتهمُ بمنقطعِ التُّراب
ولولانعمةُ الحسن بن سهلٍ عليَّلسمتهمْ سوءَ العذابِ
بشعرٍ يعجبُ الشعراءَ منهُ يشبَّهُ بالهجاءِ وبالعتابِ
أكيدهمُ مكايدةَ الأعادي وأختلهمْ مخاتلةَ الذِّئابِ

بلوتُ خيارهمْ فبلوتُ قوماً كهولهمُ أخسُّ منَ الشَّبابِ
وما مسخوا كلاباً غيرَ أنّي رأيتُ القومَ أشباهَ الكلابِ

هو إسحاق بن إبراهيم بن ماهان (أو ميمون) بن بهمن الموصلي التّميمي بالولاء، الأرجانيّ الأصل المعروف بابن النّديم الموصلي نادم الرّشيد والمأمون والمُعتصم والواثق.

تتلمذ على أحد تلامذة والده وهو زلزل، فتعلّم منه الضّرب على العود وتعلّم الغناء من عاتكة بنت شذا، فاشتهر بالغناء والموسيقى حتى أصبح من أشهر وأمهر المُغنّين والموسيقيّين في العصر العباسي.

تفرّد بالغناء وصناعته، وكان عالمًا باللّغة والموسيقى والتّاريخ وعلوم الدّين وعلم الكلام؛ راويًا للشّعر، حافظًا للأخبار. قال عنه صاحب الأغاني: "كان الغناء أصغر علوم إسحاق وأدنى ما يوسم به، وإن كان الغالب عليه وعلى ما يحسنه. هو الذي صحّح أجناس الغناء". وقال عنه المأمون: "لولا اشتهار إسحاق بالغناء لَوَلّيتُه القضاء، لما أعلم من عفّته ونزاهته وأمانته".

وقال الواثق: "ما غنّاني إسحاق قط إلاّ ظننتُ أنّه زيد لي في ملكي".

توفّي الموصلي عن عُمرٍ يُناهزُ الثّمانين.

وجاء في "وفيات الأعيان" لابن خلكان: هو أبو محمد إسحاق بن إبراهيم بن ماهان بن بهمن بن نسك التميمي بالولاء الأرجاني الأصل المعروف بابن النديم الموصلي، وقد سبق ذكر أبيه والكلام في نسبته ونسبه فأغنى عن الإعادة؛ كان من ندماء الخلفاء وله الظرف المشهور والخلاعة والغناء اللذان تفرد بهما. وكان من العلماء باللغة والأشعار وأخبار الشعراء وأيام الناس، وروى عنه مصعب بن عبد الله الزبيري والزبير ابن بكار وغيرهما. وكان له يد طولى في الحديث والفقه وعلم الكلام.

قال محمد بن عطية العطوي الشاعر: كنت في مجلس القاضي يحيى بن أكثم، فوافى إسحاق بن إبراهيم الموصلي، وأخذ يناظر أهل الكلام حتى انتصف منهم،

ثم تكلم في الفقه، فأحسن وقاس واحتج، وتكلم في الشعر واللغة، ففاق من حضر، ثم أقبل على القاضي يحيى فقال له: أعز الله القاضي! أفي شيء مما ناظرت فيه وحكيته نقص أو مطعن؟ قال: لا، قال: فما بالي أقوم بسائر هذه العلوم قيام أهلها وانسب إلى فن واحد قد اقتصر الناس عليه؟ يعني الغناء. قال العطوي: فالتفت إلي القاضي يحيى وقال لي: الجواب في هذا عليك، وكان العطوي من أهل الجدل، فقال القاضي يحيى: نعم، أعز الله القاضي! الجواب علي. ثم أقبل على إسحاق فقال: يا أبا محمد، انت كالفراء والخفش في النحو؟ فقال: لا، فقال: فأنت في اللغة ومعرفة الشعر مالأصمعي وأبي عبيدة؟ قال: لا، قال: فأنت في علم الكلام كأبي الهذيل العلاف والنظام ابلخي؟ قال: لا، قال: فأنت في الفقه كالقاضي؟ واشار إلى القاضي يحيى، قال: لا، قال: فأنت في قول الشعر كأبي العتاهية وأبي نواس؟ قال: لا، قال فمن ههنا نسبت إلى مانسبت إليه لأنه لا نظير لك فيه، وأنت في غيره دون رؤساء أهله، فضحك وقام وانصرف. فقال القاضي يحيى العطوي: لقد وفيت الحجة حقها، وفيها ظلم قليل لإسحاق، وغنه ممن يقل في الزمان نظيره.

وذكر عماد الدين أبو المجد إسماعيل بن باطيش الموصلي في كتابه الذي سماه التمييز والفصل: أن إسحاق بن إبراهيم الموصلي كان مليح المحاورة والنادرة، ظريفاً فاضلاً، كتب الحديث عن سفيان بن عينية ومالك بن أنس وهشيم بن بشير وأبي معاوية الضرير، وأخذ الدب عن الأصمعي وأبي عبيدة، وبرع في علم الغناء فغلب عليه ونسب إليه.

وكان الخلفاء يكرمونه ويقربونه، وكان المأمون يقول: لولا ما سبق لإسحاق على ألسنة الناس واشتهر بالغناء لوليته القضاء، فإنه أولى وأعف وأصدق وأكثر ديناً وامانة من هؤلاء القضاة، ولكنه اشتهر بالغناء وغلب على جميع علومه، مع أنه أصغرها عنده، ولم يكن له فيه نظير.

وله نظم جيد ديوان شعر، فمن شعره ما كتبه إلى هارون الرشيد:

وآمرة بالبخل قلت لها اقصري   فليس إلى ما تأمرين سبيل

أرى الناس خلان الجواد ولا أرى بخيلاً لـه في العالمـين خـليـل

وإني رأيت البخـل يـزري بأهلـه فأكرمت نفسي أن يقال بـخـيل

ومن خير حالات الفتى لو علمتـه إذا نـال شـيئاً ان يكـون ينـيل

عطـائي عطـاء المكثـرين تكـرمـا وما لي كما قد تعلمـين قـليل

وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى ورأي أمـير المؤمنـين جـمـيل

وكان كثير الكتب، حتى قال أبو العباس ثعلب: رأيت لإسحاق الموصلي ألف جزء من لغات العرب، وكلها بسماعه. وما رأيت اللغة في منزل أحد قط أكثر منها في منزل إسحاق ثم منزل ابن الأعرابي.

ونقلت من حكاياته أنه قال: كان لنا جار يعرف بأبي حفص، وينبز باللوطي، فمرض جار له فعاده، فقال له: كيف تجدك؟ إنما تعرفني؟ فقال له المريض بصوت ضعيف: بلى، أنت ابو حفص اللوطي، فقال له: تجاوزت حد المعرفة، لارفع الله جنبك.

وكان المعتصم يقول: ماغناني إسحاق بن ابراهيم قط إلا خيل لي أنه قد زيد في ملكي.

وأخباره كثيرة، وكان قد عمي في أواخر عمره قبل موته بسنتين.

ومولده في سنة خمسين ومائة، وهي السنة التي ولد فيها امام الشافعي، رضي الله عنه، كما سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى.

وتوفي في شهر رمضان سنة خمس وثلاثين ومائتين بعلة الذرب، وقيل: في شوال سنة ست وثلاثين، والأول أشهر، وقيل: توفي يوم الخميس بعد الظهر لخمس خلون من ذي الحجة سنة ست وثلاثينن رحمه الله تعالى.

ورثاه بعض أصحابه بقوله:

أصبح اللهو تحت عفر التراب ثاوياً في محلة الحباب

إذا مضى الموصلي وانقرض الأن س ومجت مشاهد الأطراب

بكت الملهيات حزنا عليه وبكاه الهوى وصفو الشراب

وبكت آلة المجالس حتى رحم العود عبرة المضراب

وقيل: إن هذه المرثية في أبيه إبراهيم :

الفضل بن يحيى البرمكي

الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي أخو جعفر، كان رضيع هارون الرشيد، وولاه الرشيد أعمالاً جليلة بخراسان وغيرها، كان أندى كفاً من أخيه جعفر إلا أنه كان فيه كبر شديد.

توفي في السجن سنة (192)، وقيل: (193) هـ.

ورد في كتاب "وفيات الأعيان" لابن خلكان:

أبو العباس الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك البرمكي، كان من أكثرهم كرما مع كرم البرامكة وسعة جودهم، وكان أكرم من أخيه جعفر ، وكان جعفر أبلغ في الرسائل والكتابة منه، وكان هارون الرشيد قد ولاه الوزارة قبل جعفر، وأراد أن ينقلها إلى جعفر فقال لأبيهما يحيى: يا أبت - وكان يدعوه يا أبت - إني أريد أن

أجعل الخاتم الذي لأخي الفضل لجعفر، وكان يدعوه الفضل يا أخي، فإنهما متقاربان في المولد، وكانت أم الفضل قد أرضعت الرشيد، واسمها زبيدة من مولدات المدينة، والخيزران أم الرشيد أرضعت الفضل، فكانا أخوين من الرضاع، وفي ذلك قال مروان بن أبي حفصة يمدح الفضل:

كفى لك فضلا أن أفضل حـرة   غذتك بثدي والخـلـيفة واحـد

لقد زنت يحيى في المشاهد كلها   كما زان يحيى خالدا في المشاهد

قال الرشيد ليحيى: وقد احتشمت من الكتاب إليه في ذلك فاكفنيه، فكتب والده إليه: قد أمر أمير المؤمنين بتحويل الخاتم من يمينك إلى شمالك فكتب إليه الفضل قد سمعت مقالة أمير المؤمنين في أخي وأطعت، وما انتقلت عني نعمة صارت إليه، ولا غربت عني رتبة طلعت عليه فقال جعفر: لله أخي ما أنفس نفسه، وأبين دلائل الفضل عليه، وأقوى منة العقل فيه، وأوسع في البلاغة ذرعه.

وكان الرشيد قد جعل ولده محمدا في حجر الفضل بن يحيى، والمأمون في حجر جعفر، فاختص كل واحد منهما بمن في حجره، ثم إن الرشيد قلد الفضل بعمل خراسان، فتوجه إليها وأقام بها مدة، فوصل كتاب صاحب البريد بخراسان إلى الرشيد ويحيى جالس بين يديه ومضمون الكتاب أن الفضل بن يحيى متشاغل بالصيد وإدمان اللذات عن النظر في أمور الرعية، فلما قرأه الرشيد رمى به إلى يحيى، وقال له: يا أبت، اقرأ هذا الكتاب واكتب إليه بما يردعه عن هذا، فكتب يحيى على ظهر كتاب صاحب البريد: حفظك الله يا بني وأمتع بك، قد انتهى إلى أمير المؤمنين مما أنت عليه من التشاغل بالصيد ومداومة اللذات عن النظر في أمور الرعية ما أنكره، فعاود ما هو أزين بك، فإنه من عاد إلى ما يزينه أو يشينه لم يعرفه أهل دهره إلا به، والسلام وكتب في أسفله هذه الأبيات:

انصب نهارا في طلاب العلا   واصبر على فقد لقاء الحبيب

حتى إذ الليل أتى مقبلا واستترت فيه وجوه العيوب

فكابد اليل بما تشتهي فإنما الليل نهار الأريب

كم من فتى تحسبه ناسكا يستقبل الليل بأمر عجيب

غطى عليه الليل أستاره فبات في لهو وعيش خصيب

ولذة الأحمق مكشوفة يسعى بها كل عدو رقيب

والرشيد ينظر إلى ما يكتب، فلما فرغ قال: أبلغت يا أبت، فلما ورد الكتاب على الفضل لم يفارق المسجد نهارا إلى أن انصرف من عمله.

ومن مناقبه أنه لما تولى خراسان دخل إلى بلخ وهو وطنهم، وبها النوبهار وهو بيت النار التي كانت المجوس تعبدها، وكان جدهم برمك خادم ذلك البيت - حسبما هو مشروح في ترجمة جعفر - فأراد الفضل هدم ذلك البيت، فلم يقدر عليه لإحكام بنائه، فهدم منه ناحية وبنى فيها مسجدا.

وذكر الجهشياري في - أخبار الوزراء - أن الرشيد ولى جعفر بن يحيى الغرب كله من الأنبار إلى أفريقية في سنة ست وسبعين ومائة، وقلد الضل الشرق كله من شروان إلى أقصى بلاد الترك، فأقام جعفر بمصر واستخلف على عمله، وشخص الفضل إلى عمله في سنة ثمان وسبعين، فلما وصل إلى خراسان أزال سيرة الجور، وبنى المساجد والحياض والربط وأحرق دفاتر البقايا وزاد الجند، ووصل الزوار والقواد والكتاب في سنة تسع بعشرة آلاف درهم، واستخلف على عمله، وشخص في آخر هذه السنة إلى العراق، فتلقاه الرشيد وجمع له الناس وأكرمه غاية الإكرام، وأمر الشعراء بمدحه والخطباء بذكر فضله، فكثر المادحون له، ومدحه إسحاق بن إبراهيم الموصلي بأبيات منها:

لو كان بيني وبين الفضل معرفة فضل بن يحيى لأعداني على الزمن

هو الفتى الماجد الميمـون طـائره والمشتري الحمد بالغالي من الثمن

وكان أبو الهول الحميري قد هجا الفضل، ثم أتاه راغبا إليه، فقال له: ويلك! بأي وجه تلقاني؟ فقال: بالوجه الذي ألقى به الله عز وجل وذنوبي إليه أكثر من ذنوبي إليك، فضحك ووصله.

ومن كلامه: ماسرور الموعود بالفائدة كسروري بالإنجاز.

وقيل له: ما أحسن كرمك لولا تيه فيك، فقال: تعلمت الكرم والتيه من عمارة بن حمزة. فقيل له: وكيف ذلك؟ فقال: كان أبي عاملا على بعض كور بلاد فارس، فانكسرت عليه جملة مستكثرة، فحمل إلى بغداد، وطولب بالمال، فدفع جميع ما يملكه، وبقيت عليه ثلاثة آلاف ألف درهم لا يعرف لها وجها، والطلب عليه حثيث، فبقي حائرا في أمره، وكانت بينه وبين عمارة بن حمزة منافرة ومواحشة، لكنه علم أنه ما يقدر على مساعدته إلا هو، فقال لي يوما وأنا صبي: امض إلى عمارة وسلم عليه عني وعرفه الضرورة التي قد صرنا إليها واطلب منه هذا المبلغ على سبيل القرض إلى أن يسهل الله تعالى باليسرة، فقلت له: أنت تعلم ما بينكما، وكيف أمضي إلى عدوك بهذه الرسالة وأنا أعلم أنه لو قدر على إتلافك لأتلفك؟ فقال: لا بد أن تمضي إليه لعل الله يسخره ويوقع في قلبه الرحمة، قال الفضل: فلم يمكني معاودته، وخرجت وأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى، حتى أتيت داره واستأذنت في الدخول عليه، فأذن لي، فلما دخلت وجدته في صدر إيوانه متكئا على مفارش وثيرة، وقد غلف سعر رأسه ولحيته بالمسك، ووجهه إلى الحائط وكان من شدة تيهه لا يقعد إلا كذلك، قال الفضل: فوقفت أسفل الإيوان، وسلمت عليه فلم يرد السلام، فسلمت عليه عن أبي وقصصت عليه القصة، فسكت ساعة ثم قال: حتى ننظر، فخرجت من عنده نادما على نقل خطاي إليه، موقنا بالحرمان عاتبا على أبي كونه كلفني إذلال نفسي بما لا فائدة فيه، وعزمت على أن لا أعود إليه غيظا منه، فغبت عنه ساعة ثم جئته وقد سكن ما عندي، فلما وصلت إلى الباب وجدت أبغالا

محملة، فقلت: ما هذه؟ فقيل: إن عمارة قد سير المال، فدخلت على أبي ولم أخبره بشيء مما جرى لي معه كيلا أكدر عليه إحسانه، فمكثنا قليلا، وعاد أبي إلى الولاية وحصلت له أموال كثيرة، فدفع إلي ذلك المبلغ وقال: تحمله إليه، فجئت به ودخلت عليه، فوجدته على الهيئة الأولى، فسلمت عليه فلم يرد، فسلمت عليه عن أبي وشكرت إحسانه وعرفته بوصول المال، فقال لي بحرد: ويحك أقسطارا كنت لأبيك؟ اخرج عني لا بارك الله فيك، وهو لك، فخرجت ورددت المال إلى أبي وعجبنا من حاله، فقال لي: يا بني، والله ما تسمح نفسي لك بذلك، ولكن خذ ألف ألف درهم واترك لأبيك ألفي ألف درهم، فتعلمت منه الكرم والتيه.

وحكى الجهشياري في – أخبار الوزراء – هذه الحكاية، لكن بين الحكايتين اختلاف قليل، وذكر أن جملة المال ألف ألف درهم، وكان ذلك في أيام المهدي، وكان يحيى قد ضمن فارس فانكسر عليه المال، وقال المهدي لمن يطالبه بالمال: إن أدى لك المال قبل المغرب من يومنا هذا وإلا فأتني برأسه، وكلن المهدي مغضبا عليه.

والقسطار: الصيرفي.

وعمارة المذكور من أولاد عكرمة مولى ابن عباس، وقد تقدم ذكره، وكان كاتب أبي جعفر المنصور ومولاه، وكان تائها معجبا، كريما بليغا فصيحا، أعور. وكان المنصور وولده المهدي يقدمانه، ويحتملان أخلاقه لفضله وبلاغته ووجوب حقه، وولي لهما الأعمال الكبار، وله رسائل مجموعة من جملتها رسالة الخميس التي تقرأ لبني العباس. ويحكى أن الفضل دخل عليه حاجبه يوما فقال به: إن بالباب رجلا زعم أن له سببا يمت به إليك، فقال: أدخله فإذا هو شاب حسن الوجه رث الهيئة، فسلم، فأوما إليه بالجلوس فجلس، فقال له بعد ساعة: ما حاجتك؟ قال، أعلمتك بها رثاثة ملبسي، قال: نعم، فما الذي تمت به إلي؟ قال: ولادة تقرب من ولادتك، وجوار يدنو من جوارك، واسم مشتق من اسمك، قال الفضل: أما الجوار فيمكن، وقد يوافق الاسم الاسم، ولكن من أعلمك بالولادة؟ قال: أخبرتني أمي أنها لما ولدتني قيل لها: قد ولد هذه الليلة ليحيى بن خالد غلام وسمي الفضل،

فسمتني أمي فضيلا إكبارا لاسمك أن تلحقني به، وصغرته لقصور قدري عن قدرك، فتبسم الفضل وقال له: كم أتى عليك من السنين؟ قال: خمس وثلاثون سنة، قال: صدقت، هذا المقدار الذي أعد، قال: فما فعلت أمك؟ قال: ماتت، قال: فما منعك من اللحاق بنا متقدما؟ قال: لم أرض نفسي للقائك، لأنها كانت في عامية معها حداثة تقعدني عن لقاء الملوك، وعلق هذا بقلبي منذ أعوام، فشغلت نفسي بما يصلح للقائك حتى رضيت نفسي، قال: فما تصلح له؟ قال: الكبير من الأمر والصغير، قال: يا غلام، أعطه لكل عام مضى من سنه ألف درهم، وأعطه عشرة آلاف درهم يجمل بها نفسه إلى وقت استعماله. وأعطاه مركوبا سريا.

ثم إن الرشيد لما قتل جعفرا - على ما تقدم في ترجمته - قبض على أبيه يحيى وأخيه الفضل المذكور، وكان عنده، ثم توجه الرشيد إلى الرقة وهما معه وجميع البرامكة في التوكيل غير يحيى، فلما وصلوا إليها وجه الرشيد إلى يحيى أن أقم بالرقة أو حيث شئت، فوجه إليه: إني أحب أن أكون مع ولدي، فوجه إليه: أترضى بالحبس؟ فذكر أنه يرضى به، فحبس معهم، ووسع عليهم، ثم كانوا حينا يوسع عليهم وحينا يضيق عليهم حسبما ينقل إليه عنهم، واستصفى أموال البرامكة. ويقال: إن الرشيد سير مسرورا الخادم إلى السجن، فجاءه فقال للمتوكل بهما: أخرج إلي الفضل، فأخرجه، فقال له: إن أمير المؤمنين يقول لك: إني قد أمرتك أن تصدقني عن أموالكم، فزعمت أنك قد فعلت، وقد صح عندي أنك بقيت لك أموالا كثيرة، وقد أمرني إن لم تطلعني على المال أن أضربك مائتي سوط، وأرى لك أن لا تؤثر مالك على نفسك، فرفع الفضل رأسه وقال: والله ما كذبت فيما أخبرت به، ولو خيرت بين الخروج من ملك الدنيا وأن أضرب سوطا واحدا لاخترت الخروج، وأمير المؤمنين يعلم ذلك، وأنت تعلم أنا كنا نصون أعراضنا بأموالنا، فكيف صرنا نصون أموالنا بأنفسنا؟ فإن كنت قد أمرت بشيء فامض له، فأخرج مسرورا أسواطا كانت معه في منديل، وضربه مائتي سوط، وتولى ضربه الخدم فضربوه أشد الضرب، وهم لا يحسنون الضرب، فكادوا أن يتلفوه، وتركوه. وكان هناك رجل بصير بالعلاج فطلبوه لمعالجته، فلما رآه قال: يكون قد ضربوه خمسين سوطا، فقيل: بل مائتي سوط، فقال: ما هذا إلا أثر خمسين سوطا لا غير، ولكن

يحتاج أن ينام على ظهره على بارية وأدوس صدره، فجزع الفضل من ذلك ثم أجاب إليه، فألقاه على ظهره وداسه، ثم أخذ بيده وجذبه عن البارية، فتعلق بها من لحم ظهره شيء كثير، ثم أقبل يعالجه، إلى أن نظر يوما إلى ظهره، فخر المعالج ساجدا لله تعالى، فقيل له: ما بالك؟ فقال: قد برئ وقد نبت في ظهره لحم حي، ثم قال: ألست قلت هذا ضرب خمسين سوما، أما والله لو ضرب ألف سوط ما كان أثرها بأشد من هذا الأثر، وإنما قلت ذلك حتى تقوى نفسه فيعينني على علاجه.

ثم إن الفضل اقترض من بعض أصحابه عشرة آلاف درهم وسيرها له، فردها عليه، فاعتقد أنع قد استقلها، فقترض عليها عشرة آلاف أخرى وسيرها فأبى أن يقبلها وقال: ما كنت لآخذ على معالجة فتى من الكرام كراء، والله لو كانت عشرين ألف دينار ما قبلتها، فلما بلغ ذلك الفضل قال: والله إن الذي فعله هذا أبلغ من الذي فعلناه في جميع أيامنا من المكارم، وكان قد بلغه ان ذلك المعالج كان في شدة وضائقة.

وكان الفضل ينشد وهو في السجن هذه الأبيات، وأظنها لأبي العتاهية، ثم وجدتها لصالح بن عبد القدوس من جملة أبيات قالها وهو محبوس، وقيل إنها لعلي بن الخليل، وكان هو وصالح المذكور يتهمان بالزندقة، فحبسهما الخليفة المهدي بن المنصور، فقال هذه الأبيات:

إلى الله فيما نالنا نرفع الشكوى ففي يده كشف المضرة والبلوى

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها فلا نحن في الأموات فيها ولا الأحيا

إذا جاءنا السجان يوما لحاجة عجبنا وقلنا: جاء هذا من الدنيا

وقد مدح البرامكة جميع شعراء عصرهم، فمن ذلك قول مروان بن أبي حفصة، وقيل إنها لأبي الحجناء في الفضل المذكور:

عنـد الملـوك منـافع ومـضـرة   وأرى البرامـك لا تضـر وتنفـع

إن كان شـر كـان غيرهـم لـه   والخـير منسـوب إلـيهم أجمـع

وإذا جهلت من امرئ أعراقـه   وقديمـه فـانظر إلى مـا يصنـع

إن العروق إذا استسر بها الندى   أشـب النبـات بهـا وطـاب المـزرع

وغضب الرشيد على العتابي فشفع له الفضل فرضي عنه، فقال:

ما زلت في غمرات الموت مطرحا يضيق عني وسيع الرأي والحيل

فلم تزل دائما تسعى بلطفـك لـي حتى اختلست حياتي من يدي اجلي

ومدحه أبو نواس بقصائد، قال في بعضها:

سأشكو إلى الفضل بن يحيى بن خالد هواك لعل الفضل يجمع بيننـا

فقيل له: قد أسأت المقال في المخاطبة بهذا القول، فقال: أردت جمع تفضل لا جمع توصل، وتبعه المتني بقوله:

عل الأمير يرى ذلي فيشفع لـي   إلى التي صيرتني في الهوى مثلا

وعمل فيه بعض الشعراء بيتا واحدا وهو:

ما لقينا من جود فضل بن يحيى ترك الناس كلهم شعراء

فاستحسنوا منه ذلك وعابوا عليه كونه مفردا، فقال أبو العذافير ورد ابن سعد العمى:

علم المفحمين أن ينظموا الأش عار منا والباخلين السخاء

فاستحسنوا منه ذلك.

وكان الفضل كثير البر بأبيه، وكان أبوه يتأذى من استعمال الماء البارد في زمن الشتاء. فيحكى أنهما لما كانا في السجن لم يقدرا على تسخين الماء، فكان الفضل ياخذ الإبريق النحاس وفيه الماء فيلصقه إلى بطنه زمانا عساه تنكسر برودته بحرارة بطنه حتى يستعمله أبوه بعد ذلك.

واخباره كثيرة. وكانت ولادته لسبع بقين من ذي الحجة سنة سبع وأربعين ومائة وذكر الطبري في تاريخه في أول خلافة هارون الرشيد أن مولد الفضل بن يحيى سنة ثمان وأربعين، والله أعلم. وتوفي بالسجن سنة ثلاث وتسعين ومائة في المحرم غداذ جمعة بالرقة، وقيل إنه توفي في شهر رمضان سنة اثنتين وتسعين ومائة، رحمه الله تعالى.

ولما بلغ الرشيد موته قال: أمري قريب من أمره، وكذا كان، فإنه توفي بطوس سنة ثلاث وتسعين ومائة ليلة السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة، وقيل النصف منه، وقيل ليلة الخميس النصف من جمادى الأولى، وقال ابن اللبان الفرضي: في شهر ربيع الآخر، مع اتفاقهم على السنة وقد تقدم أنه كان قرينه في الولادة أيضا وترتب في الخلافة ولده المين محمد والمأمون صاحب خراسان".

الإمام ابن جرير الطبري
شيط المفسرين .. والمجتهد المطلق

نسبه ومولده:

هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري.

و(أبو جعفر) كنيته، كُنّي بها تشريفاً له، على عادة العرب، ولم يكن لديه ولد يُكنى به، إذ لم يتزوج .

ولد رحمه الله في أواخر العام الرابع والعشرين بعد المائتين من الهجرة، أو أوائل العام الخامس والعشرين.

ولد بآمل عاصمة إقليم طبرستان، وهي أكبر مدينة في سهل الإقليم، وإليه نُسب، فلُقّب بـ(الطبري)، واختلف المؤرخون: هل هو عربي الأصل ولد في بلاد العجم، أم أنه أعجمي ؟؟

وأغلب الظن أنه عربي الأصل ـ كما رجّح الدكتور محمد بكر إسماعيل ـ في كتابه) ابن جرير الطبري / ومنهجه في التفسير)، إذ إن أسماء آبائه وأجداده عربية، وليس فيها اسم أعجمي، كما أنه أجاد اللغة العربية إجادة تامة، وكانت له خبرة واسعة بأعراف العرب في الاستعمال اللغوي، ومعرفة دقيقة بلهجاتهم. فالراجح أنه عربي الأصل نسب إلى مسقط رأسه، فظن بعض الباحثين أنه أعجمي.

أخلاقه وعلمه

برزت في الإمام الطبري أخلاق رفيعة مميزة، وهذا غير غريب عمن سُمي بشيخ المفسرين، فقد اشتهر رحمه الله بالزهد، والورع، والصدق، وعزة النفس، وكان شديد الحياء، لا يحب الظهور ولا التعالي، ويكره الجدل العقيم، وهنا قصة لطيفة تدل على زهده وورعه، جاء في (طبقات الشافعية) أنه احتاج يوماً إلى النفقة، ففتق كمّي قميصه وباعهما في السوق، وأبت عليه نفسه أن يسأل أحداً من شيوخه وأقرانه.

ذكر عنه ياقوت الحموي في (معجم الأدباء) أنه حفظ القرآن في السابعة، وصلى في الناس في الثامنة، وكتب الحديث في التاسعة.

لم يقتصر علمه على جانب واحد، بل أتقن فنوناً كثيرة، وغاص في بحر العلوم على اختلافها، فكان مفسراً، نحوياً، محدثاً، فقيهاً، مؤرخاً، عالماً بأيام العرب، قال في معجم البلدان: ".. وكان كالقارئ الذي لا يعرف إلا القرآن، وكالمحدث الذي لا يعرف إلا الحديث، وكالفقيه الذي لا يعرف إلا الفقه، وكالنحوي الذي لا يعرف إلا النحو، وكالحاسب الذي لا يعرف إلا الحساب."

كان مجتهداً مطلقاً لم يقلد أحداً، كما قال عنه ابن خلكان، وله مذهب معروف، وأصحاب ينتحلون مذهبه يقال لهم: ((الجريرية))، وكان الإمام الطبري على المذهب الشافعي قبل أن ينفرد بمذهب مستقل.

برز بين أقرانه، وذاع صيته في مشارق الأرض ومغاربها، ورحل في طلب العلم ونشره، فذهب إلى الشام، وإلى مصر، وبغداد، وتلقى العلم من أفواه العلماء.

شيوخه:

أخذ الحديث عن علماء كثر، منهم (أبو كريب)، وأخذ فقه الشافعي ببغداد عن الحسن بن محمد الصبح الزعفراني، وعن أبي سعيد الاصطخري. وتلقاه في مصر عن الربيع بن سليمان المرادي، وإسماعيل المزني، ومحمد بن عبد الله بن الحكم، وغيرهم.

وتلقى فقه المالكية عن تلاميذ ابن وهب بمصر، ودرس القراءات على أحمد بن يوسف الثعلبي، والعباس بن الوليد البيروتي المقرئ، ويونس بن عبد الأعلى الصدفي.

ودرس النحو والأدب واللغة على أحمد بن يحيى بن ثعلب إمام نحاة الكوفة.

مؤلفاته:

تعددت مؤلفاته بتعدد مواهبه وعلومه، فله :

اختلاف الفقهاء.

تاريخ الأمم والملوك، أو تاريخ الطبري.

تهذيب الآثار.

كتاب القراءات. ومن أشهر وأوفى ما صنفه الإمام الطبري تفسير (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، ظهرت فيه علومه المتعددة، ومعارفه المتنوعة، وبرع فيه إلى أن أصبح قبلة للمفسرين والعلماء بعده إلى يومنا هذا .

وهذا التفسير هو ما سأتناوله بمشاركة أخرى لبيان منهج الإمام الطبري فيه.

أقوال العلماء فيه وفي تفسيره:

قال أبو حامد الإسفراييني: "لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل تفسير محمد ابن جرير لم يكن كثيراً."

ونقل ابن العماد عن ابن خزيمة: "ما أعلم على الأرض أعلم من محمد بن جرير."

قال النووي: "أجمعت الأمة على أنه لم يُصنَّف مثل تفسير الطبري."

قال السيوطي: "وكتابه ـ يعني تفسير محمد بن جرير ـ أجلّ التفاسير وأعظمها، فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، والإعراب، والاستنباط، فهو يفوق بذلك على تفاسير الأقدمين."

وفاته:

توفي رحمه الله في العراق في سنة عشر وثلاثمائة من الهجرة.

أهمية تفسير الطبري

من أهم مراجع التفسير المأثور والمعقول لما فيه من استنباط وتوجيه وترجيح.

أصل لكل التفاسير التي جاءت بعده نقلية وعقلية.

لا غنى عنه لطالب التفسير شهد له جميع العلماء بالتفوق وسمو المكانة وغزارة ما يحتويه من فنون وعلوم

قال عنه السيوطي : وكتابه أجل التفاسير وأعظمها فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض والإعراب والاستنباط فهو يفوق بذلك على تفاسير الأقدمين

وقال النووي : أجمعت الأمة على أنه لم يصنف مثل تفسير الطبري.

وقال أبو حامد السفرايني : لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل على تفسير ابن محمد بن جرير الطبري لم يكن ذلك كثيرا.

وقال ابن خزيمة : قد نظرت فيه من أوله إلى آخره وما أعلم على أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير

الإيلخانيون

(653ـ756هـ/ 1256ـ 1355م)

الإيلخانيون ILKHANS سلالة مغولية حكمت إيران والعراق والقفقاس وأجزاء من آسيا الصغرى التي كانت تحت حكم السلاجقة، إثر موجة الاكتساح المغولي الثالثة بقيادة هولاكو[ر] ابن تولوي بن جنكيز خان[ر]. وكان عبور الجيوش المغولية لنهر جيحون في ذي الحجة 653هـ شباط 1256م إيذاناً بميلاد دولة الإيلخانات. ولما أتمّ هولاكو الاستيلاء على حصون الإسماعيلية في إيران واحتلّ بغداد، وقضى على الخلافة العباسية فيها (656هـ/ 1258م) أتته الأخبار بوفاة أخيه مونكو MONGKE في الصين سنة 657هـ/ 1259م فعاد إلى أذربيجان، وتابع جيشه تقدمه في بلاد الشام. ولكن الجيش المملوكي بقيادة السلطان قطز (657- 658هـ/ 1259- 1260م) انتصر على المغول في معركة عين جالوت الحاسمة سنة 658هـ/ 1260م، فأوقف تقدمهم، وقد برهن الأمير بيبرس البندقداري الذي تولى السلطنة بعد قطز مباشرة على أنه نِدٌّ للمغول.

اتخذ هولاكو مدينة «مَراغَة» (شرق بحيرة أورمية) عاصمة له، وحكم الدولة بعده أبناؤه وأحفاده، وحمل أكثرهم لقب «إيل خان» وهو تعبير تركي يتألف من كلمتي «إيل» بمعنى تابع و«خان» بمعنى ملك، للدلالة على أن دولة الإيلخانات كانت في الأصل جزءاً من امبراطورية المغول في الصين والتي يحكمها «الخاقان» أي الخان الأعظم، إلا أن هذه التبعية ظلّت تبعية اسمية.

نشوء الدولة الإيلخانية وسقوطها

مَرَّت الدولة الإيلخانية بالعهود الأربعة التالية:

عهد الإيلخانيين غير المسلمين (653- 680هـ/ 1256- 1282م): ويستغرق حكم هولاكو وحكم ابنه أباقا ABAKA الذي تذكره المصادر العربية باسم أبغا والذي نقل العاصمة إلى تبريز، وجاءَت أبرز مشكلات هذا العهد من كون حكام الدولة يدينون بديانات تختلف عن الإسلام دين معظم رعاياهم.

في عهد أباقا ازدادت العلاقات مع الغرب المسيحي التي كانت قد بدأت قبل عهد هولاكو، فوثق أباقا صلاته مع البابوية ولويس التاسع ملك فرنسة وما تبقى من الإمارات الصليبية لكونها على عداء مع المماليك.

عهد الصراع بين الإسلام والعقائد الأخرى (681- 695هـ/ 1282- 1295م): ويضم أربعة إيلخانات هم: تاكو دار بن هولاكو، (680- 683هـ/ 1282- 1284م) الذي اعتنق الإسلام وسمى نفسه أحمد، لذلك أرسل يهادن سلاطين المماليك. ثم أرغون بن أباقا (683- 690هـ/ 1284- 1291م) ARGHUN الذي ثار على تاكودار أحمد وقتله لاعتناقه الإسلام. ونقل أرغون العاصمة من تبريز لأن معظم سكانها من المسلمين، وشرع في بناء مدينة بالقرب من تبريز دعاها الأرغونية ولكنه توفي قبل اكتمال بنائها.

وخلف أرغون شقيقه كِيخَاتو (690- 694هـ/ 1291- 1295م) GAYKHATU الذي أعاد الإدارة إلى أبناء البلاد. واقتبس نظام التعامل بالنقد الورقي، ولكنها لم تلق قبولاً من الناس فزادت المشكلة الاقتصادية سوءاً، واضطربت الحياة العامة في تبريز وبغداد وغيرهما، مما أجبر الدولة على التراجع عن هذه الخطوة بعد شهور قليلة، وأثارت طبيعة كيخاتو الأمراء الإيلخانيين عليه، فاستدعوا إلى العرش الأمير بايدو (694- 695هـ/ 1295م) BAYDU ابن طوغاي بن هولاكو، وساعدوه على إطاحة كيخاتو وقتله، كان الإيلخان الجديد قليل الخبرة ضعيف الشخصية، ولم يمض بايدو في السلطة سوى تسعة أشهر حتى قامت عليه بعدها ثورة الأمير غازان بن أرغون GHAZAN.

عهد الإيلخانيين المسلمين (695- 736هـ/ 1295- 1335م): ويضم حكم الثلاثة الأخيرين من الإيلخانات الأقوياء، غازان (694- 703هـ) وأخوه أوليجايتو (703- 717هـ) OLDJEYTÜ الذي دُعي أيضاً «خُدابندة» أي عبد الله (خربندا في المصادر العربية) ثم أبي سعيد بن أوليجايتو (716- 736هـ)، ويمثل هذا العصر الحقبة الذهبية للدولة للإصلاحات التي تمت في مجالات الإدارة والمال والاقتصاد والعمران، ويعود الفضل الأكبر فيها إلى غازان ووزيره رشيد الدين

فضل الله وعلي شاه، واعتنق غازان الإسلام على المذهب السني وجعله دين الدولة الرسمي واتخذ موقفاً ودياً من الشيعة.

عهد انحلال الدولة وسقوطها (736-756هـ/ 1335-1355م): وفيه وصل ثمانية من الحكام الضعفاء إلى العرش، فكثرت دسائس الأمراء المغول الطامعين بالسلطة. ويمكن القول إن الجلائريين والمظفريين والسربداريين وغيرهم تركوا إيران في فوضى عارمة وُفِّق تيمورلنك فيما بعد بالقضاء عليها.

مسرد أسماء حكام الأسرة الإيلخانية

العصر الإيلخاني الأول (الإيلخانيون غير المسلمين)	1 ـ هولاكو	:653-663هـ/ 1255-1265م
	2 ـ أباقا	:663-680هـ/ 1265-1282م
العصر الإيلخاني الثاني (عصر الصراع بين الإسلام	3 ـ تاكودار أحمد	:681-683هـ/ 1282-1284م
والعقائد الأخرى)	4 ـ آرغون	:683-690هـ/ 1284-1291م
	5 ـ كيخاتو	:690-694هـ/ 1291-1295م
	6 ـ بايدو	:694-694هـ/ 1295-1295م
العصر الإيلخاني الثالث (عصر الإيلخانيين المسلمين	7 ـ غازان	:694-703هـ/ 1295-1303م
الأقوياء)	8 ـ أوليجايتو	:703-716هـ/ 1303-1316م
	9 ـ أبو سعيد	:716-736هـ/ 1316-1335م

العصر الإيلخاني الرابع	10 ـ أرباخان	:736-736هـ/ 1335-1336م
(عصر الإيلخانيين الضعفاء)	11 ـ موسى خان	:736-736هـ/ 1336-1337م
الخانات المتنافسون	12 ـ محمد خان	:736-738هـ/ 1337-1337م
	13 ـ طوغاي تيمور	:739-752هـ/ 1337-1353م
	14 ـ شاه جيهان	:739-741هـ/ 1338-1338م
	15 ـ ساتي بيك	:739-740هـ/ 1338-1340م
	16 ـ سليمان خان	:741-744هـ/ 1340-1343م
	17 ـ أنوشروان العادل	:744-756هـ/ 1343-1355م

العلاقات الخارجية

دارت بعض الحروب بين الإيلخانيين وأبناء عمومتهم حكام دولة القبجاق (شمال بحري قزوين والأسود)، ثم بينهم وبين دولة مغول بلاد جغتاي، وكان سلطانها يمتد من أواسط آسيا (حوض نهر إيلي) إلى ما وراء النهر، ولكن أهم حروب الإيلخانيين كانت مع دولة المماليك في مصر والشام، واقتصرت آمالهم بعد هزيمتهم في عين جالوت (فلسطين 658هـ/ 1260م) أمام المماليك على محاولة انتزاع بلاد الشام من المماليك. كما طمحوا، بعد اعتناقهم الإسلام إلى مد نفوذهم إلى الأماكن المقدسة الإسلامية في الحجاز وكانت مشمولة بحماية سلاطين المماليك، وفي المقابل رأى المماليك أن من أول واجباتهم السعي لتحرير العراق من الحكم الإيلخاني وإعادة الخلافة العبَّاسية إلى بغداد. وكان من نتائج ذلك أن جرت بين الطرفين غارات كثيرة وحملات اجتياح واسعة، ووصلت جيوش الإيلخانيين مع حلفائهم من الكرج والأرمن تخوم دمشق أكثر من مرة، ونجح المماليك في ردهم على أعقابهم في كل مرة. وجنحت العلاقات بين دولتي الإيلخانيين والمماليك نحو السلم في عهد أبي سعيد، وتم عقد معاهدة للصلح بينهما (723هـ/ 1323م).

ومع أن الغزو المغولي كان أعظم كارثة حلَّت بالعالم العربي الإسلامي فإن أحفادهم الإيلخانيين، بدلوا مواقفهم من الحضارة العربية الإسلامية بعد أن استقرت أمورهم وأقاموا صلات وثيقة مع المسلمين، فعملوا على إعادة بناء المدن المخربة وإقامة منشآت جديدة، وتشجيع الفنون والعلوم، وبناء المدارس وتنشيط التجارة. وكان للإيلخانيين أثر واضح في مزج حضارة شرق آسيا (الصين) بالحضارة العربية الإسلامية.

وكان الغزو المغولي وما رافقه من أحداث حافزاً على ظهور الكثير من المؤلفات التاريخية التي يتحدث بعضها عن تاريخ المغول أنفسهم، وعن الدول والشعوب التي تأثرت بأعمالهم، كما فعل «عطا ملك الجويني» (ت 681هـ/ 1282م) أحد رجال الإدارة عند الإيلخانيين، في كتابه «تاريخ جهانكشاي» (تاريخ فاتح العالم)، وكما فعل رشيد الدين الهمذاني الطبيب (ت 718هـ/ 1373م) وزير الإيلخانيين في كتابه «جامع التواريخ».

شجع الإيلخانيون العلوم ذات المنفعة العملية كالطب للتداوي، والكيمياء لمعرفة خصائص المعادن، والفلك والتنجيم. ومن أشهر علماء العصر الإيلخاني الأول عالم الفلك نصير الدين الطوسي[ر] (ت 672هـ/ 1273م). وأسس الوزير رشيد الدين ضاحية «الربع الرشيدي» قرب تبريز (700هـ/ 1300م). وهي مؤسسة ثقافية متكاملة تضم معاهد للتدريس ومكتبات ومساكن للمدرسين والطلاب وما يُحتاج إليه من مرافق عامة من مصانع للورق والتجليد وطواحين وحمامات وأسواق وحدائق ومساجد.

وقد اندثر أغلب المباني التي شيدت في العصر الإيلخاني. وكان للإيلخانات اهتمام خاص ببناء أضرحة لهم، تتخذ شكل أبراج ضخمة، ذات سقوف مقببة أو هرمية مزخرفة ومغطاة بالقاشاني والفسيفساء والجص، ومن أهم ما تركه هؤلاء المدرسة الإمامية (755هـ) والمسجد الجامع (768-778) في أصفهان، وزوايا كثيرة أنشئت في ذلك العصر.

الحسن بن سهل

(166ـ236هـ/782ـ851م)

أبو محمد الحسن بن سهل السرخسي، فارسي المولد من وزراء الخليفة المأمون وولاته وقواده، وأخو الفضل بن سهل ذي الرياستين، وكان الحسن من الفصحاء المعدودين واشتهر بتوقيعاته وعرف بالجود حتى حين افتقر.

كان الحسن بن سهل وأخوه الفضل من أهل بيت الرياسة في المجوس، وأسلما هما وأبوهما سهل أيام الخليفة هارون الرشيد (170-193هـ/ 786-808م) وقيل في خلافة المهدي (158-169هـ/ 775-785م)، ودخل كل من الحسن والفضل في خدمة المأمون وهو ولي عهد، وكانا معه في أثناء إمارته على خراسان وبعد وفاة الخليفة هارون الرشيد سنة193هـ وخلافة أخيه الأمين.

علي بن جبلة

160ـ 213هـ/ 776ـ 828م

علي بن جَبلة بن مسلم بن عبد الرحمن الأبناوي.

شاعر عراقي مجيد، أعمى، أسود، أبرص، من أبناء الشيعة الخراسانية، ولد بحيّ الحربية في الجانب الغربي من بغداد ويلقب بالعَكَوَّك وبه اشتهر ومعناه القصير السمين.

فقده لبصره، فمنهم من قال أنه ولد مكفوفاً ومنهم من قال أنه كف بصره وهو صبي. ويختلف الرواة في ذلك.

امتدح الخلفاء ومنهم الرشيد الذي أجزل له العطاء وفي عهد المأمون كتب قصيدة في مدحه وتدور مواضيع شعره حول المديح والرثاء كما يراوح في بعضه بين السخرية والتهكم والفحش وهتك الأعراض

وورد في "الأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني: هو علي بن جبلة بن عبد الله الأبناوي ، ويكنى أبا الحسن، ويلقب بالعكوك، من أبناء الشيعة الخراسانية من أهل

بغداد، وبها نشأ، وولد بالحربية من الجانب الغربي، وكان ضريرا، فذكر عطاء الملط أنه كان أكمه، وهو الذي يولد ضريرا، وزعم أنه عمي بعد أن نشأ.

استنفذ شعره في مدح أبي دلف وحميد

وهو شاعر مطبوع، عذب اللفظ جزله، لطيف المعاني، مداح حسن التصرف. واستنفذ شعره في مدح أبي دلف القاسم بن عيسى العجلي، وأبي غانم حميد بن عبد الحميد الطوسي، وزاد في تفضيلهما وتفضيل أبي دلف خاصة حتى فضل من أجله ربيعة على مضر، وجاوز الحد في ذلك. فيقال: إن المأمون طلبه حتى ظفر به، فسل لسانه من قفاه، ويقال: بل هرب، ولم يزل متواريا منه حتى مات ولم يقدر عليه؛ وهذا هو الصحيح من القولين، والآخر شاذ.

نشأته وتربيته

أخبرني أحمد بن عبيد الله بن عمار الثقفي قال: حدثني الحسين بن عبد الله بن جبلة بن علي بن جبلة قال: كان لجدي أولاد، وكان علي أصغرهم، وكان الشيخ يرق عليه، فجدر، فذهبت إحدى عينه في الجدري، ثم نشأ فأسلم في الكتاب، فحذق بعض ما يحذقه الصبيان، فحمل على دابة ونثر عليه اللوز، فوقعت على عينيه الصحيحة لوزة فذهبت، فقال الشيخ لولده: أنتم لكم أرزاق من السلطان، فإن أعنتموني على هذا الصبي، وإلا صرفت بعض أرزاقكم إليه. فقلنا: وما تريد؟ قال: تختلفون به إلى مجالس الأدب.

يقصد أبا دلف فيتهم بانتحال القصيدة فيطلب أن يمتحن:

قال: فكنا نأتي به مجالس العلم ونتشاغل نحن بما يلعب به الصبيان، فما أتى عليه الحول حتى برع، وحتى كان العالم إذا رآه قال لمن حوله: أوسعوا للبغوي وكان ذكيا مطبوعا، فقال الشعر، وبلغه أن الناس يقصدون أبا دلف لجوده وما كان يعطي الشعراء، فقصده -وكان يسمى العكوك- فامتدحه بقصيدته التي أولها:

ذاد ورد الغي عن صدره   وارعوى واللهو من وطره

يقول فيه في مدحه:

يـا دواء الأرض أن فسـدت ومـديل اليسـر مـن عسـره

كل مـن في الأرض مـن عـرب بـين بـاديه إلـى حضـره

مستعـير منـك مكـرمة يكتسبهـا يـوم مفـتخـره

إنمـا الـدنـيا أبـو دلـف بـين مبـداه ومحتضـره

فـإذا ولـى أبـو دلـف ولـت الدنـيا علـى أثـره

فلما وصل إلى أبي دلف -وعنده من الشعراء وهم لا يعرفونه- استرابوه بها، فقال له قائده: إنهم قد اتهموك وظنوا أن الشعر لغيرك، فقال: أيها الأمير، إن المحنة تزيل هذا، قال: صدقت فامتحنوه.

شهادة الشعراء بأنه صاحب مدح أبي دلف

قال: فلما غدا عليه بالقصيدة وأنشده إياها استحسنها من حضر، وقالوا: نشهد أن قائل هذه قائل تلك، فأعطاه ثلاثين ألف درهم. وقد قيل: إن أبا دلف أعطاه مائة ألف درهم، ولكن أراها في دفعات؛ لأنه قصده مراراً كثيرة، ومدحه بعدة قصائد.

المأمون يستنشد بعض جلسائه قصيدته في أبي دلف

أخبرني الحسن بن علي الخفاف قال: حدثني محمد بن موسى بن حماد قال: حدثني أحمد بن أبي فنن قال: قال عبد الله بن مالك: قال المأمون يوماً لبعض جلسائه: أقسم على منضر حضر ممن يحفظ قصيدة علي بن جبلة الأعمى في القاسم بن عيسى إلا أنشدنيها، فقال له بعض جلسائه: قد أقسم أمير المؤمنين، ولا بد من إبرار قسمه، وما أحفظها، ولكنها مكتوبة عندي.

قال: فغضب المأمون واغتاظ، وقال: لست لأبي إن لم أقطع لسانه أو أسفك دمه.

أنشد أبا دلف مدحته بعد أن قتل قرقوراً

قال ابن أبي فنن: وهذه القصيدة قالها علي بن جبلة وقصد بها أبا دلف بعد قتله الصعلوك المعروف بقرقور، وكان من أشد الناس بأساً وأعظمهم. فكان يقطع هو وغلمانه على القوافل وعلى القرى، وأبو دلف يجتهد في أمره فلا يقدر عليه. فبينا أبو دلف خرج ذات يوم يتصيد وقد أمعن في طلب الصيد وحده إذا بقرقور قد طلع عليه وهو راكب فرساً يشق الأرض بجريه، فأيقن أبو دلف بالهلاك، وخاف أن يولي عنه فيهلك، فحمل عليه وصاح: يا فتيان! يمنة يمنة -يوهمه أن معه خيلاً قد كمنها له- فخافه قرقور وعطف على يساره هارباً، ولحقه أبو دلف فوضع رمحه بين كتفيه فأخرجه من صدره، ونزل فاحتز رأسه، وحمله على رمحه حتى أدخله الكرج.

قال: فحدثني من رأى رمح قرقور وقد أدخل بين يديه يحمله أربعة نفر. فلما أنشده علي بن جبلة هذه القصيدة استحسنها وسر بها وأمر له بمائة ألف درهم.

اتساع شهرة قصيدته فيه

أخبرني علي بن سليمان الأخفش قال: حدثنا محمد بن يزيد الأزدي قال: أخبرني إبراهيم بن خلف قال: بينا أبو دلف يسير مع أخيه معقل -وهما إذ ذاك بالعراق- إذ مر بامرأتين تتماشيان، فقالت إحداهما لصاحبتها: هذا أبو دلف، قالت: ومن أبو دلف؟ قالت: الذي يقول فيه الشاعر:

إنما الدنيا أبو دلف ... بين باديه ومحتضره

فإذا ولى أبو دلف ... ولت الدنيا على أثره

قال: فاستعبر أبو دلف حتى جرى دمعه. قال له مقعل: مالك يا أخي تبكي؟ قال: لأني لم أقض حق علي بن جبلة.

قال: أو لم تعطه مائة ألف درهم لهذه القصيدة؟ قال: والله يا أخي ما في قلبي حسرة تقارب حسرتي على اني أكن أعطيته مائة ألف دينار. والله لو فعلت لما كنت قاضياً حقه.

أحب جارية وأحبته على قبح وجهه

أخبرني عمي قال: حدثنا أحمد بن الطيب السرخسي قال: حدثنا ابن أخي علي بن جبلة العكوك -قال أحمد: وكان علي جارنا بالربض هو وأهله، وكان أعمى وبه وضح. وكان يهوى جارية أديبة ظريفة شاعرة وكانت تحبه هي أيضاً على قبح وجهه وما به من الوضح، حدثني بذلك عمرو بن بحر الجاحظ.

قال عمرو: وحدثني العكوك أن هذه الجارية زارته يوماً وأمكنته من نفسها حتى افتضها. قال، وذلك عنيت في قولي:

ودم أهـــدرت مـــن رشـــا لم يـــرد عقـــلا علـــى هـــدره

وهي القصيدة التي مدح بها أبا دلف، يعني بالدم: دم البضع .

يستأذن على حميد الطوسي فيمتنع، ثم يأذن له فيمدحه: قال: ثم قصدت حميداً بقصيدتي التي مدحته بها، فلما استؤذن لي عليه أبى أن يأذن لي، وقال: قولوا له: أي شيء أبقيت لي بعد قولك في أبي دلف:

إنمـــا الـــدنيا أبـــو دلـــف بـــين مبـــداه ومحتضـــره

فـــإذا ولى أبـــو دلـــف ولـــت الـــدنيا علـــى أثـــره

فقلت للحاجب: قل لله: الذي قلت فيك أحسن من هذا، فإن وصلتني سمعته، فأمر بإيصالي، فأنشدت قولي فيه:

إنمـــا الـــدنيا حمـــيد وأياديـــــه الجســـام

فـــــإذا ولى حـمـــــيد فعلـــى الـــدنيا السـلام

فأمر بمائتي دينار، فنثرتها في حجر عشيقتي، ثم جئته بقصيدتي التي أقول فيها:

دجلـة تسـقي وأبـو غـانـم يطعم مـن تسـقي مـن النـاس

فأمر لي بمائتي دينار.

شعره حين غضبت عليه التي أحبها

حدثني عمي قال: حدثني أحمد بن الطيب قال: حدثني ابن أخي علي بن جبلة أيضاً: أن عمه عليا كان يهوى جارية، وهي هذه القينة، وكانت له مساعدة، ثم غضبت عليه، وأعرضت عنه، فقال فيها:

تسيء ولا تستنكر السوء إنـهـا تدل بما تتلوه عنـدي وتـعـرف

فمن أين ما استعطفتها لم ترق لـي ومن أين ما جربت صبري يضعف

ينشد لنفسه أقبح ما قيل في ترك الضيافة

أخبرني حبيب بن نصر قال: حدثنا عمر بن شبة قال: تذاكرنا يوماً أقبح ما هجي به الناس في ترك الضيافة وإضاعة الضيف، فأنشدنا علي بن جبلة لنفسه:

أقـاموا الديـدبان علـى يفـاع وقـالوا لا تنـم لـلـديدبـان

فإن آنست شخصـاً مـن بعـيد فصـفق بالبنـان علـى البنـان

تراهم خشية الأضياف خرسـاً ويـأتون الصـلاة بـلا أذان

يمدح حميداً الطوسي فيعطيه ألف دينار كان أمر بالتصدق بها: أخبرني الحسن بن علي قال: حدثني محمد بن القاسم بن مهرويه قال: حدثني أبي قال: حدثني وهب بن سعيد المروزي، كاتب حميد الطوسي، قال: جئت حميداً في أول يوم من شهر رمضان، فدفع إلي كيساً فيه ألف دينار، وقال: تصدقوا بهذه. وجاءه ابنه أصرم فسلم عليه ودعا له، ثم قال له: خادمك علي بن جبلة بالباب، فقال: وما أصنع به؟ جئتني به يا بني تقابلني بوجهه في أول يوم من هذا الشهر. فقال: إنه يجيد فيك القول. قال: فأنشدني بيتاً مما تستجيد له: فأنشده قوله:

حيدي حياد فإن غزوة جيشه ضمنت لجائلة السباع عيالها

فقال: أحسن. ائذنوا له، فدخل فسلم، ثم أنشد قوله:

إن أبا غانم حميدا غيث على المعتفين هامي

صوره الله سيف حتف وباب رزق على الأنام

يا مانع الأرض بالعوالي والنعم الجمة العظام

ليس من السوء في معاذ من لم يكن منك في ذمام

وما تعمدت فيك وصفاً إلا تقدمته أمامي

فقد تناهت بك المعالي وانقطعت مدة الكلام

أجد شهراً وأبل شهراً واسلم على الدهر ألف عام

قال: فالتفت إلي حميد، وقال: أعطه ذلك الألف الدينار حتى يخرج للصدقة غيره.

يستشفع بحميد الطوسي إلى أبي دلف وكان غضب عليه: حدثني عمي قال: حدثني يعقوب بن إسرائيل قال: حدثني أبو سهيل عن سالم مولى حميد الطوسي قال: جاء علي بن جبلة إلى حميد الطوسي مستشفعاً به إلى أبي دلف -وقد كان غضب عليه وجفاه- فكرب معه إلى أبي دلف شافعاً، وسأله في أمره، فأجابه واتصل الحديث بينهما وعلي بن جبلة محجوب، فأقبل على رجل إلى جانبه وقال: اكتب ما أقول لك، فكتب:

لا تتركي بباب الدار مطرحا   فالحر ليس عن الأحرار يحتجب

هبنا بلا شافع جئنا ولا سبب   ألست أنت إلى معروفك السبب؟

قال: فأمر بإيصاله إليه، ورضي عنه ووصله.

يخشاه المخزومي أن ينشد شعراً في حضرته:

أخبرني الحسن بن علي قال: حدثنا ابن مهرويه قال: حدثني أحمد بن مروان قال: حدثني أبو سعيد المخزومي قال: دخلت على حميد الطوسي، فأنشدته قصيدة مدحته بها وبين يديه رجل ضرير، فجعل لا يمر ببيت إلا قال: أحسن قاتله الله! أحسن ويحه! أحسن لله أبوه! أحسن أيها الأمير. فأمر لي حميد ببدرة، فلما خرجت قام غلي البوابون، فقلت: كم أنتم؟ عرفوني أولاً من هذا المكفوف الذي رأيته بين يدي الأمير؟ فقالوا: علي بن جبلة العكوك فارفضضت عرقاً. ولو علمت أنه علي بن جبلة لما جسرت على الإنشاد بين يديه.

لا يأذن له المأمون في مدحه إلا بشرط، فيختار الإقالة: أخبرني الحسن بن علي قال: حدثنا محمد بن القاسم بن مهرويه قال: حدثنا أحمد بن عبيد بن ناصح قال: كلم حميد الطوسي المأمون في أن يدخل عليه علي بن جبلة، فيسمع منه مديحاً مدحه به، فقال: وأي شيء يقوله في بعد قوله في أبي دلف:

إنما الدنيا أبو دلف   بين مغزاه ومحتضره

فـــإذا ولى أبـــو دلـــف ولـــت الـــدنيا علـــى أثـــره

وبعد قوله فيك:

يـــا واحـــد العـــرب الـــذي عـــزت بعزتـــه العـــرب

أحسن أحواله أن يقول في مثل ما قاله في أبي دلف، فيجعلني نظيراً له. هذا إن قدر على ذلك ولم يقصر عنه، فخيروه بين أن أسمع منه، فإن كان مدحه إياي أفضل من مدحه أبا دلف وصلته، وإلا ضربت عنقه أو قطعت لسانه، وبين أن أقيله وأعفيه من هذا وذا. فخيروه بذلك، فاختار الإقالة.

يمدح حميد الطوسي بخير من مدحه أبا دلف: ثم مدح حميداً الطوسي، فقال له: وما عساك أن تقول في بعد ما قلته في أبي دلف، فقال: قد قلت فيك خيراً من ذلك. قال: هات، فأنشده:

دجلـة تسقـي وأبـو غـانـم يطعم مـن تسقي مـن النـاس

الناس جسم وإمـام الـهـدى رأس وأنـت العـين في الـراس

فقال له حميد: قد أجدت، ولكن ليس هذا مثل ذلك، ووصله.

يرثي حميداً الطوسي: قال أحمد بن عبيد، ثم مات حميد الطوسي، فرثاه علي بن جبلة، فلقيته، فقلت له: أنشدني مرثيتك حميداً، فأنشدني:

نعاء حميداً للسـرايا إذا غـدت تذاد بـأطراف الرمـاح وتـوزع

حتى أتى على آخرها.

لا يبلغ شأو الخزيمي في رثاه أبي الهيذام: فقلت له: ما ذهب على النحو الذي نحوته يا أبا الحسن، وقد قاربته وما بلغته. فقال: وما هو؟ فقلت: أردت قول الخزيمي في مرثيته أبا الهيذام:

وأعددته ذخراً لكل ملمة   وسهم المنايا بالذخائر مولع

فقال: صدقت والله، أما والله لقد نحوته وأنا لا أطمع في اللحاق به، لا والله ولا امرؤ القيس لو طلبه وأراده ما كان يطمع أن يقاربه في هذه القصيدة.

هربه من المأمون وقد طلبه لتفضيله أبا دلف عليه وعلى آله:

أخبرني عمي، قال: حدثنا أحمد بن أبي طاهر، قال: حدثني ابن أبي حرب الزعفراني، قال: لما بلغ المأمون قول علي بن جبلة لأبي دلف:

كل من في الأرض من عرب   بين باديه إلى حضره

مستعير منك مكرمة   يكتسيها يوم مفتخره

غضب من ذلك، وقال: اطلبوه حيث كان، فطلب فلم يقدر عليه، وذلك أنه كان بالجبل، فلما اتصل به الخبر هرب إلى الجزيرة، وقد كانوا كتبوا إلى الآفاق في طلبه، فهرب من الجزيرة أيضاً، وتوسط الشام فظفروا به، فأخذوه، وحملوه إلى المأمون، فلما صار إليه قال له: يا بن اللخناء ، أنت القائل للقاسم بن عيسى:

كل من في الأرض من عرب   بين باديه إلى حضره

مستعير منك مكرمة   يكتسيها يوم مفتخره

جعلتنا ممن يستعير المكارم منه! فقال له: يا أمير المؤمنين، أنتم أهل بيت لا يقاس بكم أحد، لأن الله جل وعز فضلكم على خلقه، واختاركم لنفسه. وإنما

عنيت بقولي في القاسم أشكال القاسم وأقرانه، فقال: والله ما استثنيت أحداً عن الكل، سلوا لسانه من قفاه.

أمر المأمون أن يسل لسانه لكفره

أخبرني الحسن بن علي قال: حدثنا محمد بن موسى قال: وحدثني أحمد بن أبي فنن: أن المأمون لما أدخل عليه علي بن جبلة قال له: إني لست أستحل دمك لتفضيلك أبا دلف على العرب كلها وإدخالك في ذلك قريشاً- وهم آل رسول الله صلى الله عليه وسلم وعترته- ولكني أستحله بقولك في شعرك وكفرك حيث تقول القول الذي أشركت فيه:

أنت الذي تنزل الأيام منزلها   وتنقل الدهر من حال إلى حال

وما مددت مدى طرف إلى أحد   إلا قضيت بأرزاق وآجال

من قصائده:..

العصر التركي الأول

من خلافة المتوكل سنة 232 إلى تسلط الديلم سنة 334هـ

نريد بهذا العصر المدة التي استبدّ فيها الأتراك بالدولة العباسية وهم الأجناد تمييزاً له عن العصر العباسي الفارسي الذي استبد فيه الفرس وهم الوزراء، ليس بين العصرين حد فاصل ينتهي إليه الواحد ويبتدئ منه الآخر بل هما تعاصرا مدة من الزمن والترك أمة قديمة جداً. ولما ظهر الإسلام وانتشر العرب في أنحاء العالم وطأت حوافر خيولهم بلاد الترك وهم يعبرون عنها بما وراء النهر ففتحوا بخارى وسمرقند وفرغانة واشروسنة وغيرها من تركستان. ولما تولى العباسيون كانت تلك المدن خاضعة للمسلمين يؤدون عنها الجزية والخراج وكانوا يحملون في جملة الجزية أولاداً من أهل بادية تركستان يبيعونهم بيع الرقيق وهم في الغالب من السبي أو الأسرى على جاري العادة في تلك العصور، فضلاً عمن كان يقع منهم في أيدي المسلمين في أثناء الحروب بالأسر أو السبي ويعبرون عنهم بالمماليك ويفرقونهم في بلاط الخلفاء ومنازل الأمراء، فأخذوا يدينون بالإسلام.

المعتصم والأتراك

أول من استخدم الأتراك في الجندية من الخلفاء المنصور العباسي ولكنهم كانوا شرذمة صغيرة لا شأن لها في الدولة وإنما كان الشأن الأكبر يومئذ للخراسانيين (الفرس) والعرب. ولما اشتد التنافس بين العرب والفرس في أيام الرشيد وذهبت سطوة العرب بذهاب دولة الأمين وتسلط الفرس أنصار المأمون وأخواله واستبدوا في الدولة كانت الحضارة قد أضرت بالمسلمين وأذهبت منهم قوة التغلّب والفتح، ففكّر المعتصم أخو المأمون في ذلك قبل أن تفضي الخلافة إليه وكانت أمه تركية وفيه كثير من طبائع الأتراك مع الميل إليهم لأنهم أخواله كما كان يميل المأمون إلى الفرس. وشاهد المعتصم من جرأة الفرس وتطاولهم بعد قتل الأمين حتى أصبح يخافهم على نفسه، ولم يكن له ثقة بالعرب وقد ذهبت عصبيتهم وأخلدوا إلى الحضارة والترف وانكسرت شوكتهم فرأى أن يتقوى بالأتراك وهم لا يزالون إلى ذلك العهد أهل بداوة وبطش مع الجرأة على الحرب والصبر على شظف العيش،

فجعل يتخيّر منهم الأشداء. فلما أفضت الخلافة إليه كان الأتراك عوناً له وتكاثروا حتى ضاقت بغداد بهم وصاروا يؤذون العوام في الأسواق فينال الضعفاء والصبيان من ذلك أذىً كثيراً وربما رأوا الواحد بعد الواحد قتيلاً في قارعة الطريق، فاتفق أن المعتصم خرج بموكبه يوم عيد فقام إليه شيخ فقال له: (يا أبا إسحاق) فأراد الجند ضربه فمنعهم وقال: (يا شيخ ما لك؟) قال: (لا جزاك الله عن الجوار خيراً جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج من غلمانك الأتراك فأسكنتهم بيننا فأيتمت بهم صبياننا وأرملت نساءنا وقتلت رجالنا) والمعتصم يسمع ذلك فدخل منزله ولم يُرَ راكباً إلى مثل ذلك اليوم فخرج فصلّى بالناس العيد ولم يدخل بغداد بل سار يلتمس معسكراً لأجناده حتى أتى سامرّاء فاتخذها معسكراً فأعجبته وسماها (سرَ من رأى) واختط فيها الخطط وأقطع أتراكه القطائع على حسب القبائل ومجاورتهم في بلادهم وأفرد أهل كل صنعة بسوق وكذلك التجار، فبنى الناس وارتفع البنيان وشيدت القصور وكثرت العمارات واستنبطت المياه وتسامع الناس أن دار الملك قد انتقلت إلى هناك فقصدوها وجهّزوا إليها من أنواع الأمتعة وسائر ما ينتفع به الناس فكثر العيش واتسع الرزق. وما زالت سامرّاء قاعدة الدولة العباسية من سنة 221هـ إلى أيام المعتمد فعاد إلى بغداد سنة 279هـ. وهو أول من عاد إليها منذ بنيت سامراء.

الجند التركي ومصالح الدولة

فاشتد ساعد الأتراك بذلك وقويت شوكتهم وغلبوا على أمور الدولة وخصوصاً بعد أن أنقذوا المملكة من بابك الحزمي وفتحوا عمورية ونصروا الإسلام فتحوّل النفوذ إليهم، وبعد أن كانت أمور الدولة في قبضة الوزراء الفرس أصبحت في أيدي القواد الأتراك أو صار النفوذ فوضى بين الوزراء والقوّاد.

أما استبدادهم في بلاط الخلفاء فابتدأ في أيام المتوكل لأنه لما تولى الخلافة سنة 232هـ وكان ما كان من كره الشيعة واستبداده فيهم زاد في تقديم الأتراك ورعايتهم فزاد طمعهم في الدولة، ثم أغراهم ابنه المنتصر (أو هم أغروه) على قتله فقتلوه وكان ذلك أول جرأتهم على الخلفاء، وولوا المنتصر بعده ولم تطل مدة

حكمه أكثر من بضعة أشهر فمات وضميره يوخزه، وتولى بعده المستعين بالله سنة 248هـ. ثم المعتز بالله سنة 251هـ وقد استفحل أمر الأتراك استفحالاً عظيماً، ومما يحكى عن استبدادهم في الخلفاء أنه لما تولى المعتز قعد خواصه وأحضروا المنجّمين وقالوا لهم: (انظروا كم يعيش الخليفة وكم يبقى في الخلافة؟) وكان في المجلس بعض الظرفاء فقال: (أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته) فقالوا له: (فكم تقول إنه يعيش وكم يملك؟) قال: (مهما أراد الأتراك) فلم يبق في المجلس إلا من ضحك.

وقد قتلوا المعتز هذا شر قتلة فإنهم جروه برجله إلى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه وأقاموه في الشمس بالدار فكان يرفع رجلاً ويضع أخرى لشدة الحر وبعضهم يلطمه بيده، والمستكفي سملوا عينيه ثم حبسوه حتى مات في الحبس، وبلغ من فقر القاهر بالله أنهم حبسوه وهو ملتف بجبة قطن وفي رجله قبقاب خشب، فلا غرو إذا أصبح الخلفاء آلة في أيدي الأتراك إذا تنازعوا على السلطة كان الخليفة مع الحزب الغالب، وبعد أن كان القواد يحلفون للخليفة بالطاعة صار الخليفة يحلف لهم فلما تقدم الأتراك في الدولة العباسية وعلم إخوانهم في بلادهم بذلك تقاطروا مئاتٍ وألوفاً يطلبون الارتزاق بالجندية ورغبوا في الإسلام وجعلوا يدخلون فيه بالألوف وعشرات الألوف، فقد أسلم منهم سنة 350هـ 200.000 خركاه دفعة واحدة و(الخركاه) الخيمة، ولا يقل أهل الخيمة الواحدة عن خمسة أنفس فعدد الذين أسلموا في هذه الدفعة نحو مليون نفس، وأسلم سنة 435هـ 10.000 خركاه من أهل بلاساغون وكاشغر دفعة واحدة وضحّوا عشرين ألف رأس غنم. ولما استولى الديلم على بغداد في أيام بني بويه توالت الحروب بين الترك والديلم وغلمان الخلفاء أو الموالي، وما من دولة قامت في ذلك العصر إلا استخدمت الأتراك في جندها سواء كانت شيعية أو سنية. فكانوا يحملون إلى بغداد أو غيرها من المدائن الإسلامية تباعاً وقلما يتوالدون فيها ولذلك كانوا يتفاهمون بالتركية وقد يتعلمون العربية ولا يتكلمونها تكبراً.

الخدم ونفوذهم في الدولة العباسية

أقدم من سمعنا به من الخدم النابغين في الدولة العباسية مسرور خادم الرشيد ولم يكن له شأن كبير، وأول من قرّب الخدم واستكثر منهم الأمين بن الرشيد فلما تولى الخلافة طلب الخصيان وابتاعهم وغالى فيهم فصيّرهم لخلوته ليله ونهاره وقوام طعامه وشرابه وأمره ونهيه وعيّن منهم جماعة سمّاهم الجرادية وجماعة من الحبشان سماهم الغرابية. ولم يقرّب الأمين الخدم لحمايته أو سياسة دولته ولكنه فعل ذلك انهماكاً في الترف والقصف، فازداد الخدم نفوذاً وسطوة حتى أصبح الأتراك يخافونهم وقد ارتقى كثيرون منهم في العصر التركي من الخدمة في المنازل إلى قيادة الجند أو الإمارة على الأقاليم.

ولما تكاثر الخدم في دور الخلفاء جعلوهم طبقات وفرقاً تُعرف بأسماء خاصة وفيهم الرومي والتركي والحبشي والأرمني والسندي والبربري والصقلي في فرق أشبه بفرق الجند ولهم الرواتب والجواري. وربما بلغ عدد الخدم عند بعض الأمراء إلى خمسمائة غلام أو ألف أو أكثر فغلمان بغا الشرابي أحد قواد الأتراك بلغ عددهم 500 وزاد عدد غلمان يعقوب بن كلس وزير الفاطميين بمصر على 4000.

القواد والوزراء من الخدم

وأول من استكثر من الخدم وقرّبهم ورفع منزلتهم المقتدر بالله فقد تولى سنة 295هـ وعنده من الخدم والخصيان 11.000 خادم من الروم والسودان وكثير من المال والجوهر فتمكّن من الحكم 25 سنة ردّ فيها رسوم الخلافة إلى ما كانت عليه، وكان يقدم الخدم ويستعين بهم وقد ولاهم قيادة الجند وغيرها. فالخلفاء إنما لجأوا إلى تحكيم الخدم والخصيان استبقاءً لحياتهم أو إحياءً لنفوذهم ودفع استبداد جند الأتراك، ولم يكن ذلك خاصاً بالدولة العباسية بل شمل معظم الدول الإسلامية المعاصرة.

تأثير النساء في سياسة الدولة

للمرأة تأثير كبير في أعمال الرجل مهما يكن نوعها وفي أي عصر كان وأي أمةٍ كانت وإن اختلف مقدار ذلك التأثير باختلاف عادات الأمم وآدابها. أما الدولة إذا كانت ملكية مطلقة للمرأة شأن كبير في سياستها حتى في الإسلام مع شيوع الطعن في آرائهن وقولهم: (إن مشاورتهن في الأمور مجلبة للعجز ومدعاة إلى الفساد) ويعظم أثره على الخصوص في تأثير أمهات الخلفاء على أولادهن ولاسيما في أواسط الدولة عند احتجاب الخلفاء واستسلامهم إلى الخدم.

على أن العباسيين حتى في صدر الدولة كانوا يصغون إلى النساء فأحرزت المرأة نفوذاً كبيراً وخصوصاً أمهات الخلفاء وأول من استبد منهنّ الخيزران أم الهادي والرشيد وهي قرشية وكانت ذات نفوذ وقوة يخافها أولادها ومن خالفها منهم أو اعترضها قتلته. وكانت في أيام زوجها المهدي صاحبة الأمر والنهي وهو يطاوعها، فلما تولى ابنها الهادي أرادت الاستبداد بالأمور دونه وأن تسلك به مسلك أبيه فلم يمض أربعة أشهر حتى توجه الناس إليها وكانت المراكب تغدو وتروح إلى بابها فساءه ذلك وكلمته يوماً في أمر فلم يجد إلى إجابتها فيه سبيلاً فقالت: (لابد من إجابتي إليه فإني قد ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك) فغضب الهادي وقال: (ويلي على ابن الفاعلة قد علمت أنه صاحبها والله لا أقضيها لك) قالت: (إذاً والله لا أسألك حاجة) قال: (لا أبالي) وقامت مغضبة فصاح بها: (مكانك.. والله أنا نفي من قرابتي من رسول الله لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي أو خاصتي لأضربن عنقه ولأقبضنَّ ماله. ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكّرك أو بيت يصونك؟ إياك وإياك لا تفتحي بابك لمسلم ولا ذمي) فانصرفت وهي لا تعقل ولم تنطق عنده بعدها ثم إنه قال لأصحابه: (أيما خيرٌ أنا أم أنتم وأمي أم أمهاتكم؟) قالوا: (لا بل أنت وأمك خير) قال: (فأيكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه فيقال فعلت أم فلان وصنعت؟) قالوا: (لا نحب ذلك) قال: (فما بالكم تأتون أمي فتتحدثون بحديثها؟) فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها فحقدت عليه حتى إذا علمت

أنه يريد خلع أخيه الرشيد ويأخذ البيعة لابنه جعفر أمرت بعض جواريها بقتله بالسم والجلوس على وجهه فقتلوه.

فلما كانت أيام الرشيد استبدت الخيزران في الأحكام واحتشدت الأموال فبلغت غلتها في العام 160 مليون درهم أي نحو نصف خراج المملكة العباسية في ذلك العهد ولما ماتت توسّع الرشيد بأموالها. وقس على ذلك ثروة سائر أمهات الخلفاء، أما من حيث النفوذ فقد كان للسيدة أم المقتدر وهي تركية سطوة غريبة على رجال الدولة في خلافة ابنها وكانت تتصرف في الأحكام دونه بالاشتراك مع الحجّاب والخدم وكان الوزراء يهابونها ويرتعدون خوفاً من ذكرها، ويقال نحو ذلك في أم المستعين بالله المتوفى سنة 251هـ وكانت صقلبية الأصل فأطلق المستعين يدها في أمور الدولة ويد اثنين من قواد الأتراك اتامش وشاهك الخادم فكانت الأموال التي ترد إلى بيت المال من النواحي يصير معظمها إلى هؤلاء الثلاثة.

فساد الأحكام في الدولة العباسية

التنازع على النفوذ

بلغت الدولة العباسية عصرها الذهبي في أيام خلفائها الأولين وخصوصاً الرشيد والمأمون بتدبير الوزراء الفرس ولاسيما البرامكة، فاتسع سلطانها في أيامهم وامتدت سطوتها على معظم العالم المعمور في ذلك العهد فبلغت الهند شرقاً والبحر الأطلسي غرباً وبلاد سيبيريا وبحر قزوين شمالاً وبحر فارس وبلاد النوبة جنوباً. فلما نكب البرامكة ثم استبد الجند التركي في الحكومة أصبحت الأحكام فوضى وخصوصاً بعد المتوكل لأنهم أقدموا على قتله وكان ذلك فاتحة جرأتهم على الخلفاء بعده من عزل وتولية وقتل وسمل، فعجز الخلفاء عن القيام بشؤون الدولة وهم أصحابها المسؤولون عنها والأحكام تصدر بأسمائهم وإن كانوا مدفوعين إلى إجراءاتهم ببعض أرباب النفوذ في بلاطهم من الوزراء أو القواد أو الخدم أو الموالي أو النساء أو غيرهم، فالوزير الذي يتولى أمور الدولة ولا يدري ما يكون مصيره بعد عام أو عامين من عزل أو قتل أو حبس لا يهمه غير الكسب من أي طريق كان ولا يبالي بما قد يترتب على ذلك فيما بعد عملاً بالقاعدة التي وضعها ابن الفرات

كبير وزراء ذلك العصر وهي قوله: (إن تمشية أمور السلطان على الخطأ خير من وقوفها على الصواب) وانتبه الخلفاء إلى مطامعهم فأصبحوا إذا عزلوا وزيراً صادروه وأخذوا أمواله، فالوزير يتولى الوزارة عاماً أو عامين ثم يعزل أو يستقيل وله عدة ملايين من الدنانير فضلاً عن الضياع والمباني وقد اكتسب هذه الثروة بالرشوة ونحوها من أسباب المظالم. وكان الوزير لا يولي عاملاً على ولاية ما لم يقبض منه مالاً على سبيل الرشوة يسمونه (مرافق الوزراء). ومن أغرب حوادث التولية بالرشوة أن الخاقاني وزير المقتدر بالله ولى في يوم واحد تسعة عشر ناظراً للكوفة وأخذ من كل واحد رشوة، ومن أغرب طرق الاغتصاب أن يغتصب العامل أو الوزير أو غيرهما من رجال الدولة صنيعة لبعض الناس فيأخذها بغير ثمن ويستغلها لنفسه وإذا استحقَّ عليها الخراج أداه صاحبها الأول مخافة أن يثبت الملك لمغتصبها إذ يدوّن خراجها باسمه في الديوان فيبطل حق مالكها في ملكها فيضطر المالك إلى دفع الخراج أعواماً ريثما يتوفق إلى من ينصفه ممن يفضي النفوذ إليهم من أهل العدالة أو يهتدي إلى وساطة أو حيلة. ناهيك عما كانوا يغتصبونه من أموال الرعية باقتضاء خراج الأرض مضاعفاً أو مكرراً.

الجاسوسية.. اللصوصية

ومن وسائل ابتزاز الأموال أن يقسّط الوزير أو من يقوم مقامه على أرباب الدواوين والقضاة أو غيرهم مالاً على وجه القرض على أن يسبب لهم عوضه من أهل النواحي فتقع الخسارة على الرعية، فتضايق أهل الأسواق في المدن والفلاحون في القرى والرساتيق وضاقت أبواب الرزق على الناس وأصبحت الحقوق فوضى ومن وجد حيلة في اختلاس المال سراً أو جهراً استخدمها وكثر العيارون والشطار في المدن وتعدد اللصوص في القرى وفيهم جماعة أصلهم من جنود الدولة طمع الوزراء أو القواد بأرزاقهم فخرجوا يتعرضون للمارة ويسلبونهم أموالهم وأمتعتهم وإذا عوتبوا أو حوكموا احتجوا بذلك. وكان قطاع الطرق يسطون على قوافل التجار ويأخذون أموالها باعتبار أنها حق لهم. وزد على ذلك ما نجم عن فساد الأحكام من الضيق المالي وغلاء الأسعار في المدن وما نشب من الفتن بين الأحزاب

ولاسيما السنة والشيعة وراجت الدسائس وتكاثرت السعايات برجال الدولة وانتشرت الجاسوسية في قصور الخلفاء ودواوين الوزراء والكتّاب. وأصبح لكل منهم جواسيس على الآخرين ينقلون إليه أخبارهم فتسابق أسافل الناس إلى السعاية بأفاضلهم يرفعون إلى الخليفة أو إلى صاحب النفوذ في دولته كتباً يختلقون بها المطاعن على الأبرياء للانتفاع بأذاهم. فلما فسدت الأحكام في دار الخلافة واستبد الوزراء والقوّاد في شؤون الدولة رأى العمال في الولايات أن يجتزئوا من ذلك الاستبداد في ولاياتهم فأخذوا يستقلون فتشعّبت المملكة العباسية إلى ممالك يحكمها الأمراء من الفرس والأتراك والأكراد والعرب وغيرهم.

تشعب المملكة العباسية

وأما استقلال العمال بذهاب هيبة الخلفاء أو اختلال شؤون الدولة فالأسبق إليه الفرس ثم الأتراك فالأكراد مثل تواليهم في التغلب على الخلفاء. وتدرج كل من هذه الأمم من العمالة إلى الإمارة إلى الملك أو السلطنة.

الدول الفارسية في ظل العباسيين

لما أعاد الفرس مقاليد الخلافة إلى المأمون ازدادوا دالة عليه واستخفافاً بالسلطة العباسية ثم استبد الأتراك في الخلفاء بعد المعتصم وغلّوا أيديهم وكسروا شوكتهم فكان للفرس على الإجمال حظ كبير من ذلك، فلما رأوا ذهاب نفوذهم في دار الخلافة استعاضوا عنه بالاستقلال بإماراتهم.

على أن الذين استقلوا من القواد أو الأمراء مازالوا يعترفون للعباسيين بالسلطة الدينية فيطلبون الاستقلال تحت رعايتهم، فتفرّعت المملكة العباسية إلى إمارات مستقلة هي خمسة دامت من 305 إلى 434هـ. فانظر كيف تفرّعت بلاد فارس إلى إمارات فارسية. فانتعشت الشيعة ونالوا بعض ما كانوا يأملون من مساعيهم في نصرة العلويين. حتى قامت دولة آل بويه وهي أكبر دولة فارسية شيعية ظهرت في الشرق في عهد ذلك التمدن بظل الدولة العباسية.

دولة آل بويه

رجال هذه الدولة وأنصارها الديلم من الجيلان وراء خراسان ولكن ملوكها آل بويه من الفرس ويرتفع نسبهم إلى ملوك الفرس القدماء وإنما سموا ديلم لأنهم سكنوا بلاد الديلم. وكان العلويون يسعون في نشر دعوتهم هناك من أيام الرشيد، وآخر من نجح في ذلك الحسن بن علي الأطروش من نسل الحسين (عليه السلام) فدعا الديلم إلى مذهبه في أواخر القرن الثالث فأجابوه.

وجدُّ آل بويه الأقرب الذي أسس هذه الدولة اسمه بويه ولقبه أبو شجاع كان له ثلاثة أولاد: علي ويلقّب عماد الدولة، وحسن ويلقّب ركن الدولة، وأحمد ويلقّب معز الدولة، وكان بويه رقيق الحال فانتظم أولاده بالجندية لأنها كانت يومئذ باباً من أبواب الرزق الواسعة وكان عماد الدولة في خدمة مرداويج مؤسس الدولة الزيادية فارتقى عنده حتى ولاه الكرج ثم اتسعت أحواله فكتب إلى الخليفة العباسي وهو يومئذ الراضي بالله المتوفى سنة 329هـ أن يقاطعه على أعمال فارس بمال يحمله إلى دار الخلافة على جاري عادتهم مع الدولة العباسية في ذلك العهد فأجابه الراضي وبعث إليه بالخلعة. وأخوه حسن ركن الدولة تملّك خوارزم وجاء الأخوان واتحدوا مع أخيهما الثالث معز الدولة في شيراز وساروا غرباً حتى أتوا بغداد في أيام المستكفي سنة 334هـ فرحب بهم وخلع عليهم ولقّبهم الألقاب المذكورة وجعل معز الدولة أمير الأمراء واستبدوا في المملكة واستولوا على الخلافة وعزلوا الخلفاء وولوهم فرفعوا منار الشيعة وأحيوا معالمها وأضعفوا نفوذ الأتراك والخلافة العباسية لا تزال في بغداد، ولما أفضت إمارة الأمراء إلى عضد الدولة لقب بالملك وهو أول من خوطب بهذا اللقب في الإسلام، وحكم آل بويه من سنة 320 ـ 447هـ.

الدولة التركية في ظل العباسيين

لما قويت شوكة الأتراك في الدولة العباسية وهابهم الخلفاء كما تقدم طمع بعضهم في الولايات كما طمع الفرس فاستقلوا بها فنبت للدولة العباسية فروع

تركية خارج بلاد فارس كما نبتت الفروع الفارسية في بلاد الفرس وهما أربعة فروع دامت من (254) إلى (582هـ).

الدولة السلجوقية وفروعها

على أن هذه الإمارات نشأت فروعاً للمملكة العباسية أي كان أمراؤها أو سلاطينها من عمال الدولة العباسية أو قوادها أو قواد بعض الإمارات الأخرى واستقلوا كما نشأت الإمارات الفارسية قبلها والأمّتان تتنافسان في النفوذ لاختلاف العصبية واختلاف المذهب بين السنة والشيعة.

ومؤسس الدولة السلجوقية سلجوق بن يكاك أمير تركي كان في خدمة بعض خانات تركستان فعلم باختلال المملكة العباسية فطمع فيها، وعلم أنه لا يبلغ ذلك وهو على غير دين الإسلام فأسلم هو وقبيلته وسائر جنده ورجال عصبيته دفعة واحدة ونهض بجميع هؤلاء من تركستان وساروا غرباً فقطعوا نهر جيحون وتدرّجوا في الفتح ونشر السلطة حتى اكتسحوا المملكة العباسية وامتد سلطانهم من أفغانستان إلى البحر الأبيض. وأصبح العالم الإسلامي تتنازعه ثلاث دول إسلامية أكبرها دولة السلاجقة في المشرق ثم الدولة الفاطمية في مصر والمغرب والثالثة دولة بني أمية في الأندلس.

والسلاجقة دول تفرعت من أصل واحد وهم أصل سائر الفروع وأقوى منها جميعاً وهم خمسة حكموا من 429 ـ 700هـ. وكان السلاجقة في أيام سلطتهم يولون الأعمال أو الولايات قوّاداً من مماليكهم يسمونهم الأتابكة، وأخذ الأتابكة يستقلون بولاياتهم شيئاً فشيئاً حتى اقتسموا المملكة السلجوقية فيما بينهم وهم عشرة وحكموا من سنة 497 ـ 703هـ.

الدولة الكردية في ظل العباسيين

الأكراد قوم أشداء وأكثرهم أهل بادية وخشونة يقيمون في الخيام وينقسمون إلى قبائل وعشائر وبطون وهم أقل قبولاً للحضارة من الفرس والترك وغيرهما من الأمم الشرقية التي دانت للإسلام إبان التمدن الإسلامي. وقد ظلوا أهل ظعن

ورحلة في معظم ذلك التمدن. وكانت الدول تستعين بهم في الحروب البدوية الشبيهة بالغزو كما كانت تستعين بالأعراب، ومقامهم على الأكثر في كردستان وأرمينيا وجزيرة العراق كالموصل وديار بكر ولا يزال سوادهم هناك إلى الآن. وأول من أنشأ دولة كردية مستقلة في الإسلام حسنويه بن الحسين البرزكاني زعيم بعض قبائل الأكراد في كردستان في أواسط القرن الرابع للهجرة وامتدت سلطته على معظم تلك المملكة وفيها دیناور وهمذان ونهاوند وسرماج وغيرها. وقد اعترف خليفة بغداد بسلطانه ولقب ابنه بعده بناصر الدولة، ولم يطل عمرها كثيراً فحكمت من سنة 348 ـ 406هـ ثم استقل من الأكراد أبو علي بن مروان في ديار بكر سنة 380هـ وامتدت سلطته على آمد وآرزان وميافرقين، وبايع خلفه للفاطميين حيناً من الزمن وذهبت دولته سنة 489هـ.

والأكراد لم يكن لهم شأن يذكر في الإسلام إلا على عهد الدولة الأيوبية من سنة 564 ـ 648هـ ومؤسسها صلاح الدين الأيوبي، وارتفع شأن الأكراد في أيام دولته وتولوا الإمارات والولايات في مصر والشام وكردستان واليمن وخراسان ولما مات اقتسم مملكته أخوته وأولاده وأولاد أخوته ولذلك لم يطل حكمها، فغلبهم على معظمها مماليكهم الأتراك.

الفتح بن خاقان

الأمير الكبير الوزير الأكمل أبو محمد التركي ، شاعر مترسل بليغ مفوه ذو سؤدد وجود ومحاسن على لعب فيه وكان المتوكل لا يكاد يصبر عنه ، استوزره ، وفوض إليه إمرة الشام . فبعث إليها نوابا عنه . وله أخبار في الكرم والظرف والأدب . ولما قدم المتوكل إلى دمشق ، كان الفتح زميله على جمازة . حكى عنه : المبرد ، وأحمد بن يزيد المؤدب

وكان أحد الأذكياء ، دخل المعتصم على الأمير خاقان ، فمازح ابنه هذا ، وهو صبي ، فقال : يا فتح ، أيما أحسن داري أو داركم ؟ فقال الفتح : دارنا إذا كنت فيها . فوهبه مائة ألف . وكان الفتح ذا باع أطول في فنون الأدب . قتل مع المتوكل سنة سبع وأربعين.

أحمد بن طولون

(220ـ270هـ/ 835ـ844م)

أحمد بن طولون أبو العباس، مؤسس الدولة الطولونية في مصر والشام والثغور، تركي مستعرب من عشيرة الطُغُزغُز، أمه جارية اسمها قاسم وقيل هاشم، كان أبوه مملوكاً أهداه نوح بن أسد الساماني عامل بخارى إلى المأمون في جملة رقيق حمل إليه سنة 200هـ/ 816م، فرقاه الخليفة المأمون حتى صار من جملة الأمراء، وقيل إن طولون تبناه ولم يكن أحمد ابنه.

ولد في بغداد، وعاش في سامِرَّاء وبها تعلم وتأدب وتفقّه على مذهب الإمام أبي حنيفة، وحفظ القرآن الكريم، ورزق حُسن الصوت في تلاوته. انتشر له من حسن الذكر في قلوب الخلفاء، ما زاد على طبقته. وكان محله عندهم محل من يؤتمن على الأسرار والأموال وغيرها. اتصل بخدمة الخليفة المتوكل على الله، ففوض إليه ما كان لأبيه.

كان شديد الازدراء للأتراك لأنهم تسنموا من المراتب ما لا يستحقون، ولانتهاكهم حرمة الدين، وقيامهم بقتل الخلفاء، فطلب من الوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان أن يكتب له برزقه في ثغر طَرَسوس، فانتقل إليها واشتغل فيها بالحديث والجهاد، ثم عاد إلى سامرّاء لما لحق بأمّه من الجزع على غيابه، وبَدَرَ منه في طريق العودة من الشجاعة ما زاد قدره في أعين رفاقه. ولما علم الخليفة المستعين بالله بذلك اصطنعه وحمل إليه ألف دينار. وتوالت عليه جوائز الخليفة المستعين بالله، حتى حسنت حاله، وأهداه جارية اسمها ميّاس، ولدت له أبا الجيش خُمارَوَيْه سنة 250هـ / 864 م، وكان قد تزوج قبلها بابنة عمه خاتون.

تنكرت الأتراك للخليفة المستعين، فعزلوه بعد أن استقر الأمر على خلافة المعتز. ونفي المستعين إلى واسط، مع أصلح من يختار ويرضى به الأتراك، فوقع الاختيار على أحمد بن طولون، ومضى به إلى واسط، فأحسن أحمد بن طولون عشرته، وأطلق له التنزه والصيد، ورفض قتله حين أمره الأتراك بذلك لقاء تقليده

مدينة واسط، وكتب إليهم «والله لا أرى الله وأنا قد قتلت خليفة بايعته أبداً». فأنفذوا سعيداً الحاجب فقتله، ولم يبرح ابن طولون حتى واراه ثم عاد إلى سامراء.

كُلّف أحمد بن طولون ولاية الفسطاط، قصبة مصر، نيابة عن واليها الأصلي باكباك التركي سنة 254هـ/ 868م. وحين دخل إلى مصر وجدها مقسمة بين عدة أشخاص، ولذلك كان موقفه ضعيفاً لأنه كان نائباً على منطقة محدودة من مصر، وفي استطاعة واليها الأصلي عزلـه إذا لم يجز رضاه. يضاف إلى ذلك ما كان من منافسة ابن المدبّر، عامل الخراج في مصر، ومحاولته الإيقاع به عند الخليفة، ويبدو أن أسباب كره ابن المدبّر لأحمد بن طولون تكمن في ما لمسه من شهامته، وما يعرفه من كره الأهالي له بسبب زيادة الضرائب عليهم، واستعماله القسوة في الجباية.

وما لبثت الأحوال أن تغيرت لمصلحة أحمد بن طولون، فقد قتل باكباك، فتولى مصر القائد التركي يارجوخ، وكان بينه وبين أحمد بن طولون مصاهرة، فاستخلفه على مصر كلها. وحين توفي يارجوخ سنة 257هـ/ 871م تقلد ابن طولون ولاية مصر من الخليفة مباشرة، فتوطدت قدمه فيها، وتمكن من تأسيس الدولة الطولونية في مصر.

عمل أحمد بن طولون على تقوية نفوذه في مصر، فشرع في تحصين البلاد، وإعداد الجيش وتسليحه، وإنشاء السفن الحربية، وتطلع إلى حماية حدوده الشمالية، فمد سلطانه إلى بلاد الشام بما فيها الثغور سنة 264هـ/ 878م، بموافقة الخلافة العباسية بعد شعورها بعجز قواتها عن الدفاع عن الحدود أمام البيزنطيين. فنظّم شؤون الشام والثغور، وترك بها قوّات كثيرة، ووزع الحاميات في المدن الرئيسية فجعل حامية في دمشق، وثانية في الرقة، وثالثة في حَرّان. كما ضم إلى دولته منطقة بُرقة، وعمل على ضمّ الحجاز.

نشب نزاع بين أحمد بن طولون والموفّق أخي الخليفة العباسي المعتمد على الله، منذ سنة 262هـ/ 875 م، بسبب إرساله الأموال إلى الخليفة من دونه وهو في حاجة إليها لقتال صاحب الزنج. فعمل على تقليص نفوذه وتأليب ولاته عليه في الشام والثغور. وزادت الأمور حدّة حين عزم الخليفة المعتمد على الله، سنة 269هـ

/ 882-883 م، على ترك بغداد هرباً من أخيه الموفق. فشجعه ابن طولون، وحسّن له المجيء إلى مصر، وأرسل له سفتجة بمئة ألف دينار، لم يستطع الخليفة الالتجاء إلى ابن طولون، لتنبّه الموفق إلى الأمر، عندئذ عقد ابن طولون اجتماعاً في دمشق، ضمّ القضاة والأشراف في دولته، واتخذ قراراً بخلع الموفق لمخالفته للمعتمد وحصره، وذلك سنة 269هـ/ 883م، فأمر الموفق بلعن أحمد بن طولون على المنابر، وحُمل المعتمد على إصدار هذا القرار إضافة إلى قرار بمنح ولاية المناطق التابعة لابن طولون إلى إسحاق بن كنداج.

كان لموقف الموفق الحازم من أحمد بن طولون أكبر الأثر في قوته وموقفه في الشام، ولاسيما أنه سبق ذلك هزيمة قوات ابن طولون في مكة على يد قوات الموفق، فقد شغب الأمراء في الولايات، وكان لهذا أثره في موقفه العسكري، فثارت عليه بعض المدن، وحلت به الهزيمة في طَرَسوس، وخرج عليه ابنه العباس.

وفي غمرة هذه الأحداث، بنى ابن طولون على قبر معاوية بن أبي سُفيان أربعة أروقة، ورتب عند القبر أناساً يقرؤون القرآن، ويوقدون الشموع. وقد يكون ذلك تحدياً لبني العباس، ويبدو أن ما استحدثه ابن طولون استمر في عهد أبنائه.

كان أحمد بن طولون سياسياً محنكاً، وقائداً ماهراً، خبيراً بأساليب الحروب وتعبئة الجيوش، جواداً، فقد كانت له مائدة ينفق عليها ألف دينار في كل يوم يحضرها العام والخاص. وكان يبعث بالصدقات إلى دمشق والعراق والجزيرة والثغور وبغداد وسامراء والكوفة والبصرة والحرمين وغيرها، فَحُسِبَ ذلك فكان ألف ألف ومئتي ألف دينار.

كان عادلاً يتفقد أحوال رعاياه، شديداً على خصومه يفتك بمن عصاه، ويقال إنه أحصي من قتله، ومن مات في حبسه، فكان عددهم ثمانية عشر ألفاً، فاستتب له الأمن، وسادت الطمأنينة.

كان يحب أهل العلم ويقرّبهم إليه. واهتم بتعمير البلاد، فبنى مدينة القطائع، واتخذها عاصمة له، وفرّق فيها الأزقة والشوارع والسكك. كما بنى المسجد الذي

عرف باسمه فيها، وأنفق على عمارته مئة وعشرين ألف دينار. وبنى قبة الهواء على جبل يشكر خارج القاهرة، وبنى البئر بالقرافة والبيمارستان في أرض العسكر. وأنشأ حمامين أحدهما للرجال، وآخر للنساء، وبنى المنظر لعرض الخيل، كما بنى قصراً لنفسه في الميدان السلطاني، الذي تحت قلعة الجبل، فسمي القصر بالميدان.

توفي أحمد بن طولون في مصر في ذي القعدة، وخلّف ثلاثة وثلاثين ولداً، منهم سبعة عشر ذكراً، وخلف في خزائنه أموالاً كثيرة، وسبعة آلاف مملوك، وأربعة وعشرين ألف غلام، وعدداً من الخيل والبغال والدواب. وقد خلفه في حكم الدولة ابنه أبو الجيش خمارويه.

الكندري

الوزير الكبير ، عميد الملك أبو نصر ، محمد بن منصور بن محمد الكندري ، وزير السلطان طغرل بك

كان أحد رجال الدهر سؤددا وجودا وشهامة وكتابة وقد سماه محمد بن الصابئ في "تاريخه "، وعلي بن الحسن الباخرزي في" الدمية "منصور بن محمد . وسماه محمد بن عبد الملك الهمذاني : أبا نصر محمد بن محمد بن منصور . وكندر : من قرى نيسابور . ولد بها سنة خمس عشرة وأربع مائة .

تفقه وتأدب ، وكان كاتبا لرئيس ، ثم ارتقى وولي خوارزم ، وعظم ، ثم عصى على السلطان ، وتزوج بامرأة ملك خوارزم ، فتحيل السلطان حتى ظفر به ، وخصاه لتزوجه بها ، ثم رق له وتداوى وعوفي ، ووزر له وقدم بغداد ، ولقبه القائم سيد الوزراء ، وكان معتزليا ، له النظم والنثر فلما مات طغرلبك ؛ وزر لألب آرسلان قليلا ونكب

يقال : غنّته بنت الأعرابي في جوقها فطرب وأمر لها بألفي دينار ، ووهب أشياء ، ثم أصبح ، وقال : كفارة المجلس أن أتصداق بمثل ما بذلت البارحة .

وقيل : إنه أنشد عند قتله إن كـان بالنـاس ضيق عن منافستي فالمـوت قد وسع الدنيا على الناس

مضيـت والشـامت المغبون يتبعنـي

كـل بكـأس المنايـا شـارب حاسي

ما أسعدني بدولة بني سلجوق ! أعطاني طغرلبك الدنيا ، وأعطاني ألب آرسلان الآخرة .

ووزر تسع سنين ، وأخذوا أمواله ، منها ثلاث مائة مملوك . وقتل صبرا ، وطيف برأسه ، وما بلغنا عنه كبير إساءة ، لكن ما على غضب الملك عيار . قتل

بمرو الروذ في ذي الحجة سنة ست وخمسين وأربع مائة وله اثنتان وأربعون سنة .

قيل : كان يؤذي الشافعية ، ويبالغ في الانتصار لمذهب أبي حنيفة .

ووزر بعده نظام الملك.

فمن الحوادث فيها انه في مستهل المحرم عقد عميد الملك ابو نصر الكندري وزير طغرلبك على هزارسب بن بكير بن عياض الكردي ضمان البصرة والأهواز واعمال ذلك لهذه السنة بثلثمائة الف دينار سلطانية واطلقت يده واذن في ذكر اسمه في الخطبة بالاهواز

وفي المحرم ابتدئ بعقد الجسر من مشرعة الحطابين الي مشرعة الرواية زيد في زوارقه لعلو الماء فعصفت ريح شديدة فقطعت الجسر فانحدرت زوارقه الى الدراعين والحل الطيار المربوط بباب الغربة وتكسر سكانه وتشعثت آلاته وفي هذه السنة عم ضرر العسكر بنزولهم في دور الناس وارتكابهم المحظورات فأمر الخليفة رئيس الرؤساء باستدعاء الكندرى وان يخاطبه في ذلك ويحذره العقوبة فان اعتمد السلطان ما اوجبه الله تعالى والا فليسا عدنا في النزاع عن هذه النكرات فكتب رئيس الروساء الي الكندري فحضر فشرح له ما جرى فمضى الى السلطان فشرح له الحال فقال انني غير قادر علي تهذيب العساكر لكثرتهم ثم استدعاه في بعض الليل فقال اني نمت وقد تداخلتني الخشية لله تعالى مما ذكرت لي فرأيت شخصا وقع في نفسي انه رسول اله صلى الله عليه و سلم وكأنه واقف عند الكعبة فسلمت عليه فلم يلتفت نحوى وقال يحكمك الله في بلاده وعباده ولا تراقبه فيهم ولا تستحي من جلاله فامضى الى الديوان وانظر ما يرسمه امير المؤمنين لأطيع فانهى رئيس الروساء الحال فخرج التوقيع متضمنا للبشارة برؤية رسول الله صلى الله عليه و سلم فلما وصل الى السلطان بكى وامر بازالة الترك واطلاق من وكل به وفي هذه السنة ابتدأ السلطان طغرلبك ببناء سور عريض دخل فيه قطعة كثيرة من المخرم وعزم علي بناء دار فيها وجمع الصناع لتجديد دار المملكة العضدية وخربت الدور والدروب والمحال والاسواق بالجانب الشرقي وجميع ما يقارب الدار واخذت

آلاتها للاستعمال ونقضت دور الاتراك وسلت اخشابها بالجانب الغربي وقلع الفقراء اخشاب السدور وباعوه علي الخبازين والفراشين وفي يوم الخميس لثمان بقين من المحرم عقد للخليفة القائم بأمر الله على خديجة بنت اخي السلطان طغرلبك على صداق مبلغه مائة الف دينار وحضر قاضي القضاة ابو عبد الله الدامغاني واقضى القضاة ابو الحسن الماوردى ورئيس الرؤساء ابو القاسم ابن المسلمة وهو الذي خطب ثم قال ان رأى سيدنا ومولانا امير المؤمنين ان ينعم بالقبول فعل فقال قد قبلنا هذا النكاح بهذا الصداق فلما دخل شهر شعبان مضى ابن المسلمة الى السلطان وقال له امير المؤمنين يقول لك ان الله تعالى يأمركم ان تؤدوا الامانات الي اهلها وقد اذن في نقل الوديعة الكريمة الى العزيزة فقال السمع والطاعة ومضت والدة الخليفة الي دار المملكة وارسلت خاتون بورودها فانحدرت بها ودخلا باب الغربة وقت العتمة ودخل معها عميد الملك فقبل الارض وقال الخادم ركن الدين قد امتثل المراسم العالية في حمل الوديعة وسأل فيها كرم الملاحظة واجتناب الضيعة ثم انصرفوا فقبلت الجهة الارض دفعات عدة فادناها اليه وقربها منه واجلسها الي جنبه وطرح عليها فرجية منظومة بالذهب وتاجا مرصعا بالجوهر واعطاها من غدمائة ثوب ديباجا وقضبا مذهبا وطاسة من ذهب ق نبت فيها الياقوت والفيروزج وافرد لها من اقطاع دجلة اثنى عشر الف دينار وفي هذا الوقت غلت الاسعار فبلغ الكر الحنطة وقد كان يساوي نيفا وعشرين دينارا بتسعين دينارا وتعذر التبن حتى كان يباع الكساء من التبن بعشرة قراريط وانقطعت الطريق من القوافل للنهب المتدارك وكان اهل النواحي يجيؤن بأموالهم مع الخفر فيبيعونها ببغداد مخافة النهب ولحق الفقراء والمتجملين من معاناة الغلاء ما كان سببا للوباء والموت حتى دفنوا بغير غسل ولاتكفين وكان الناس يأكلون الميتة وبيع اللحم رطلا بقيراط واربع دجاجات بدينار ونصف قفيز أرز بدينار ومائة كراثة بدينار ومائة اصل خس بدينار وعدمت الأشربة فبلغ المن من الشراب دينارا والمكوك من بزر البقلة سبعة دنانير والسفرجلة والرمانة دينار والخيارة واللينوفرة دينارا واغبر الجو وفسد الهواء وكثر الذباب ووقع الغلاء والموت بمصر ايضا وكان يموت في اليوم الف نفس وعظم ذلك في رجب وشعبان حتى كفن السلطان من ماله

ثمانية عشر الف انسان وحمل كل اربعة وخمسة في تابوت وباع عطار في يوم الف قارورة فيها شراب وعم الوباء والغلاء مكة والحجاز وديار بكر والموصل وخراسان والجبال والدنيا كلها وورد كتاب من مصر ان ثلاثة من اللصوص نقبوا بعض الدور فوجدوا عند الصباح موتى احدهم على باب النقب والثاني على رأس الدرجة والثالث علي الثياب المكورة وفي هذه السنة تقدم رئيس الرؤساء ابو القاسم على بن الحسن ابن المسلمة بان تنصب اعلام سود في الكرخ فانزعج لذلك اهلها وكان يجتهد في اذاهم وانما كان يدفع منهم عميد الملك الكندري وفيها هبت ريح شديدة وارتفعت معها سحابة ترابية فاظلمت الدنيا فاحتاج الناس في الاسواق الى السرج وفيها احتسب ابو منصور ابن ناصر السياري علي اهل الذمة والزمهم لبس الغيارات والعمائم المصبوغات وذلك عن أمر السلطان فصرفت ذلك عنهم خاتون ومنعت المحتسب وفي العشر الثاني من جمادي الآخرة ظهر في وقت السحر ذؤابة بيضاء طولها في رأي العين نحو عشرة اذرع في عرض نحو الذراع ومكثت علي هذه الحال الي النصف من رجب ثم اضمحلت وكانوا يقولون انه طلع مثل هذه بمصر فملكت وكذلك بغداد لما طلع هذا ملكت وخطب فيها للمصريين وفي عشية يوم الثلاثاء سلخ رمضان خرج الناس لترأى هلال شوال فلم يروه وصلى الناس التراويح علي عادتهم ونووا صوم غدهم فلما كان بكرة يوم الاربعاء جاء الشريف ابو الحسن بن المهتدى المعروف بالغريق الخطيب وقد لبس سواده وسيفه ومنطقته ووراءه المكبرون لا بسين السواد علي هيئته الى جامع دار الخلافة فرآه مغلقا ففتحه ودخل وقال اليوم يوم العيد وقد روئى الهلال البارحة بباب البصرة ورام الصلاة فيه وجمع الناس به وعرف رئيس الرؤساء الخبر فغاظه ذلك واحفظه ان لم يحضر الديوان العزيز ويطالعه بما كان وما تجدد في رؤية الهلا فراسله واستحضره فامتنع وقال حتى اصلى واعيد ثم نكفى الى الديوان فروجع واحضر وانكر عليه اقدامه علي فتح الجامع وهو مغلق وقد علم انه لا خبر للناس من هذا الامر محقق وقال له قد كان يجبب ان تحضر الديوان العزيز وتنهى الحال ليحيط به العلم الشريف ويتقدم فيما يوجبه ويقتضيه واغلظ له فيما خاطبه فاعتذر وقال ما فعلت مما فعلته الا ثقة بنفسي وبعد ان وضعت الصورة عندي وكان قد حضرني البارحة ثمانية انفس من

جيراني اثق بقولهم فشهدوا عندي جميعا بمشاهدة الهلال فقطعت بذلك وحكمت وافطرت وافطر الناس في باب البصرة وخرجوا اليوم قاصدين جامع المدينة ولم اعلم ان هذا لم يشع فحضرت وانكرت كون الجامع مغلقا ثم جاء قوم فشهدوا برؤية الهلال فقال رئيس الرؤساء لقاضي القضاة ابي عبد الله الدامغاني ما عندك في هذا فقال اما مذهب ابي حنيفة الذي هو مذهبي فلا تقبل مع صحوا السماء وجواز ما يمنع من مشاهدة الهلال الاقول العدد الكثير الذي يبلغ مائتين واما مذهب الشافعي الذي هو مذهب هذا الشريف فانه يقطع بشهادة اثنين في مثل هذا وطولع الخليفة بالحال فامر بالنداء ان لا يفطر احد فأمسك من كان أكل وكان والد القاضي ابي الحسين قد مضى الى جامع القطيعة فصلى بالناس وعيد وكذلك في جامع الحربية ولم يعلموا بما جرى وفي هذه السنة اقيم الأذان في المشهد بمقابر قريش ومشهد العتيقة ومساجد الكرخ بالصلاة خير من النوم وازيل ما كانوا يستعملونه في الأذان حي على خير العمل وقلع جميع ما كان علي ابواب الدور والدروب من محمد وعلي خير البشر ودخل الى الكرخ منشدوا اهل السنة من باب البصرة فانشدوا الاشعار في مدح الصحابة وتقدم رئيس الروساء الى ابن النسوى بقتل ابي عبد الله بن الجلاب شيخ البزازين بباب الطاق لما كان يتظاهر به من الغلو في الرفض فقتل وصلب علي باب دكانه وهرب ابوجعفر الطوسي ونهبت داره وتزايد الغلاء فبيع الكر الحنطة بمائة وثمانين دينارا والكارة والخشكار الرديئة بسبعة دنانير واتى البساسيرى الموصل فخطب بها للمصري فاستدعى عميد الملك محمد بن النسوى وتقدم اليه باخراج ابي الحسن بن عبيد كاتب البساسيرى وقتله وكان قد اسلم في الحبس ظنا ان ذلك ينجيه فقتل وفي هذه السنة سار طغرلبك من بغداد يطلب الموصل وقد استصحب النجارين وعمل العرادات والمجانيق وكانت مدة مقامة ببغداد ثلاثة عشر شهرا وثلاثة عشر يوما واجتهد به الخليفة ان يقيم فلم يقم وخرج بعسكره فنهبوا أو انا وعكبرا وجميع البلاد وسبوا نساءها ونهبت تكريت وحوصرت القلعة وعم الغلاء جميع الآفاق حتى بلغ الكر الحنطة مائة وتسعين دينار وزاد ذلك في المعسكر فبيع الخبز رطل بنصف دانق وعاد ابن فسانجس الى واسط ومعه الديلم وخطب للمصري وورد محمود بن الاخرم الخفاجي من مصر ومعه

مال فخطب بشفاثا وعين التمر وبالكوفة للمصري وكذلك فعل شداد بن اسد في النيل وسورا ذكر من توفى في هذه السنة من الاكابر

الأمي : الأمير أبو الفوارس سرخاب بن بدر بن مهلهل الكردي المعروف بابن أبي الشوك.

توفي في شوال سنة ٥٠٠.قال ابن الأثير في حوادث سنة ٥٠٠ كانت للمترجم أموال كثيرةوخيول لا تحصى وولي الامارة بعده أبو منصور بن بدر وبقيت الامارة في

بيته ١٣٠ سنة. وقال ابن الأثير أيضا في حوادث سنة ٤٥٥ فيها توجه السلطان طغرلبك إلى بغداد وكان معه من الامراء وعد جماعة فيهم سرخاب بن بدر.

وفي حوادث سنة ٤٩٥ فيها عادت قلعة خفتيد كان إلى الأمير سرخاب بن بدر بن مهلهل وكان سبب اخذها منه القرابلي التركماني كان قد اتى إلى بلد سرخاب فمنعه سرخاب من المراعي وقتل جماعة من أصحابه فاستجاش القرابلي التركمان وجاء في عسكر كثير فاقتتل هو وسرخاب فقتل القرابلي من أصحاب سرخاب الأكراد قريبا من ألفي رجل وانهزم سرخاب في عشرين فلما سمع المستحفظان بقلعة خفتيد كان ذلك حدثتهما أنفسهما بالاستيلاء عليها فتملكاها ثم قتل أحدهما الآخر ورجع إلى طاعة سرخاب فعفا عنه. وفي حوادث سنة ٤٩٨ فيها سار بلك بن بهرام السلجوقي إلى حصن خانيجار وهو من اعمال سرخاب بن بدر فحصره وملكه.
٦٤٩ :الأمير أبو دلف سرخاب بن كيخسرو الديلمي صاحب ساوه وآبة. ساوة وآبة ويقال آوة مدينتان من نواحي قم ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٤٩٥ ان المترجم كان مع عسكر السلطان بركيارق السلجوقي لما وقع الحرب بين بركيارق وأخيه محمد وكان الأمير ينال بن انوشتكين الحسامي مع عسكر السلطان محمد فحمل المترجم على ينال فهزمه وتبعه في الهزيمة جميع عسكر محمد. وفي حوادث سنة ٥٠١ ان السلطان محمد سخط على

المترجم فهرب منه وقصد صدقة بن مزيد الذي كان يستجير به كل ملهوف فطلبه السلطان من صدقة فلم يسلمه وانضاف إلى ذلك أمور أخرى أوجبت الزيادة في غضب السلطان على المترجم وجرت في ذلك مراسلات ووساطات إلى أن شرط صدقة في الصلح ان يقر السلطان المترجم على أقطاعه بساوة فلم يتم الصلح ووقع الحرب بين السلطان وصدقة وقتل صدقة واسر سرخاب بن كيخسرو الذي كانت هذه الحرب بسببه فاحضر بين يدي السلطان فطلب الأمان فقال قد عاهدت الله اني لا اقتل أسيرا فان ثبت عليك انك باطني قتلتك والظاهر أنه قد وشي به كذبا انه باطني كما وشي بصدقة.

٦٥٠ :سرخاب بن محمد بن عناز الكردي أخو أبي الشوك فارس بن محمد بن عناز.

هو من امراء الأكراد بناحية قرميسين وهم طائفة كبيرة قال ابن الأثير في حوادث سنة ٤٣٧ فيها في شعبان سار سرخاب بن محمد بن عناز أخو أبي الشوك إلى البندينجين وبها سعدي بن أبي الشوك ففارقها سعدي ولحق بأبيه ونهب سرخاب بعضها وكان ابن أبي الشوك قد اخذ بلد سرخاب ما عدى دزديلويه وهما متباينان لذلك وفي حوادث سنة ٤٣٨ ملك سعدي حلوان وسار إلى عمه سرخاب فكبسه ونهب ما كان معه وسير جمعا إلى البندنيجين فاستولوا عليها وقبضوا على نائب سرخاب بها ونهبوا بعضها وانهزم سرخاب فصعد إلى قلعة دزديلويه ثم إن سعدي اقطع أبا الفتح بن ورام البندنيجين واتفقا على قصد عمه سرخاب وحصره بقلعة دزديلويه فسارا فيمن معهما من العساكر فلما قاربوا القلعة دخلوا في مضيق هناك من غير أن يجعلوا لهم طليعة طمعا فيه وإدلالا بقوتهم وكان سرخاب قد جعل على رأس الجبل على فم المضيق جمعا من الأكراد فلما دخلوا المضيق لقيهم سرخاب وكان قد نزل من القلعة فاقتتلوا وعادوا ليخرجوا من المضيق فتقطرت بهم خيلهم فسقطوا عنها ورماهم الأكراد الذين على الجبل فوهنوا واسر سعدي وأبو الفتح بن

ورام وغيرهما من الرؤوس وتفرق الغز والأكراد من تلك النواحي بعد أن كانوا قد توطنوها وملكوها وفي حوادث سنة ٤٣٩ فيها قبض الأكراد اللدية وجماعة من عسكر سرخاب عليه لأنه أساء السيرة معهم ووترهم فقبضوا عليه وحملوه إلى إبراهيم ينال السلجوقي فقلع إحدى عينيه وطالبه باطلاق سعدي بن أبي الشوك فلم يفعل وكان أبو العسكر بن سرخاب قد غاضبه لما قبض على سعدي واعتزله كراهية لفعله فلما أسر أبوه سرخاب سار إلى القلعة واخرج سعدي ابن عمه وفك قيوده وأحسن إليه وأطلقه واخذ عليه بطرح ما مضى والسعي في خلاص والده سرخاب فسار سعدي واجتمعر أبو الفوارس سرخاب بن بدر بن مهلهل الكردي المعروف بابن أبي الشوك.

العصر العباسي

عصر نفوذ السلاجقة

(447 - 656 هـ/ 1055 ـ 1258م

في عهد المقتدر (295-320هـ) أشرفت الدولة العباسية على الانحلال والموت بظهور سلطان المستقلين فى أطراف الخلافة والثغور. وحسب القارئ أن يعدد هذه الدويلات التى أعلنت سلطانها فى أجزاء الخلافة الإسلامية؛ ليعلم ما وصلت إليه الحال من خلل وتفسخ وانحدار ! لقد قامت فى فارس دولة بنى بويه، وبسط الإخشيديون سلطانهم على مصر وسورية، وأعلن الفاطميون سيادتهم فى إفريقية والمغرب، وساد الأمويون فى إسبانيا، واستقلّ بنو سامان فى خراسان وما وراء النهر، والقرامطة بمنطقة البحرين وما حولها من ثغور وبلاد، واستقر الديلم فى جُرجان وطبرستان، وأعلن أحد أمراء العراق واسمه البريدى حكمه على البصرة وواسط.

وقامت دولة الحمدانيين فى الموصل وديار بنى ربيعة وقسم كبير من أراضى العراق.

وكانت الدولة الإسلامية تغلى غليانًا فى جحيم الاضطرابات والدسائس!كل منهم يحارب الآخر حربًا لا هوادة فيها، ويحفر مقبرة الخلافة بهذا

التفكك الذى أطمع البيزنطيين أن يعيدوا الكَرَّة على بلاد الإسلام، فدخلوا كليكيا وسورية على يد القائد البيزنطى نقفور، الذى اشتبك فى معارك دامية مع سيف الدولة على أبواب حلب مما سيأتى تفصيله.

وكانت البلاد تواجه خطرين: خطر الانقسامات الداخلية، وخطر هجمات الروم الخارجية. وشاءت الأقدار أن تتقد نيران هذه الاضطرابات، وقد عقمت الأرض عن أن تلد منقذًا يقضى على هذه المطامع، وظلت الأمور بين أيدى خلفاء ضعاف أقصى أمنياتهم من الحياة بعض هذه الأموال التى يدرها العمال عليهم؛لينعموا مرفهين برغد الحياة. أصل السلاجقة:

من أولئك السلاجقة ؟ وكيف امتد نفوذهم حتى وصلوا إلى بغداد ؟ إنهم أتراك ينتسبون إلى جدهم سلجوق، وينتمون إلى قبيلة تركية كبيرة تسمى "الُغزّ." وقد نزلوا على نهر "سيحون"، واتصلوا بخدمة التركمان فى بلاد ما وراء النهر، وراح جدهم "سلجوق" يتقدم فى خدمة ملك الترك حتى وصل إلى قيادة الجيش، وكان بارع الحديث، كريمًا، فاستمال الناس إليه، وجمعهم مِن حوله، فانقادوا له وأطاعوه. وخافت زوجة ملك الترك على زوجها منه، فأغرته بقتله، وعرف "سلجوق" ما يدبِّر له فى الخفاء، فجمع مَنْ حوله، وسار بهم حتى مدينة "جَنَد"، وأقام هناك في جوار المسلمين ببلاد تركستان.

ولما جاور سلجوق المسلمين، وتعرف على أخلاق الإسلام أعلن إسلامه على مذهب أهل السنة، واعتنق الغُزُّ الإسلام معه. وعندئذ بدأ فى غزو "كفار الترك"، وكان ملكهم يأخذ إتاوة من المسلمين فى تلك الديار، فقطعها سلجوق وطرد نوابه.

كان لسلجوق من الأولاد أربعة هم: أرسلان، وميكائيل، وموسى، ويونس. انتصارات طغرل:"ولقد أعد سلجوق أبناءه وأحفاده للغزو والفتح، فلقد استطاع أحد أحفاده وهو" طغرل" أن يستولى على إقليم مرُو "خراسان" سنة 429هـ فى الشمال الشرقى من فارس، ثم استولى على نيسابور 432هـ، وعلى حَرَّان

وطبرستان عام 433هـ، وعلى خوارزم عام 434هـ، وأصبهان عام 438هـ/ 1047 م.

واستمر "طغرل" يتقدم فى بلاد فارس والعراق، وفى سنة 447هـ/ 1055م وقف طغرل على رأس جماعة من جنده الأتراك أمام أبواب بغداد، كما وقف "بنو بويه" قبله، فسلمت له المدينة دون مقاومة، واستقبل الخليفةُ طغرل زعيمَ السلاجقة كما استقبل أحمد أبا شجاع من قبل، وراح الخليفة العباسى "القائم" يعترف بطغرل سلطانًا ويمنحه لقب "ملك المشرق والمغرب."

نشر المذهب السنى:

تدفقت القبائل التركية على العراق بعد انتصار طغرل، ولقد سخَّر السلاجقة مركزهم -إلى جانب الخلافة العباسية- لخدمة الإسلام، فراحوا يعملون على توسيع سلطانه، ولم يكن هدفهم تقوية مركز الخليفة العباسي، وإنما عمدوا إلى نشر المذهب السنى الذى دانت به الخلافة العباسيَّة، ومحاربة الشيعة الفاطميين، أملا فى إعادة وحدة الأمة ومواصلة نشر الإسلام فى أرمينيا وآسيا الصغرى، ويحسب لهم أنهم احترموا منصب الخلافة، وأجلُّوا الخلفاء واحترموهم، فلم يسيئوا إليهم، ولم يعتدوا عليهم كما كان الأتراك في العصور السابقة.

جيوش "ألب أرسلان:"

وتولى "ألب أرسلان" ابن أخى طغرل القيادة العليا للجيوش السلجوقية سنة456هـ/ 1063م، وجعل جيشه ثلاث شعب: شعبة منه سارت إلى الشام، وشعبة ثانية إلى بلاد العرب، وكلتاهما تابعة للدولة الفاطمية الشيعية. أما الشعبة الثالثة فقد كان هو رأسها واتجه بها نحو "أرمينيا الصغرى" وآسيا الصغرى"، وهى "بلاد الروم" كما كان يسميها المؤرخون المسلمون.

موقعة ملاذكرد:

واستولت الجيوش السلجوقية على "حلب" سنة 463هـ/ 1070م، واستعادت "مكة "و"المدينة" بعد ذلك بقليل، بينما انتصر "ألب أرسلان" على

الإمبراطور البيزنطى "رومانوس ديوجينيس" سنة 464هـ/ 1071م، فى موقعة "ملاذكرد" فى الشمال الشرقى من بحيرة "فان"، وأباد معظم الجيش البيزنطى حتى باتت آسيا الصغرى تحت سيطرته، فانتشرت جيوشه فيها إلى قرب "البسفور" و"الدردنيل"، ومن هذه الفتوح تأسست دولة سلاجقة الروم فيما بعد.

ويموت ألب أرسلان عام 465هـ/ 1072م مقتولا،أوقاف النساء ودورها في النهضة العلمية الجديدة خلال العهد السلجوقي-الزنكي في دمشق السبت، 05 نوفمبر 2011محمد م. الارناؤوط

يعتبر دخول السلاجقة بقيادة السلطان طغرل بك الى بغداد بدعوة من الخليفة العباسي القائم بأمر الله في محرم 447 هـ/ 1055م للتخلص من حكم البويهيين مؤشراً الى مرحلة جديدة في المشرق برزت فيها جوانب سياسية ودينية وثقافية جديدة. ومن ذلك بروز دور أوضح للمرأة في الطبقة الحاكمة والمجتمع، وهو ما يتمثل في مشاركتها في الوقف الذي يعكس ثروة المرأة ومكانتها في المجتمع. ويبدو هذا في شكل واضح في دمشق التي أصبحت عاصمة لكيان سلجوقي بعد قرون من التهميش والتدمير.

وكانت دمشق بعد انهيار الدولة الاموية في 132 هـ/ 750 م وانتقال عاصمة الدولة العباسية الجديدة الى بغداد تراجعت لتصبح مركزاً لولاية عباسية ثم لتصبح مجالاً للصراع بين الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية الجديدة بعد أن اتخذت الأخيرة من القاهرة عاصمة لها. وتمكن الجيش الفاطمي في 358هـ/ 969 من دخول دمشق، التي عانت كثيراً من الصراع العباسي - الفاطمي حتى انه لم يبق فيها أي أثر عمراني عباسي أو فاطمي.

وبرز اهتمام السلاجقة بدمشق خلال عهد السلطان ملكشاه (465-485 هـ1092-1072 /م) حين تمكن القائد أتسز بن أرق من دخول دمشق في 468هـ/ 1075م وجعل الخطبة للخليفة العباسي بعد أن كانت للخليفة الفاطمي. وظهر اهتمام ملكشاه بدمشق من خلال تعيين أخيه تتش عليها فتولى الحكم فيها بلقب «تاج الدولة «خلال 471 - 488 هـ/ 1078 - 1095 م، وأصبحت

عاصمة لكيان يمتد من بانياس الى حماة في الشمال. والى هذه الفترة من الحكم السلجوقي يبدأ في البروز دور أوضح للمرأة من خلال الوقف. ويلاحظ هنا أن هذا الدور للمرأة يبدو في القمة) الاسرة الحاكمة السلجوقية)، وهو ما يتفق مع التقاليد التركية القديمة التي تعطي المرأة مكانة في الادارة والسياسة والحرب.

إمارة الشام

ويقترن هذا الدور مع تولي دقاق بن تتش الحكم في دمشق خلال 497هـ- / 1104م، وهي الفترة التي برزت فيها أمّه المشهورة بلقب «صفوة الملك» وأخته زمرد خاتون التي لعبت دوراً أكبر بسبب تعدد زواجها وحكم أولادها.

وكان الاتابك طغتكين تقدم وتزوج أم دقاق «صفوة الملك» وتلقّب بـ «ظهير الدين» وأصبح له نفوذ كبير حتى وفاة دقاق في 497هـ/ 1104م . وأوصى دقاق بناء على طلب والدته «صفوة الملك» للأتابك طغتكين بأن يتولى الحكم موقتاً الى أن يكبر ابنه تتش الصغير الذي لم يتعدّ عمره السنة. وبقي الامر كذلك الى أن توفي تتش الصغير فجأة في 497هـ/ 1104م، فتولى طغتكين الحكم بلقب «الأمير «بعدما ذهب الى بغداد واحتفى به السلطان السلجوقي هناك وأصدر منشوراً قلّده» إمارة الشام». وبقي الأمير طغتكين خلال حكمه في دمشق منشغلاً بالصراع مع الفرنجة الى أن توفي في 522هـ/ 1128م، فورثه ابنه بوري الذي تزوج بأخت الأمير الراحل دقاق زمرد خاتون وتلقّب بـ «تاج الملك». وبعد وفاته في526 هـ/ 1132م تولى الحكم ابنه اسماعيل الذي تلقب بـ «شمس الملوك»، ولكن أمه زمرد خاتون لم تكن على وفاق مع سياسته ما بين الفرنجة والسلاجقة فتخلصت منه في 529هـ/ 1135م بعد أن كاتب عماد الدين زنكي للقدوم الى دمشق. وقد تولى الحكم بعده الابن الآخر لزمرد خاتون محمود الذي تلقّب بـ «شهاب الدين .«وخلال فترة حكمه 529-533 هـ/ 1134-1138م انشغل اسماعيل بصد عماد الدين زنكي الذي شدد حصاره على دمشق بعد أن تمكن من السيطرة على حمص ثم على بعلبك.

وفي هذا الوضع سعى زنكي الى التقارب السياسي مع شهاب الدين محمود فتزوج من والدته زمرد خاتون وزوجه بابنته مقابل تخليه عن حمص. ولكن محمود

تعرض للقتل على يد غلمانه في 533هـ/ 1139م فورثه أخوه محمد بلقب «جمال الدين «الذي فوض امور الدولة الى الاتابك معين الدين انر. وحرضت زمرد خاتون زنكي على الاخذ بالثأر لابنها محمود فجاء دمشق وحاصرها شهوراً. ومع الموت المفاجئ لمحمد في 534هـ/ 1139م آل الحكم الى ابنه الصغير آبق الذي لقّب بـ» مجير الدين»، وذلك تحت رعاية الاتابك انر الذي تخلى للصليبيين عن بانياس مقابل مساعدتهم لفك حصار زنكي عن دمشق.

وبعد انسحاب زنكي واغتياله في 541هـ/ 1146 م اضطربت أحوال زوجته زمرد خاتون فلم يعد يطيب لها العيش في بلاد الشام وذهبت الى مكة المكرمة وجاورت هناك حتى قلّ ما في يدها الى أن ماتت فقيرة في 557هـ/ م بعد أن رفضت أن تسترجع أي شيء من أوقافها الكثيرة.

وحاول محمود بن زنكي الذي تلقب بـ «نور الدين» أن يتقرّب من الرجل القوي في دمشق (الاتابك انر) فتزوج من ابنته الخاتون عصمة الدين. ولكن بعد وفاة انر برز آبق بن محمد ليسترد حكمه ويوطد علاقته بالفرنجة، ما دفع محمود بن زنكي لحصار دمشق حتى تمكن من دخولها بمساعدة أهلها في 549 هـ / 1154 م.

وخلال الحكم السلجوقي - الزنكي في دمشق الذي جاء بعد الحكم الفاطمي، يلاحظ اهتمام الحكام الجدد بنشر الاسلام السني من خلال المنشآت الجديدة) المدارس) التي بنوها ضمن أوقافهم، وتوفير الخدمات المختلفة للمحتاجين في المجتمع من خلال المنشآت الجديدة التي بنيت في دمشق للمرة الاولى.

وفي هذا السياق يلاحظ هنا اسهام غير مسبوق للمرأة في هذا المجال، وذلك مع الاسماء التي مرّت معنا حتى الآن (أم دقاق وزمرد خاتون والخاتون عصمة الدين). وهكذا فقد شيّد الأمير دقاق أول بيمارستان في دمشق في 490هـ1104 /م، كما أنه بنى أول خانقاه بالاضافة الى مسجد دفن فيه. وأسّست في عهده أيضاً أول مدرسة سنية على المذهب الحنفي هي المدرسة الصادرية بالقرب من باب البريد. وأسست في ما بعد أول مدرسة للشافعية (المدرسة الامينية) في 514هـ1120 /م ، كما تأسست أول مدرسة للحنابلة (المدرسة الشريفية) في 536هـ1141 /م.

وفي هذا السياق كان لوالدة الأمير دقاق اسهامها،اذ أضافت الى المجمع العمراني الذي بناه ولدها تربة دفنت فيها بعد وفاتها في 513هـ/ 1119م.

المسجد الكبير

ولكن الاسهام الاكبر في هذا المجال كان لأخت الأمير دقاق صفوة الملك زمرد خاتون. وتجدر الاشارة هنا الى أن المصادر تجمع على اهتمامها بالعلم، اذ انها سمعت الحديث عن أبي الحسن علي بن قيس واستنسخت الكتب وحفظت القرآن الكريم. ولذلك ليس من المستغرب اهتمامها بنشر العلم من خلال الاوقاف التي أقامتها في ضاحية دمشق، في ما كان يعرف بصنعاء دمشق. فقد بنت هناك «المسجد الكبير» كما بنت المدرسة التي اشتهرت باسمها المدرسة الخاتونية البرانية، والتي وصفها الصفدي في وقته بأنها «من كبار مدارسهم وأجودها معلوماً.

وذكر ابن شداد في كتابه «الاعلاق الخطيرة» أن تاريخ وقف المدرسة الخاتونية كان في 526هـ، وقد أوقفتها صفوة الملك على العالم المعروف علي البلخي الذي كان أول من درّس فيها ثم جاءت بعده كوكبة من العلماء المعروفين. وبقيت هذه المدرسة من أشهر وأجمل مدارس دمشق حتى القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي حين زارها البدري وقال عنها «إنها من أعاجيب الدهر، يمرّ بصحنها نهر بانياس ونهر القنوات على بابها، ولها شبابيك تطل على المرجة، وبها ألواح من الرخام ما لم يسمع به.«

ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلاً إذ إن العلموي المعاصر يذكر أن نائب الشام المملوكي سيباي كان أول من خرّب هذه المدرسة وأخذ رخامها ليبني به مدرسته في باب الجابية، ثم تواصل التعدي عليها حتى لم يبق لها أثر.

أما الخاتون عصمة الدين زوجة نور الدين بن زنكي فقد اشتهرت بتقواها واهتمامها بالفقراء. وورد في المصادر أنها نامت ليلة عن وردها فأصبحت غاضبة، ولذلك فقد أمر زوجها نور الدين بضرب الطبلخانات في القلعة وقت السحر لتوقظ المستغفرين بالاسحار، وهو ما بقي معمولاً به حتى نهاية الحكم المملوكي. وبنت خانقاه عرف باسمها (الخانقاه الخاتونية) في ظاهر دمشق، كما بنت في

570هـ/ م مدرسة للحنفية في قلب دمشق بالقرب من البيمارستان الذي بناه زوجها (البيمارستان النوري)، ولذلك عرفت بـ «المدرسة الخاتونية الجوانية» تمييزاً عن الاول. وبقيت هذه المدرسة تقوم بدورها حتى نهاية الحكم المملوكي، وذكر العلموي أن فخر الدين القدسي استولى عليها وبنى مكانها بيتاً له.

مقاطع من الورقة المقدمة الى الندوة الدولية الثانية للثقافة والحضارة السلجوقية في قونية خلال 19-23 / 10/ 2011

قال الشاعر :

فطلقها فلست لها بكفء وإلا يعل مفرقك الحسام

فطلقها : الفاء حسب ما قبلها ، وطلق فعل أمر مبني على السكون لا محل له من الإعراب ، والفاعل ضمير مستتر وجوباً تقديره أنت ، والضمير المتصل في محل نصب مفعول به .

فلست : الفاء حرف تعليل ، ليس فعل ماض ناقص ، وتاء المخاطب في محل رفع اسمها .

لها : جار ومجرور متعلقان بكفء الآتي .

بكفء : الباء حرف جر زائد ، وكفء خبر ليس منصوب بفتحة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد .

وإلا : الواو حرف عطف ، إلا مركب من حرفين أحدهما إن الشرطية والثاني لا النافية ، وفعل الشرط محذوف يدل عليه سابق الكلام .

يعل : فعل مضارع جواب الشرط مجزوم وعلامة جزمه حذف عرف العلة .

مفرقك : مفعول به ، وهو مضاف ، والكاف في محل جر مضاف إليه .

الحسام : فاعل مرفوع بالضمة .

الشاهد فيه قوله : " وإلا يعل " حيث حذف فعل الشرط لأن الأداة إن وهي مقرونة بلا ، وتقدير الكلام : وإلا تطلقها يعل .

غرس النعمة (محمد بن هلال الصابئ)

(416ـ480هـ/1025ـ1087)

أبو الحسن، محمد بن هلال بن المُحسِّن غرس النعمة الصابي الحَرَّاني، مؤرخ أديب مترسل من أهل بغداد.

ينتمي غرس النعمة إلى جماعة الصابئة ويتحدر من آل زهرون بن حيون الصابئ الحراني، فكان منهم أبو إسحاق، إبراهيم بن هلال الصابئ الذي غلبت عليه صناعة الكتابة والبلاغة والشعر، مع تبحره في علوم الرياضة والهندسة والفلك. وهو صاحب كتاب «التاجي» في تاريخ بني بويه، وقد ألفه بإيعاز من عضد الدولة. ترك والده هلال بن المُحسِّن (ت 448هـ/ 1056م) كتباً عدة أهمها «تُحفة الأمراء في تاريخ الوزراء» و«رسوم دار الخلافة»، وقد أتاح له اشتغاله في دواوين الإنشاء أن يطلع على شؤون دار الخلافة ورسومها وأسرارها ووثائقها وأحوال ساكنيها، وأن يسجل خلاصة معرفته وتجاربه في هذين الكتابين المذكورين. وأبرز ما في حياة هلال بن المحسن أنه كان أول من أعلن إسلامه من الصابئة، وذلك في سنة 403هـ/ 1012م، وله من العمر يوم ذاك أربع وأربعون سنة، ثم تزوج امرأة مسلمة ولدت غرس النعمة محمد بن هلال، فكان أول مولود من الصابئة على الإسلام.

نشأ غرس النعمة في كنف أبيه ورعايته، وعليه وعلى غيره من شيوخ بغداد تخرج في الإنشاء والكتابة والأدب، فهو يروي عن أبيه وينقل عنه بكثير من الإجلال والتقدير.

وفي سني شبابه انتدبه الخليفة العباسي القائم بأمر الله للعمل في ديوان الإنشاء معتمداً على نبوغه وسعة خبرته في هذا المجال.

ولما توفي والده، ورث عنه أموالاً كثيرة وأملاكاً نفيسة، فعاش عيشة هانئة، عكف فيها على تثمير ثروته وتنميتها بعيداً عن المؤامرات السياسية التي كان يضطرب بها عصره، فقد أتيح له أن يشهد العقود الأخيرة من حكم ملوك بني بويه

والعقود الأولى من حكم السلاطين السلاجقة في بغداد، ومع ذلك كان لا يصانع الحكام ولا يتزلف إليهم، فظل لذلك محترماً عند الخلفاء والملوك والوزراء.

وقد عرف عنه أنه كان معطاء كريماً، يبسط يده في أبواب الصدقة والمعروف، فمن جملة مآثره أنه وقف للناس دار كتب بناها غربي بغداد وزودها بأربعة آلاف مجلد في مختلف العلوم والفنون، فأصبحت هذه الدار ملتقى للعلماء والباحثين، ومنتدى للدارسين والمتناظرين.

ذكرت كتب التراجم ثلاثة من مصنفات غرس النعمة، أولها كتاب« التاريخ» وهو ذيل على كتاب ألفه والده في التاريخ وأوصاه بمتابعته، إلا أن كتاب غرس النعمة هذا لم يعثر عليه، وبقيت منه شذرات مبثوثة في تضاعيف الكتب التي نقلت عنه فيما بعد. وثانيهما كتاب «الربيع» وهو تذييل على كتاب «نشوار المحاضرة» للتنوخي، إلا أنه أيضاً يعد من الكتب المفقودة.

أما كتابه الثالث «الهفوات النادرة» فقد نجا من يد الضياع، وظل مخطوطاً إلى أن أخرجه إلى النور وقام بتحقيقه صالح الأشتر، وصدر عن مجمع اللغة العربية بدمشق سنة 1967م. وقد أودع فيه المؤلف مجموعة من الأخبار الطريفة والحكايات المسلية والهفوات الجارية على ألسن المتحفظين المتحرزين، والسقطات الآتية من الغارِّين المغفلين، إضافة إلى ما يزود به الكتاب من معرفة ببعض أعلام الدولة البويهية من ملوك ووزراء وعمال وكتاب.

توفي غرس النعمة محمد بن هلال الصابئ في بغداد عن عمر ناف على الستين، ودفن في داره بشارع ابن أبي عوف، ثم نقل إلى مشهد الإمام علي.

- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (دار الكتب المصرية، 1972).

- ابن العماد، شذرات الذهب (القاهرة 1350هـ).

- غرس النعمة، محمد بن هلال، الهفوات النادرة، تحقيق صالح الأشتر (مجمع اللغة العربية، دمشق 1967).

- ابن القوطي، تلخيص مجمع الآداب في مجمع الألقاب، تحقيق مصطفى جواد (دمشق 1965م)

التعريف مدينة ري

من أهم المدن الاسلامية الايرانية من حيث العظمة والتاريخ ، وهي المدينة الأمّ لطهران ، وقد أقيمت المباني الاولية لهذه المدينة حول عين ماء تسمّى "عين علي" (چشمه علي) ، وتوجد بعض التلال التاريخية الأثرية العريقة جداً بالقرب منها .

الموقع

تقع في الجمهورية الاسلامية الايرانية على بعد 6 كيلومترات جنوب شرقي العاصمة طهران وعلى خط طوله 51 درجة و25 دقيقة شرق غرينيتش ، وخط عرضه 35 درجة و38 دقيقة شمال غرينيتش .

التأسيس

تدلّ الحفريات الأثرية في هذه المدينة على وجود حضارة عريقة فيها ، فخلال تلك الحفريات التي أجريت عام 1935 م على السفح الجنوبي لجبل (چشمه علي) والأراضي المشرفة على بستان "صفائية" ، اكتشفت أواني خزفية تعود إلي فترة تتراوح بين أربعة آلاف إلى ستة آلاف عام مضت ، وتدلّ على وجود بشر متحضرين عاشوا على امتداد هذه العين العريقة وحولها ، وهؤلاء هم السكان الأوائل لمنطقة «الريّ» وحسب الدلائل الموجودة فإن هذه المدينة ترجع إلى القرنين السابع والثامن قبل الميلاد وتنقسم مدينة الري التاريخية من حيث القدم إلي قسمين:- 1ـ الري القديمة الأثرية 2ـ الري المستحدثة في العصور التالية (العهد الاسلامي) فالجزء الأول «الري ما قبل الإسلام » ، فهو الجزء الكائن جنوب «عين علي» ، حيث يقع سور عظيم وعريض هناك ، يعود إلي عصور ما قبل الإسلام ، ويسمى هذا الجزء «ري برين» أي «الري العليا» ، ومن هذا الجزء تنامت المدينة واتسعت باتجاه الجنوب الشرقي تدريجياً . الجزء الثاني : هو الري في العهد الاسلامي ، وهو الجزء الكائن جنوب شرق الأول وجنوب جبل «بي بي شهر» بانو يسمى «ري برين» أي «الري السفلى» التي يحيط بها خندق واسع .

المعالم والآثار

يبلغ طول المدينة فرسخ ونصف مضروباً في فرسخ ونصف(الفرسخ 3 أميال) ، وبيوتها من الطين قديما الا انه وفي العصر الاسلامي وفى عهد منصور الدوانيقي قام ابنه المهدي بوضع الحجر الاساس لبناء الجزء الشرقي لمدينة الري عند جنوب جبل بي بي شهر بانو، وقد قام المهدي بحفر خندق حول المدينة ، وبناء المسجد الجامع عام 158 هـ ، وكذلك أمر بإنشاء القلعة في شمال المدينة ، وسمي هذه المجموعة بالمحمدية ، ويسمي الناس هذا الجزء من الري بالمدينة او«شهرستان » ، وسميت القلعة بالمدينة الخارجية «كهن دج» . وكان للري آنذاك حصن محكم، ولها خمس بوابات وهي: بوابة باطاق في الجنوب الغربي، بوابة بليسان في الشمال الغربي، بوابة كوهك في الشمال الشرقي، بوابة هشام في الجانب الشرقي، وأخيراً بوابة سين في الجانب الجنوبي وتعرف ببوابة قم. . وكانت الريّ في القرن الرابع الهجري من أكبر المراكز الأربعة لولاية « الجبال ». ، وليس ثمة مدينة في المشرق أجمل وأوسع من الريّ . وبعد هجوم المغول استُحدثت في الريّ تقسيمات جديدة، إذ قُسّمت إلى أربع مناطق كبيرة: « الناحية الأولى هي ناحية بَهنام، وفيها ستّون قرية من أكبر قراها ورامين وخاوه. والناحية الثانية هي ناحية سبور قرج، وفيها تسعون قرية أكبرها قرى شندر وإيوان كيف. والثالثة هي ناحية فشابويه، وفيها ثلاثون قرية أكبرها قرى كوشك عُليا باد وكيلين وجرم وقوج آغاز. والرابعة ناحية غار، وفيها أربعون قرية أكبر هذه القرى هي طهران (وإمام زاده) حسن المشهورة بـ (جيان) وفيروز بهرام ودولت آباد وظلت هذه التقسيمات على حالها في الفترات التالية، ولكن المدينة وشوكتها قد آلتا إلى الضعف والخراب حتى ظهرت الري الجديدة التي يقع فيها مقام السيّد عبدالعظيم الحسني، وحظيت هذه القرية بالاهتمام والعمران، حتّى أضحت مدينة صغيرة جميلة مزوّدة بمختلف التأسيسات، واستعادت اسمها (مدينة الريّ) من جديد، وبدأ عدد سكانها يزداد باستمرار ، وهي الآن قضاء إذا ما أضيفت إليها قرية غار وهى تضمّ بالاضافة مرقد السيد عبد العظيم الحسني مرقدي السيدين حمزة وطاهر عليهما السلام وتعد مدينة ري من أشهر أماكن الزيارة والسياحة في الجمهورية الاسلامية الايرانية اليوم و منذ القرن الثالث للهجرة .

المصادر

موقع شبكة الامام الرضا – موقع كلية علوم الحديث –

بنونا بنوا أبناءنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد ا – لم يعرف على قائله ولم أجد في التقق من المصادر عن قائله

محمد بن المنجح بن عبد الله أبو شجاع الواعظ، تفقه على أبي محمد عبد الله بن أبي بكر الشاشي، وسافر إلى الشام في سنة أربعين وخمس مائة ووعظ بدمشق وأقام بها مدة، وخرج إلى بعلبك وولي القضاء بها، وصرف عنها بعد مدة وعاد إلى بلاد الجزيرة ولقي ابن البزري الفقيه الشافعي وأحكم عليه قراءة المذهب، وكتب بيده الشامل لابن الصباغ والبسيط للغزالي وغير ذلك من الكتب الكبار، وقدم بغداذ ووعظ بها، وعاد إلى بلاد الجزيرة ولازم ابن البزري إلى أن توفي في أوائل سنة ستين وخمس مائة ثم عاد إلى بغداذ، وكان فقيهاً فاضلاً حسن الكلام في المناظرة أديباً مليح الشعر لطيفاً ظريفاً، سمع الحديث من أبي بكر محمد بن عبد الباقي الأنصاري وأبي القاسم عبد الرحمن بن طاهر بن سعيد الميهني وغيرهما وحدث باليسير، سمع منه القاضي أبو المحاسن عمر بن علي بن الخضر القرشي، من شعره:

عذيري من زمن كلما ... شددت عرى أملي حلها
عرائس فكري قد عنست ... لأني عدمت لها أهلها

ونفسي تنهل من مورد ... ترى الموت في الورد إن علها
عليها من الدهر أثقاله ... ولا يغلط الدهر يوماً لها

ومنه قوله:

سلام من وادي الغضا ما تناوحت ... على ضفتيه شمال وجنوب

أحمـل أنفـاس الخزامـي تحيـة ... إذا آن منهـا بالعشـي هبـوب

لعمري لئن شطت بنا غربة النوى ... وحالت صروف دوننا وخطوب

فما كل رمل جئته رمل عالج ... وما كل ماء عمت فيه سروب

رعى الله هذا الدهر كل محاسني ... لديه، وإن أكثرتهن، ذنوب

قلت :شعر منسجم عذب. ولما كان بواسط طاب وعظه لجماعة فسألوه أن يجلس لهم الأسبوع مرتين كلما عين لهم يوماً يحتجون بأن القراء يكونون فيه يوماً في ختمة ديوان الخلافة ويوماً ديوان الإمارة ويوماً عند ابن الغزنوي ويوماً عند غيره إلى أن ذكروا الأيام كلها فأطرق ثم قال: لو عرفت هذا كنت أتيتكم معي بيوم من بغداد، وتوفي سنة إحدى وثمانين وخمس مائة ودفن بالشونيزية.

الحافظ شكر

محمد بن المنذر بن سعيد بن عثمان السلمي الهروي الحافظ أبو عبد الرحمن المعروف بشكر بكاف مشددة بعد الشين المعجمة وفي الطرف راء أكثر الترحال وصنف، توفي في أحد الربيعين سنة ثلاث مائة، صنف كتاب التاريخ لهراة صغيراً وكتاب الجواهر.
ابن أبي عقيل المراكشي الشافعي محمد بن المنذر بن محمد بن أبي عقيل عبد الرحمن بن المنذر المغربي المراكشي أبو منصور الفقيه الشافعي نزيل حلب، قدم والده إلى بغداذ واتصل بابن هبيرة قبل وزارته وتوفي بالموصل، وولد محمد المذكور ببغداذ وسمع بها الحديث من أبي عبد الله ابن خميس وتفقه على أبي البركات الشيرجي وغيره وقرأ القرآن على أبي القرطي وصحب أبا النجيب السهروردي وسمع منه الحديث ومن المظفر بن الشبلي وابن المادح وابن البطي وغيرهم وسمع كتاب اللالكائي من سعد الله بن حمدين في دار ابن هبيرة ولقي عبد القادر الجيلي وسافر إلى الشام وقرأ قطعة من تأريخ دمشق على مصنفه علي أبي القاسم ابن عساكر

وكان يمتنع من الرواية ويقول: مشايخنا سمعوا وهم صغار لا يفهمون وكذلك مشايخهم وأنا لا أرى الرواية عمن هذه سبيله، وعمر وعلت سنة ولم يرو شيئاً، وكان فقيهاً فاضلاً غزير العلم عالماً بالأدب، قال ابن النجار: اجتمعت به بحلب غير مرة وكان حسن الأخلاق كيساً ممتعاً بإحدى عينيه، توفي سنة ثمان وعشرين وست مائة بحلب ودفن خارج باب النصر وله شعر.

القرقساني

محمد بن منصور بن صدقة القرقساني، كان من أهل الخير والصلاح وإنما كان كثير الغلط لأنه كان يحدث من حفظه، أسند عن الأوزاعي وغيره، وروى عنه الإمام أحمد وغيره، قال البخاري: كان ابن معين سيء الرأي فيه جاء إليه فقال: يا أبا الحسن أخرج إلينا كتاباً من كتبك، فقال له: عليك بأفلح الصيدلاني، كأنه احتقر ابن معين، فقام ابن معين مغضباً وهو يقول: لا ارتفعت لك معي راية أبداً، توفي سنة ثماني عشرة ومائتين.

أبو بكر القصري المقرئ

تقع أصفهان فى وسط هضبة إيران، وتبتعد عن العاصمة طهران حوالى (700كم

مصادر أخرى

-ABUL FARAÇ، GREGORY BAR HEBRAEUS، "ABUL FARAÇ TARIHI"، TRC: Ö.R.DOĞRUL، ANKARA، 1987.

-AHMED B. MAHMUD، "SELÇUKNAME"، TAHK. E. MERÇIL، İSTANBUL،1977.

-BARHOLD W.، "MOĞOL İSTLASINA KADAR TÜRKISTAN"، TAHK. H.D. YILDIZ، İSTANBUL، 1981.

-EL MESUDI، "MÜRÜCÜ'Z-ZEHEB"، MISIR، 1964.

-EZ ZEHEBI، "SIYERÜ ALAMÜN - NÜBEBI"، BEYRUT، 1986.

-İBN İMAD، "ŞEZERATÜ'Z-ZEHEB"، BAĞDAT.

-İBN TAĞRIBERDI، "EN-NÜCUMÜZ-ZAHIRE"، KAHIRE، 1930.

-İBNI FALDAN، "RISALETÜ İNN FADLAN"، TAHK. S. ED-DAHHAN، DIMIŞK، 1960.

-İBNU'L-ESIR، "EL-KAMIL FIT-TARIH"، BEYRUT، 1966.

-KÖYMEN M. A.، "TUĞRUL BEY VE ZAMANI" İSTANBUL، 1976.

-KÖYMEN M. A.، "ALP ARSLAN VE ZAMANI" İSTANBUL، 1983.

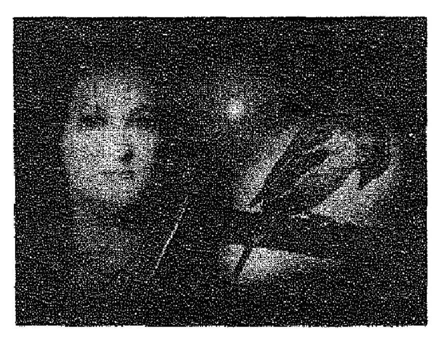
-MUSTAFA CEVAD، "SEYYIDAT EL-BILAT EL-ABBASI"، BAĞDAT.

-SIBT İBNU'L CEVZI، "MIRATÜ'Z - ZAMAN"، MISIR، 1960.

-ÜÇOK B.، "İSLAM DEVLETLERINDE TÜRK NEBILER VE KADIN HÜKÜMDARLAR"، ANKARA 1981.



د. أمل محي الدين محمد الكردي



أمل محي الدين الكردي القرشولي: كاتبة ، وباحثة. حاصلة على شهادة ادراكات حسية وشهادة تدريب بعدة محاور للتنمية الموارد البشرية وشهادة سياحة وطيران وعضو اتحاد الكتاب والأدباء الأردنيين. و عضو حزب الجبهة الاردنية الموحدة وعضو منتدى الوسطية للفكر والثقافة وعضو جمعية صلاح الدين الايوبي وجمعية ابناء الشمال للتنمية الاجتماعية وكرمت بدرع الجمعية لجهودها في الجمعية وكانت عضو سابقا لحزب الوسط الاسلامي وهي من مواليد مدينة السلط عام 1968، كتبت عدة مقالات في الصحف والمجلات المحلية والعربية، وتعمل كناشطة اجتماعية، وكانت مشاركة في تنسيق العرس الجماعي لعام 2005-وعام 2006 وكرمت عليه بالرعاية الملكية في 2007 كما قامت بعمل العرس الجماعي لخمس عرسان من ذوي الاحتياجات الخاصة المجموع عشرة مع الفتيات وقامت برعايته وتقديم كل ما يلزم وهذا نوع من العلاقات الانسانية المشجعة وهي منشوره على عدة مواقع للانترنت كما تعمل على تنسيق الاعمال الثقافية وكما رعت عدة حفلات ثقافية كما اطلقت في 22-3-2007 مسيرة أقراء وتعلم والذي كتبت عنة معظم الجرائد والمجلات الاردنية والعربية واذاعات اردنية منها عمان نت والعربية منها صحيفة الوقت البحرينية وجددت عام 2008ومؤثقة لدى المكتبة الوطنية وعلما انها تطلق سنويا وقد صدر لها كتاب" نفوس زكية"، وكتاب" أنا وأبنائي"،وهذه تعتبر نقلة نوعية للتشجيع على القرأة ودراسة عن الاكراد في الاردن ودورهم في بناء النهضة وتسلية الام المصاب ولها تحت الطبع كتاب شعري ونثري ومقالات باسم" نبض في زمن تائه"، و كتاب" الوسطية في الإسلام"، و" العولمة بين الشباب" ستصدر في نهاية عام 2010 والمسلمون في العصر الحديث ودراسة اسلامية تشريعية بمشاركة ادباء وتشريعيين في الدين الاسلامي(1) وسيحظى بمقدمة رسمية وكتاب عن حسن البنا وكتب اخرى جديدة وهي رئيسة الجمعية الاردنية لتأهيل

ذوي الاحتياجات الخاصة من بداية عام 2008وحاصلة على عدة دروع وتكريم من جهات مختلفة

كما شاركت في عدة مؤتمرات ثقافية وسياسية وكا شاركت منها مؤتمر الوسطية في 25/ 4/ 2006 بعنوان الدور العملي للتيار الوسطيةكما ساهمت في تنسيق عدة برامج ثقافية لعدة جمعيات خيرية وساهمت في عدة محاضرات حول الارهاب والاعاقات كما عملت على محاضرة خاصة للمعهد التضامن للنساء بعنوان دور الاموتربيتهم اتجاه ابناءها المعوقين كما شاركت بنفس العنوان حلقة تلفزيونبة مع الدكتورة نجوى عارف وعلما هي أم لشاب معاق

كما عملت على تنسيق ومحاضرات مع عدة ادباء وكتاب اردنيين وكما شاركت بعدة ورش عمل ومؤتمرات حول المراءة ودورها في المجتمع او دعمها وكان لها عدة لقاءات تلفزيونية واذاعية كما عملت ونسقت على مسيرة الأمان على الطرق برعاية وزير الداخلية الاكرم في 29/ 3/ 2008

وعملت على تصميم والشعار لهذه المسيرة التي لاقت نجاحا أعلاميا وحضور متميز كما كرمت من ملتقى روافد الثقافي احتفالا بعيد الام والوطن وتكريما للامهات ذو الاحتياجات الخاصةوبرعاية سمو الاميرة عالية الفيصل مندوبة عنها وزيرة التنمية الاجتماعية في 20/ 4/ 2008 كما شاركت في عدة ورشات عمل للمعوقين وخاصة مع المجلس الاعلى لشؤون المعوقين وكان هناك عدة ورشات منها القوانيين الواجب أتباعها في نظام الاعفاءات للاشخاص المعوقين في في 8/ 3/ 2008 وكانت برعاية سمو الامير رعد بن زيد وورشة عمل اخرى وهي نحو تطوير خطة عمل وطنية في مجال التدريب وتشغيل الاشخاص المعوقين في 28/ 29/ 4/ 2008 في فندق الراديسون ساس برعاية سمو الامير رعد بن زيد كما حصلت على درع اللجنة الوطنية لتنمية لواء ماركا بمناسبة عيد الاستقلال والثورة العربية الكبرى في 18\6\ 2008 كما تم في هذا التاريخ توثيق وايداع كتاب الاكراد في الاردن لدى المكتبة الوطنية كما شاركت في ورشة عمل حول بناء الحزب في 24\6\2008 في فندق كمبنسكي كما ألقت محاضرة حول ذوي الاحتياجات الخاصة في المعهد التضامن الدولي للنساء في 16 \ 7\ 2008 كما رعت احتفال لكرة الطائرة بين نادي الامل السوري ونادي المستقبل الاردني للاعاقات الحركية في 25\7\2008 في مدينة السلط كما رعت عدة أفطارات في شهر رمضان المبارك لنادي المستقبل الاردني للاعاقات الحركية

وقامت بعمل افطار لهم ورعت العرس الجماعي في 9/ 11/ 2008والذي كان بعشرة من العرسان من ذوي الاحتياجات الخاصةكما شاركت في برنامج أذاعي بالاذاعة الاردنية (لمسة حنان والذي يقدمه عبد السلام الزيودي) يوم الجمعة بتاريخ / 10 / 2008 ومنذ 17/ 1/ 2009 نائب رئيس الجمعية الاردنية لتأهيل ذوي الاحتياجات الخاصة وعضو مؤسس للهيئة الاردنية للتضامن الاجتماعي والانساني وكانت صاحبة مسيرة فكرة أقراء وتعلم والتي غطت اعلاميا ومؤثقة في دائرة المكتبة الوطنية الاردنية والتي تجدد سنويا وجميع الاعمال مؤثقة حاصلة على شهادة تقدير من الجمعية الدولية للمترجمين واللغويين العرب في 1 يناير 2009حصلت على شهادة تقدير ووسام العطاء من حزب الحياة تقديرا لجهودها في خدمة المجتمع المدنيوفي22/ 12/ 2010 تم التوقيع مع دار الآسراء للنشر على أصدار كتاب عن حياة جلالة الملك عبد الله الثاني بن الحسين ملك المملكة الأردنية الهاشمية وسيصدر في 30/ 1/ 2010 بمناسبة عيد ميلاده الميمون شاركت في مؤتمر الملتقى الاول الدولي للفنون الشعبية تحت رعاية الامير حسين بن عبد الله الثاني من 1-2- حزيران 2010 وهي عضو المنظمة الدولية وشاركت مع اتحاد الكتاب الاردنيين ملتقى ومؤتمر مع الوفد الصيني في 4/ 11/ 2011

وكان لها محاضرة في اتحاد الكتاب الاردنيين في 5/ 2/ 2011 ملامح من الادب الكردي والتي غطتها معظم القنوات الاعلامية والصحف الرسمية وغيرها وفي 23/ 2/ 2011 كان لها أمسية ثقافيةفي معهد التضامن الدولي للنساء في صدد أصدارها كتابها (قلب من رماد)أو (صمت الوداع) وقدم المحاضرة الاعلامي علي القيسي وغطتها الصحف الرسمية وغيرها كما أقامت يوم ثقافي كردي في المركز الثقافي الملكي في 9-6-2011 وكانت من المؤسسين للجمعية الاردنية الكردية للثقافة وصاحبة المبادرة الانسانية (مبادرة جواد للسلام 2012) وهي موثقة رسميا

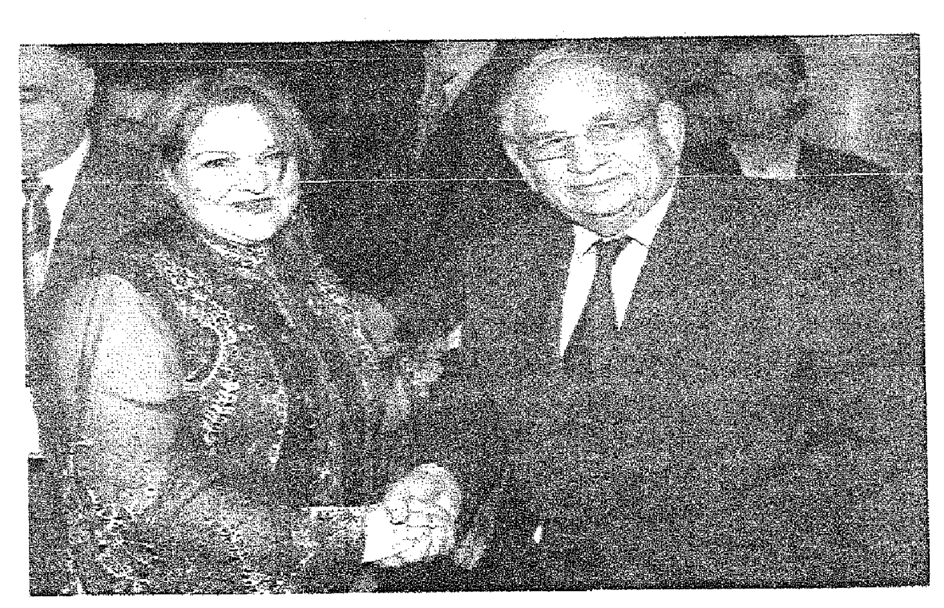
وحاصلة على شهادة الدكتوراه التقديرية من المبادرة العالمية الأنسانية وكما نسقت وأعدت وقدمت في عيد النوروز الكردي المقام في عمان بتاريخ 21\3\2012 وشاركت في العام 2012بتقديم عدة مؤلفين وكتاب في أماكن مختلفة وقد غطت بالصحف الرسمية وغير الرسمية .وحصلت على دكتوراه فخرية بأمتياز من جامعة أمريكية جامعة العالم المفتوح الامريكية

وهذا بعض ما عندي

بعض من الصور



مع سمو الامير الحسن بن طلال



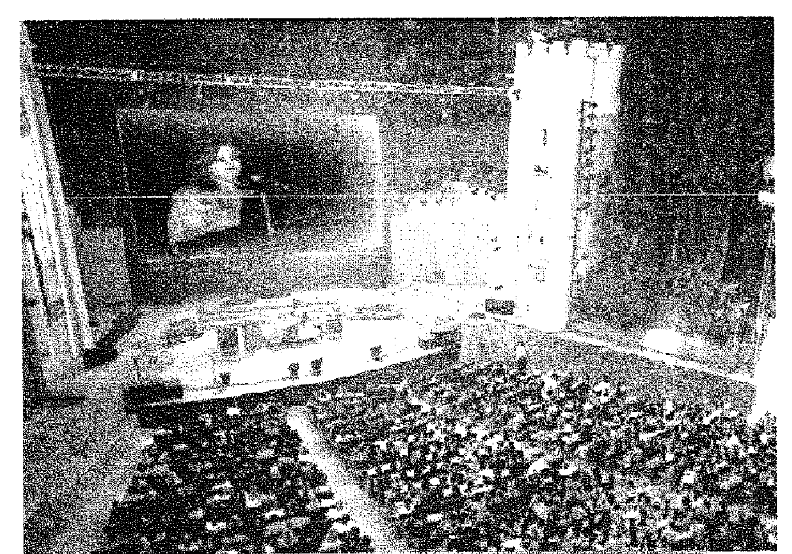
مع سمو الامير رعد بن زيد



سمو الاميرة ثروث الحسن بن طلال

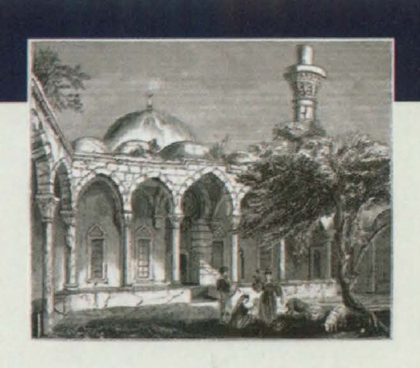


دولة الصادق المهدي





دور النساء في
الخلافة العباسية





دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع

عمان - وسط البلد - شارع الملك حسين

هاتف: 4626626 6 962+ تلفاكس: 4185 461 6 962+

ص.ب: 520646 الرمز البريدي: 11152

www.yazori.com info@yazori.com



9789957125486